من الكتب الأكثر مبيعاً فى العالم

من الممتع أنك ستجد نفسك بين صفحات الكتاب
NPR

ساعي بريد الكتب

ترجمة
أحمد الزناتي

كارستين هِن

مكتبة كتب pdf

سجل في مكتبة
اضغط! الصفحة
SCAN QR

ساعي بريد الكتب

ساعي بريد الكُتب

تأليف: كارستين هِن

ترجمة: أحمد الزناتي

الطبعة الأولى - 2024

ردمك: 978-603-92226-2-0

رقم الإيداع: 1446/4992

هذا الكتاب ترجمة لـ Der Buchspazierer

منشورات نادي الكتاب

المملكة العربية السعودية - الرياض

طريق الملك عبد العزيز - مجمع الفناء الخلفي

publications@club-book.com

مكتبة

t.me/soramnqraa

يمكنك شراء الكتاب من الموقع

www.club-book.com

@BC__Pub

كارستين هِــن

ساعي بريد الكُتب

مكتبة
t.me/soramnqraa

ترجمة:

أحمد الزناتي

منشورات نادي الكتاب

«وما الرواية إلا وتــــر كمانٍ،
وصدى أنغـامها هو روح القارئ»

ستندال

فهرس المحتويات

الفصل الأول: ألوان من البشر 9

الفصل الثاني:.الغريب 53

الفصل الثالث: الأسود والأحمر 105

الفصل الرابع: آمـال عُـظـمَـى 147

الفصل الخامس: الكلمات 201

الفصل السادس: اقتفاء الأثـر 243

الفصل السابع: رحلة في آخر الليل 301

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الأول
ألوان من البشر

يُقال: إنَّ الكتب تختار قُرّاءها، ومع ذلك قد تحتاج الكتب أحيانًا إلى مَن يرشدها إلى الطَّريق الصحيح.

وهذا ما وقع في يومٍ من الأيام الأواخر في فصل الصيف، وتحديدًا في مكتبة اسمها «بوابة المدينة»، وهو اسمٌ على مسمى، فبوابة المدينة القديم ـ أو بالأحرى ما تبقّى من أطلالها الدارسة التي طالما رآها سُكان المنطقة عملًا فنيًّا جسورًا ـ كانت تقع على بعد ثلاثة شوارع من تلك المكتبة.

أما المكتبة، فهي مكتبة عتيقة، ومُشيّدة منذ عهد قديم، ثم طرأت عليها أعمال التوسعة والتطوير مرارًا وتكرارًا على مدار حقب تاريخية متعددة، وكانت مزدانة بالزخارف المعمارية الباذخة، أما أركانها، فمُصمَّمة بزوايا قائمة خالية من الزخارف، وكانت مصنوعة من الجصّ وَفق طراز العمارة الحديثة. علاوة على ذلك انعكس التجاور بين الطرازين القديم والحديث، والمَزج بين الأصالة والمعاصرة، نقول: انعكَس على تصميم

الواجهة الداخلية للمكتبة، والتصميم الداخلي على حد سواء، وآية ذلك وجود حوامل مصنوعة من البلاستيك الأحمر لحَمْل الأقراص المضغوطة وأقراص الفيديو الرقمية (DVD) جنبًا إلى جنب مع الرفوف المعدنية المصقولة. وهي مصفوفة إلى جوار نماذج الكرة الأرضية المعروضة في قوارير زجاجية مصقولة لامعة، أو جوار أرفف خشبية أنيقة رُصَّت الكتب فوقها رصًّا منسقًا. هذا إلى جانب عرض ألعاب الترفيه الاجتماعية، والأدوات المكتبية، وعلب الشاي، وحتى الشكولاته التي كانت إضافة حديثة.

وسط الردهة المركزية الشبيهة بمتاهة استقرّتْ منضدة ثقيلة غامقة أطلَقَ عليها موظّفو المكتبة اسم «المذبح»، وبدت كأنما هي قادمة من عصر الباروك[1]، حيث نُقِشَت على سطحها منحوتة بارزة تصوِّر مشهدًا ريفيًّا لجَمْعٍ من الصيادين يمتطون جيادًا قوية، ويحفهم قطيع من الكلاب السلوقية، وهم يطاردون قطيعًا آخر من الخنازير البرية.

وفي أحد الأيام دخلت زائرة وطرحت السؤال الذي لا يتوقّف زبائن متاجر الكتب عن طرحه:

---

(1) فن الباروك: هو واحد من فنون العمارة المتميزة، وهو يتصف بالإسراف في الزخارف والتنميق، وقد ساد هذا الفن في أوروبا في القرنين السابع عشر والثامن عشر، ثم انتقل إلى فن الموسيقى (المترجم).

ـ هل يمكنكم ترشيح كتاب جيّد؟

أما السائلة، فكانت السّيّدة أوسيل شيفر، ومع أنها كانت أعلم النَّاس بمواصفات الكتاب الجيد، لكنها طرحت السؤال من باب اختبار مسؤولة المكتبة.

من وجهة نظرها يُشترط في الكتاب الجيد أن يتسم ـ أول ما يتسم ـ بالطرافة والجدية في آن واحد إلى درجة تجعل القارئ ساهدًا في فراشه ليواصل القراءة حتى يسقط جفناه من التَّعب. وأما السمة الثانية، فهي أن يكون الكتاب قادرًا على إثارة دموع قارئه ثلاث مرات أو أربع على الأقل. وثالثًا ألا يقل عدد صفحاته عن ثلاثمائة ورقة، ولا يزيد عن ثلاثمائة وثمانين ورقة، ورابعًا ألا يكون غلاف الكتاب أخضر أبدًا، فقد علّمتها التجارب المريرة وفي مناسبات كثيرة ألا تثق بكتب ذات أغلفة خُضر أبدًا. أجابت سابينه جروبر التي عُهد إليها بتولي مسؤولية إدارة مكتبة بوابة المدينة قبل ثلاث سنوات:

ـ بالتأكيد، ولكن ما نوعية الكتب التي تفضّلين قراءتها؟

لم ترغب أوسيل شيفر في التصريح بالإجابة، بل أرادت من السّيّدة سابينه جروبر أن تعرف الجواب من تلقاء نفسها، فهي بائعة كتب في المقام الأول، وهذا مما يوجب عليها أن تتمتع بالفراسة ومَلَكة الاستبصار لتخمين ما يحبّه القُراء.

ـ لا بأس، أخبريني فقط بثلاث كلمات مفتاحية، وسأجد

النوع الملائم لذوقك، هل هي: كتب رومانسية أم أنها روايات جنوب الريف الإنكليزي أم أنك تفضّلين الروايات الخفيفة؟

سألتْ أورسيل شيفر بنبرةٍ مشوبة لا تخلو من الاستياء:

ـ هل السّيّد كولهوف في المكتبة اليوم؟ لأنه الوحيد الذي يعرف الكتب التي أفضِّلها، بل إنه يعرف الكُتب التي يفضِّلها كل إنسان.

ـ لا، يؤسفني إبلاغك أنه ليس موجودًا اليوم في المكتبة، فهو يعمل معنا بصفة عَارضة.

ـ هذا من سوء حظي.

ـ ومع ذلك ربما أستطيع أن أرشِّح لكِ شيئًا، هذه ملحمة عائلية تدور أحداثها في مقاطعة كورنوال[1] الإنكليزية، انظري: على صفحة الغلاف قصر العائلة المهيب الساخر، والمنتزه المحيط به.

نظرت أورسيل إلى البائعة نظرة مستنكِرة وقالت:

ـ لكن الغلاف أخضر.

ـ هذا طبيعي؛ لأن أحداث القصة تدور في ضيعة إيرل

(1) مقاطعة إنكليزية ساحلية تقع جنوب غرب إنكلترا، وتنتشر فيها الآثار القديمة (المترجم).

دورنبورو في الريف الإنكليزي، وقد لاقت الرواية استقبالًا حافلًا من القُراء، وحظيت بمراجعات ممتازة.

في تلك اللحظة فُتح الباب الأمامي الثقيل للمكتبة، فدوَّى الجرس النحاسي المُعلق أعلى الباب برنين مبهج يسرّ السامعين، ثم ظهر السّيّد كارل كولهوف، فطوى مظلّته ونفضها، وعلّقها فوق الحامل.

أجال نظره بأركان المكتبة التي طالما رآها بيته الحقيقي، وكان يرصد بعينيه العناوين الواردة حديثًا إلى المكتبة؛ ليضعها في واجهة العَرض ليُطلِعَ عليها زوّار المكتبة. طالما بدت هيئته كهيئة جامع القواقع الجوّال على الشاطئ، إنه خبير لا يحتاج إلا نظرة واحدة للعثور على الكنوز المغمورة، فينفض عنها الرمال ويضعها أمام الناظرين. ما أنْ وقعت عيناه على أورسيل شيفر حتى تذكَّر كل شيء، وقد رَمَته أورسيل بابتسامة مشرقة دافئة، كما لو كانت مزيجًا سحريًا من أرواح بطلات الروايات التي أوصى بها كارل على مدار سنوات طويلة، ووقعَتْ في أسرها.

في الماضي طرأ على بطنه كِرْشٌ صغير، لكنه انحسر الآن مثلما انحسر شَعْر رأسه مع مرور السنوات، كما لو أنهما اتفقا على الاختفاء في وقتٍ واحد، وقد غدا جسده، بعد أن ناهز الثانية والسبعين، ضاويًا هزيلًا في بنيته، وهو - على ذلك - يَلقى النّاس مرتديًا ملابسه القديمة التي كان يرتديها في شبابه،

مع أنها قد أضحت الآن فضفاضة واسعة على جسده العجوز الهزيل.

أخبره رئيسه السابق أن الكلمات المطبوعة على صفحات الكتب تحوّلت في الأغلب إلى قوت يومه وغذائه الوحيد، وهي كلمات لا تسمن ولا تُغني من جوع، فكان ردُّ كارل الذي لا يتغيّر:

ـ صحيح، أنها لا تُسمن ولا تُغني من جوع، لكنها دسمة بمحتواها الروحي.

اعتاد كارل انتعال حذاء متين من الجِلد الأسود السميك المزوّد بنعلٍ قوي؛ ليُعمَّر معه مدى الحياة، فضلًا عن ارتداء الجوارب الثقيلة التي كانت ضرورة لا غنى عنها. كما دأب على ارتداء سروال ذي حمّالات لونها أخضر زيتوني، وسترة لها ياقة من اللون نفسه، وداوَمَ على اعتمار قبعة صياد ضيقة الحواف؛ لوقاية عينيه من رذاذ المطر أو وهج الشمس، ولم يكن يخلع قبعته قط حتى داخل الغرف وفي الأروقة، لم يكن ليخلعها قط إلا ساعة أن يأوي إلى فراشه، إذ كان يشعر دون القبعة أنه لم يرتد ملابسه كاملة.

لم يسبق أن رآه أحد دون نظارته الطبية التي اشتراها من متجر نظارات عتيق قبل عقود عدة، وأسفل نظارة القراءة عينان نابهتان مجهدتان من فرط القراءة تحت ضوء المصباح الواهن.

ـ آنسة شيفر: تسرّني رؤيتك اليوم.

قالها كولهوف وهو يقترب ببطء من أورسيل شيفر التي دنت منه هي الأخرى مبتعدةً عن بائعة الكتب سابينه جروبر، وخاطبت كارل:

ـ سأغتنم فرصة وجودكَ الآن، وأسألكَ أن ترشَّح لي كتابًا شائقًا صالحًا للقراءة قبل النوم، كانت توصِيَتَكَ المرة الفائتة ممتازة، وغمرتني بمتعة هائلة، لاسيما عندما انتهت الرواية بأنْ غرقت نظرات الأبطال في بعضهم البعض، ومع ذلك افتقدَتْ الرواية إلى قُبلة حانية لتكون مسك الختام، ولكني راضية بنهاية الرواية من خلال النَّظر ات الحانية.

وتابعت:

ـ ومع ذلك سيد شيفر، فبعض النَّظرات الصادقة أصدق أثرًا من القُبُلات.

ثم أردفت:

ـ باستثناء قُبلاتي أنا بالطبع.

في هذه اللحظة راودها شعور أنها امرأة لعوب، وهو شعور قلّما انتابها. قال كارل وهو يلتقط كتابًا من كومة الكتب المجاورة للصندوق:

ـ منذ وصول شحنة الكتب الأخيرة تنتظرك هذه الرواية

بفارغ الصبر، تدور أحداثها في إقليم: (البروفانس)[1]، وكل كلمة فيها مُعبقّة بعَبَق زهور اللافاندر.

- أحَبّ الروايات إلى قلبي هي المجلّدة بالغلاف الأحمر النبيذِيّ..، ولكن هل تنتهي الرواية بقُبلة؟

- وهل أحرقتُ لكِ يومًا نهاية رواية؟

- لا

رمقته المرأة بنظرةٍ عابسة بعض العبوس، وأخذت من يده الكتاب، صحيح أن كارل لم يرشّح من قِبل رواية تنتهي نهاية حزينة، ومع ذلك لم يشأ أن يحرِمَ السّيّدة أورسيل شيفر من بعض التشويق وإثارة الفضول.

مكتبة
t.me/soramnqraa

أضافت أورسيل:

- ربما لا تدري مبلغ سعادتي بوجود الكتب في هذا العالَم، ورجائي أن يستمر وجود الكتب في الحياة، مع أن الحياة نفسها تموج كل يوم بتغيرات كثيرة متلاحقة، ها قد صار النَّاس اليوم يتعاملون بالورق النقدي المصنوع من البلاستيك، ولو أخرجت يومًا عملة معدنية لَنَظر النَّاس إليَّ شذرًا.

- صدّقيني يا سيدة شيفر، ستدوم الكلمات المكتوبة مادام

---

(1) منطقة في جنوب شرق فرنسا، مشهور بمناظرها الطبيعية الخلابة، ومشهور بزراعة زهور الخزامي (اللافندر) (المترجم).

البشر على وجه الأرض؛ لأنها الوسيلة المثلى للتعبير عن مشاعرنا، والكتاب الورقي هو خير مستودع لصون الأفكار والقصص؛ كي تبقى في مأمن من الفساد مدة قرون.

بابتسامة دافئة ودَّعها كارل كولهوف، ثم اجتاز بابًا مغطى بملصقات إعلانية، وقصد غرفة اتُّخِذت مخزنًا ومكتبًا. كانت طاولة المكتب تئنّ تحت ثِقَل أكوام الكتب، وعلى أركان شاشة جهاز الحاسوب القديم ألصِقَت بطاقات صغيرة صُفر، وعلى الحائط المقابل عُلِّقَت خُطة العمل السنوية، وعليها ملاحظات كثيرة باللون الأحمر.

جرت العادة على رصِّ طلبات الكتب الخاصة بِكارل كولهوف في صندوق بلاستيكي أسود في ركن مظلم مهجورٍ من أركان الغرفة. في الماضي كان صندوق كارل كولهوف يُوضَع فوق هذا المكتب، ولكن بعد أن توّلَت سابينه جروبر إدارة شؤون المكتبة بتكليف من أبيها مضى صندوق كولهوف يتراجع منسحبًا إلى الوراء خطوة وراء الأخرى؛ ليستقرَّ في الزاوية البعيدة المنسية التي يتعذّر الوصول إليها، وبالتوازي مع ذلك انخفضت محتويات الصندوق تدريجيًّا، وتضاءل عدد مَن يطلبون الكتب هذه الأيام، وطفق عددهم بالفعل يتناقص سنة وراء الأخرى.

- مرحبًا سيد كولهوف.. أخبرني ما رأيك في المباراة؟ مستحيل أن تكون هذه ركلة جزاء صحيحة! لا بدّ أن حَكَم المباراة أعمى!

كانت هذه كلمات الفتى ليون، ذلك التلميذ المتدرّب الجديد، قالها عند خروجه من دورة مياه الموظفين الصَّغيرة، وقد غشيته سحابه من دخان السجائر، وكان الجميع يعلمون مدى سخافة طَرح مثل هذا السؤال على كارل الذي لم يكن يشاهد الأخبار، ولا يستمتع إلى الإذاعة ولا يقرأ الجرائد أبدًا. لقد آثر كارل العيش على الحافة، وكان هذا اعترافًا منه أقرّ به بنفسه، وقد اختار هذه العزلة بمحض إرادته منذ أن تواترت الأنباء الواردة عن انعدام كفاءة رجال الدولة في بِلاده، وتفاقم ظاهرة الاحتباس الحراري، وذوبان الجليد، ومعاناة اللاجئين، كانت تلكم الأخبار تحزُّ في نفسه، وتغمر قلبه حزنًا يفوق حُزن أكثر ملاحم الروايات العائلية احتشادًا بالمأساوية، فرأى في انتباذ العالم والعُزلة لونًا من ألوان صون الذات، حتى وإنْ صغرت حدود عالمه منذ ذلك الحين. كانت حدود عالَمه لا تتجاوز مساحة أربعة كيلومترات مربعة، وكان خطواته المتجوّلة لا تخرج عن حدود هذا العالَم.

وعوضًا عن الردّ على سؤال الشاب على مسألة التحكيم في المباراة، سأله كارل كولهوف:

- هل قرأتَ كتاب جي إل كار الرائع عن كرة القدم؟

- هل يتحدث الكتاب عن النادي الذي أشجّعه؟

- إطــلاقًــا..، وإنــمــا أقــصــد روايــة Steeple Sinderby Wanderers[1].

- لـم أسمع عن الكتاب، على أي حال لستُ من هواة القراءة، اللهم إلا إذا اضطررتُ إلى ذلك في المدرسة. وحتى في الفصل الدراسي أوثر مشاهدة الأفلام على القراءة.

- ولِمَ تؤدي فترة التدريب الصيفي إذًا في المكتبة؟

- لأن أختي أمضت فترة تدريبها الصيفي هنا قبل ثلاثة أعوام، ليس إلا، فبيتنا قريب من المكتبة، ولا يبعد عن هنا إلا مسافة قصيرة سيرًا على الأقدام.

لم يكن هذا كل شيء، لقد أغفل الفتى ليون عامدًا الإشارة إلى أن مَن يفشل في الحصول على تدريب عملي في أي مكان يُضطرّ إلى قضاء الأسبوعين المخصصين للتدريب في أعمال الصيانة والنظافة داخل المدرسة، في هذه الحالة ينتهز مشرفُ الصيانة الفرصة للانتقام من التلاميذ الجامحين الذي يقضون فترة تدريبهم في المدرسة، فيكلّفهم بتنفيذ الأعمال المتدنية، من قبيل

(1) المقصود الرواية الرابعة للكاتب البريطاني ج. ل.كار (1912-1994) الذي ذاع صيته في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، والرواية عبارة عن خيال هزلي يصف في صورة سرد تاريخي كيف هَزَم نادي كرة قدم قروي نادي رينجرز المشهور في الدور النهائي على ملعب ويمبلي (المترجم).

تنظيف الجدران الملطّخة بالرسوم، وإزالة العلكة الملتصقة أسفل مناضد الدراسة في الفصول، والتخلّص من الشطائر الفاسدة المُلقاة هنا وهناك.

ـ وماذا عن أختك؟ هل تحب القراءة؟

ـ منذ أن تدرّبتْ هنا وقد تحوّلت إلى قارئة نهمة، لكني لن أحذو حذوها أبدًا.

عندها ابتسم كارل ابتسامة خفيفة؛ لأنه كان يعلم سبب إقبال أخته على القراءة. كان رئيسه السابق صاحبُ المكتبة السّيّد جوستاف جروبر الذي يعيش الآن في دار مونستربليك لرعاية المُسنّين؛ كان رجلًا واسع الحيلة، فابتكر طريقة ناجعة للتعامل مع كارهي القراءة (من أمثال ليون وشقيقته)، فكان يطلب منهم نفض الغبار عن بطاقات التهنئة المغلفة بالورق البلاستيكي الشفاف، تلك المرصوصة على رفوف المكتبة، وما أكثرها! ولكسر دائرة الملل الجهنمية الناشئة عن هذه المهمة المضجرة كانت أيادي التلاميذ المتدربين تمتدُّ تلقائيًّا وعلى نحو لا إرادي إلى أقرب كتاب، وهو الكتاب الذي يكون قد وُضع بطبيعة الحال وفق خُطة مُحكمة من تدبير جوستاف جروبر لحثّهم على الإمساك بكتاب، أي: كتاب.

كان السّيّد جوستاف يجيد التعامل مع الأطفال ويحسن فهمهم على خلاف كارل الذي رأى الأطفال مخلوقات غريبة الأطوار عصيّة على الفهم، وما أشبه الليلة بالبارحة، حيث لم

يختلف الأمر الآن عن سنوات الطفولة، وكلما ابتعدت عنه سنوات الطفولة، بدا له الأطفال أشدّ غرابةً.

كان العجوز جروبر قد أغرى شقيقة الفتى ليون بقراءة رواية، وكانت أحداثها تدور حول امرأة شابة تقع في حبّ مصاص دماء. أما ليون (الذي اضطرم صدره بعنفوان المراهقة)، فقد ترك السّيّد جروبر في متناول يده كتابًا تصدّرت غلافه فتاة مراهقة بارعة الجمال، وكانت كلمات الكتاب مطبوعة بشكل كبير يشجع على القراءة. وكان الشيخ الهَرِم جروبر يردد:

- المهم أن يقرأوا، وليس ما يقرأوا.

إلا أن كارل لم يشاطره هذا الرأي فيما يخصّ الكتب؛ لأن بعض الأفكار المبثوثة بين ثنايا الكتب أشد فتكًا من السُّمّ، وبعضها مما يجد فيه القارئ شفاءً؛ حتى وإن لم يعرف أنه يعاني من داء محتاج إلى دواء.

بعناية شديدة سحب كارل الصندوق من الزاوية، ولم يكن الصندوق يحتوي إلا ثلاثة كتب مُلقاة بلا اهتمام، ثم جلب ورقًا بنيًّا وشريط تغليف ليحزم كل كتاب بشكلٍ منفرد على شكل هدية، مع أن سابينه جروبر أخبرته أكثر من مرة ألا يزعج نفسه بذلك، وأن يوفر على نفسه التكلفة الزائدة؛ لكنه أَبَى إلا أن يلفّها بهذه الطَّريقة؛ كي يبقى عند حسن ظنّ عملائه. وبحركة لا

إرادية كان يمسّد على سطح كل غلاف قبل تغليفه بورق الهدايا السميك.

وأخيرًا، التقط حقيبة ظهره ذات اللون الأخضر الزيتوني، وهي حقيبة عتيقة امتلكها إبّان تأديته الخدمة العسكرية في الجيش الألماني، وقد بدت الحقيبة حسنةَ المرأى، مع أنَّها اهترأتْ وبَلَيَتْ بعد سنوات الخدمة في الجيش، إذ كان كارل يعتني بها عنايةً جيدةً، ومع أن الحقيبة كانت فارغة إلا أن تهدّل قماشها مما أظهر هذا الفراغ بوضوح جليٍّ. على كل حال: أسقط كارل الكتب بلُطفٍ بين طيات حقيبة الظهر المتينة التي بطَّن ظهرها بطبقة من الصوف الناعم، وقد بالغ في العناية بحمل الكُتب كما لو كان يَحمل جراءً صغيرة مولودة للتوّ. رتَّب الكتب الثلاثة داخل حقيبة الظهر بطريقة يكون فيها أصغرها حجمًا بعيدًا، بينما يقع أكبرها حجمًا جوار ظهره مباشرةً؛ كيلا ينبعج الغلاف بتأثير انحناءات الحقيبة. على أنه عند مغادرته للمكان ما لبث أن توقّف مفكرًا، والتفت إلى ليون وخاطبَه:

ـ هلا أزلتَ الغبار عن بطاقات المعايدة المرصوصة على الرفوف؟ من المؤكد أن ذلك سيُسعد السّيّدة جروبر كثيرًا. ربما يكون من الأفضل لو أحضرَت البطاقات إلى غرفة المكتب، حيث يمكنك العمل في هدوء، أنا شخصيًّا كنت أفعل ذلك على الدوام فوق هذا الطاولة.

في حوالي ذلك كان كتاب: حمّى الملعب Fever Pitch[1] للكاتب المعروف (نيك هورنبي) فوق الرفوف، وكانت صورة ملعب كرة القدم التي تزيّن الغلاف مخضبّةً باللون الأخضر اليانع الجذاب، وهو ما لم يكن ليجذب نظر السّيّدة أورسيل شيفر بطبيعة الحال.

اعتاد كارل أن يُطلق عليها اسم «جَوْلَتَهُ»، مع أن الجولة كانت أشبه بمضلّع حول المدينة، خلوّ من الزوايا القائمة أو التناظر. وكانت حدود عالمه هي الطَّريق التي حدّدتها أنقاض سور المدينة القديمة التي كانت منتصبة مثل بقايا أسنان مكسورة في لثّة شيخ طاعن في السن. وعلى مدار أربع وثلاثين سنة لم تطأ قدماه خارج تلك الحدود، حيث اشتملت تلك البقعة على كل ما يحتاج إليه ليواصل عيش الحياة.

أنفق كارل كولهوف أغلب وقته في جولات المشي الطويلة، وكان ذهنه يُكثر من التفكير مثلما كانت ساقاه تكثران من المشي، وطالما راوَدَه شعور بأن التفكير بذهنٍ صافٍ مقرون بالمشي، وكأن خطواته في الشوارع المُعبَّدة بالحصباء بمنزلة إلقاء حجر في بركة مياه حياته الراكدة. قد لا يتضح المحور الدائري للمدينة لشخصٍ يمشي في طريقه المعتاد، لكن كل

(1) كتاب نيك هورنبي هو الأنجح على الإطلاق في تاريخ مطبوعات كرة القدم، حيث باع ما يزيد عن مليون نسخة، وأُنتج فيلم مقتبس عنه يحمل الاسم ذاته (المترجم).

حمامة وكل عصفور يعرف أن المدينة مصمّمة على هيئة دائرة، وأنَّ كل منزل وكل شارع، بل كل زقاق يولّى وجهه شَطْر الكاتدرائية المهيبة التي تحتل مركز البلدة. ولو كانت المدينة جزءًا من تخطيط مسار السكك الحديدية، لقلنا: إنَّ الكاتدرائية قد شُيِّدتْ في المكان الخطأ. والحقيقة، إن الكاتدرائية شُيّدت في حقبة قديمة نعَمت فيها المدينة بالثراء، لكن تلك الحقبة لم تدُم طويلًا، وانقضى عهدها قبل إتمام بناء الكاتدرائية، حيث تُرك أحد أبراجها غير مُكتمل البناء.

كانت المنازل المطوِّقة لمحيط الكاتدرائية مُصمّمة تصميمًا من شأنه أن يُضفي مظاهر التوقير والهيبة على مبنى الكاتدرائية العريق، حتى إن بعض أسطح المنازل القديمة بدت كأنها تنحني إجلالًا واحترامًا لمقام الكاتدرائية مُحافِظةً في الوقت ذاته على مسافة كافية من المدخل الرئيس، للسماح بظهور أكبر ساحات المدينة وأجملها، وهي المعروفة بساحة ميدان مونستر Münsterplatz.

ما أن خطا كارل بقدميه إلى ساحة الميدان حتى غزاه شعور طالما كان يراوده في مرات سابقة، شعور أنه تحت المراقبة المستمرة، وكأنما هو غزال في حقل مكشوف، يبدو مكتوف الأيدي في مرمى نيران الصياد، فلم يملك ساعتها إلا أن يبتسم؛ لأنه لم يشعر قبل ذلك قد أنه غزال.

ولمّا صار كارل وسط الميدان تسللت إلى أنفه رائحة قوية.

تقول الأسطورة: إنَّ حصارًا شديدًا ضُرِب على المدينة في القرن السابع عشر الميلاد، فابتكر أحد الخبازين كعكة عجلة السكر، وهي شيء أشبه بكعكة (الدونات)، والكعكة مخبوزة على هيئة عجلة مضلّعة، مغموسة في مخفوق الشكولاتة، وفوقها السكر المطحون. ثم حَمَل الخبّاز الكعك إلى القوات التي تحاصر المدينة من باب بعث رسالة مفادها رغبة أهالي البلدة في فكِّ الحصار ورحيل القوات، ومنذ ذلك الحين وعلى امتداد قرنين بعد فكِّ الحصار المضروب على البلدة امتنَعَ النَّاس عن خبز تلك الحلوى عالية السعرات، وهو ما تؤكده الأدلة والشواهد التاريخية. ومع انقضاء تلك الفترة الطويلة ما تزال الحكاية الأسطورية ملء الأسماع، ويميل زوّار المدينة من السوّاح على تصديقها.

اعتاد كارل أن يقطع الطَّريق نفسه كل يوم سيرًا على الأقدام بخطوات متمهلة منتظمة فوق الحجارة المرصوفة بالحصباء في ميدان مونستر بلاتس، ومتى اعترض طريقه أحد المارَّة توقف قليلًا، ثم جعل يحثّ خطاه بعدها لتعويض ما فاته من لحظات التوقف. كما أنه رَسَمَ طريقَه عبر الميدان بعناية شديدة تساعده على اجتيازه بسلاسة ودون عوائق في أيام إقامة سوق السلع، متوخيًا الحرص الشديد في الابتعاد قَدر الإمكان عن المخابز الأربعة للساحة؛ لأنه لم يعد يطيق تحمّل رائحة كعك الدونات الساخن الدسم الغني بالسكر.

انعطف كارل إلى زقاق بيتهوفن، وزقاق بيتهوفن هذا مجرد زقاق صغير ليس إلا، ومن ثم لا يليق حجمه باسم الموسيقار العظيم، بيد أنَّ واحدًا من موظفي التخطيط في البلدية أراد وضع بصمته الخاصة من خلال إطلاق أسماء أساطين الموسيقيين الألمان على الشوارع، فأطلق اسم الموسيقار (بيتهوفن) على هذا الزقاق، بينما خَلَع على أكبر شوارع البلدة اسم (شوبرت)، وهو الموسيقار المفضّل عنده! لم يتنبّه كارل كولهوف في هذه اللحظة إلى أنه يقف في قلب عالِمه الخاص، ويطوقه من جهة اليمين واليسار خطا الترام رقمي: 17 و57، (واقع الأمر أن في المدينة كلها سبعة خطوط ترام فقط، لكن رُقِّمت خطوط الترام بهذه الأرقام لتعطي انطباعًا أنها مدينة عالمية كثيفة السكان). على الجانب الآخر يقع الطَّريق السريع من الشمال، والنهر من الجنوب. وكان النهر يتدفّق تدفقًا هادئًا معظم أيام السنة، ولا يرتفع منسوب مياهه إلا بضعة أيام فقط في أثناء فصل الربيع، ليصدرَ عنه صوت خريرٍ متواضعٍ يتداعى، وكأنما هو صوت شِبل ناشئ يزأر من حين إلى آخر بأحبال صوتية ضعيفة مازالت في طور التكوين.

كانت المحطة الأولى في زقاق يُسمّى: «زاليرجاسّه Salierigasse»، وتحديدًا منزل السّيّد كريستيان فون هوهينيش. لم يسبق أن لاحظ المُشاة المسرعون أبّهة وعظمة الفيلا المُشيّدة بالأحجار السوداء التي كانت واقعة على بُعد ذراع من المباني الأخرى، ساكنةً منعزلةً كبجعة سوداء منزوية على نفسها في

انتظار اللحظة الملائمة لتنشر أجنحتها ذات الألوان الزاهية. وفي الخلف حديقة غناء مستطيلة تصطف على جانبيها أشجار البلوط الضخمة. انتصبت ثلاثة مقاعد في أماكن متفرقة أتاحت لمالك الفيلا (السّيّد كريستيان فون هوهينش) أن يقرأ أي كتاب متى شاء، وفي أي وقت من أوقات اليوم تحت أشعة الشمس الساطعة.

لم يخف على كارل أنَّ السّيّد هوهينيش رجل واسع الثراء، ومع ذلك لم يعرف أنه أغنى مواطني المدينة، لا أحد يعرف (ولا حتى هوهينش)؛ لأنه لم يضع نفسه موضع مقارنة من الآخرين قط. لقد استطاع أسلافه تكوين ثروة طائلة من خلال احتراف مهنة دباغة الجلود على ضفة النهر، وتمكنت العائلة من حماية هذه المهنة من الانقراض ببراعة، حتى بعد تدشين حقبة التصنيع الآلي. أما السّيّد كريستيان نفسه، فلم يكن في حاجة إلى العمل؛ لأن يوظِّف مَن يعملون تحت إمرته، ودرَّت أسهم شركاته واستثماراته عليه أرباحًا وفيرة، فتفرّغ الرجل فقط لإدارة ثروته.

كانت مديرة المنزل تزوره مرة واحدة يوميًّا لطهو الطعام وترتيب الغُرف المأهولة (وهي قليلة)، ويأتي البستاني مرة واحدة أسبوعيًّا لتقليم الشجر، والتأكد من نفاد أشعة الشمس لتضيء صفحات الكُتب التي يقرأها، بينما يأتيه من يُعني بشؤون النظافة مرة كل شهر.

اعتاد كارل كولهوف المرور بمنزل السّيّد كريستيان فون هوهينش بدايةً من يوم الإثنين إلى يوم الجمعة من كل أسبوع، وفي كل زيارة يسترد الكتاب المُعار، ويطلب منه السّيّد النبيل جَلب كتابٍ جديد في اليوم التَّالي. على حدٍّ علم كارل لم يغادر السّيّد هوهينش حدود مملكته منذ أمد بعيد.

قرع كارل الجرسَ عن طريق سحب قضيب نحاسي، فأحدث القَرْعُ دويًّا عميقًا في أعماق الفيلا، وكما هو الحال دائمًا استغرق الأمر بعض الوقت حالما يقطع صاحب المنزل الردهة الطويلة المظلمة لفتح الباب الخشبي الثقيل الذي يصدر صريرًا، ومن ثم بدت فُرجة صغيرة فقط، لكن الرجل النبيل فون هوهينش لم يخرج.

أما السّيّد كريستيان، فكان رجلًا وسيم الطلة، وذا شعر داكن، وقامة مديدة، وأسارير وجه توحي بعراقة أصله، وله ذقن مخروطية مستدقّة مميّزة الشكل، بينما يخيّم حزن عميق أشبه بمسحوق رمادي على كل أسارير وجهه.

كان من عادته ارتداء بذلة زرقاء غامقة اللون مزدوجة الخياطة، ووضع زهرة أوركيد بيضاء ناضرة لتزيين عُروة السترة، كما كان يحَرص على انتعال حذاء جلدي أسود لامع مصقول، كما لو أنه يتهيّأ لحضور حفل في دار الأوبرا. ومع أنه كان يرتدي ملابس قديمة الطراز كانت ملامحه توهم بصِغر سنه، إذ لم يكن قد ناهز السابعة والثلاثين من عُمره، لكنه اعتاد منذ

نعومة أظفاره ارتداء البذلة، وكان يرى في ارتدائها شيئًا بدهيًّا لا غرابة فيه مثلما يرتدي الآخرون الجينز في أيامنا هذه.

قال هوهينيش وهو يحيي الضيفَ:

ـ سيد كولهوف: لقد تأخرتَ كثيرًا.. اتفقنا أن تصل في تمام الساعة السابعة والربع.

أحنَى كولهوف رأسه معتذرًا، وما لبث أن أخرج الكتاب المطلوب من حقيبته قائلًا:

ـ إليك الرواية الجديدة التي طلبتَها.

ثم بادر بتسوية عُقْدَة الخيط الذي يلفُّ الكتاب بعد أن ناله شيء من الانبعاج في أثناء النقل.

ـ نعم، طلبتُ هذا الكتاب بناءً على توصيتكَ، وآمل أن تكون التوصية في محلّها.

أخذ هوهينش الكتاب، ولكنه لم يفتحه. كانت أحداث الرواية عن تلقّي الإسكندر المقدوني دروسه في الحِكمة والسياسة على يد الفيلسوف الإغريقي أرسطوطاليس؛ لأن هوهينيش لم يكن يقرأ إلا الأعمال الفلسفية. نفح السّيّد هوهينش كارل الإكرامية التي كانت ملائمة لوزن الكتاب دائمًا، وكان قد خمَّن وزن الكتاب.

ـ حسنًا، في المرة القادمة أرجو الحضور في الموعد

المضروب، فالالتزام بالمواعيد من آداب الملوك، أتمنى لك يومًا سعيدًا.. إلى اللقاء.

ـ أتمنى لك يومًا سعيدًا سيدي... إلى لقاء قريب.

وما أنْ أغلق كريستيان فون هوهينش الباب حتى ران على المكان صمتٌ ثقيل. ودَّ صاحب البيت من أعماق قلبه لو أنه تجاذب أطراف الحديث مع كارل عن الكتب والكُتّاب؛ بسبب ما عرفه عن الأخير من: سعة الثقافة، ودماثة الخُلق، وطهارة النفس. ومع مرور الزمن هربت من شفتيه الكلمات المناسبة لتوجيه الدعوات إلى الضيوف، ولا بد أنه فقد تلك الكلمات في مكانٍ ما من بين الغرف الكثيرة التي يمتلئ بها منزله الكبير.

واقع الأمر، إنّ كارل لم يترك السّيّد النبيل كريستيان فون هوهينيش، وإنما ترك رجلًا آخر رسَمَه في مُخيلته، إذ طالما نَقَل كارل شخوص الروايات التي يقرأها إلى عالم البشر الذين كان يراهم كل يوم في أرض الواقع، ففي عينيه كان مدينته حافلة بأبطال الروايات والكتب التي طالعها، مع أنهم عاشوا في أوقات مختلفة وأراضٍ بعيدة، فمنذ اللحظة الأولى التي فتح فيها كريستيان فون هوهينش باب الفيلا، تخيَّله كارل بطلًا من أبطال رواية (كبرياء وهوى)[1] للروائية جين أوستين. وخُيّل إليه أنه

(1) من باب تنويه القارئ، العنوان الأدق للرواية هو كبرياء وتحامل، وإنما أثبتنا العنوان الشائع للرواية في الترجمات العربية (المترجم).

دخل لتوّه قصر بيمبرلي في مقاطعة ديربيشاير في القرن الثامن عشر، وأنه سيقابل سيِّدَ القصر: (النبيل دارسي)، وهو رجل واسع الثراء، وحادّ الذكاء، لا تخلو طباعه من عجرفة وأنفة، وإنْ لم يكن ثمّة مطعن في رفعة أخلاقه.

كان كارل عاجزًا عن تذكّر أسماء البشر إلا إذا اقترنت بشخوص الروايات والقصص، وهي مسألة تضرب بجذورها في أيام الدراسة الأولى. عرجت ذاكرته على أيام المدرسة عندما دأب أقرانه على إطلاق ألقاب وضيعة على المُعلمّين من قبيل: فرشاة المرحاض، والأمير مورفين، والبَصَّاق، بينما خلع عليهم كارل أسماء أخرى مرتبطة بالروايات التي قرأها مثل: أوديسوس، أو تريستان[1] أو جاليفر. وعلى خلاف زملائه لم يكف كارل بعد تخرّجه في المدرسة الثانوية عن إطلاق الألقاب؛ فسمَّى مثلًا الشاب المستهتر رثّ الثياب الذي كان يراه يوميًّا وهو يأخذ طريقه لأداء التدريب العملي في إحدى المكتبات (الجندي الطيّب شفيك)[2]. ومن قبيل ذلك أيضًا أنه أطلق على بائعة

(1) الإشارة إلى شخصية تريستان في أوبرا الموسيقار الألماني الشهير ريشارد فاجنر (تريتسان وإيزولده)، وهي قصة حب حزينة خالدة، ولها نظائر متعددة في تراثنا العربي، مثل قصة: عنتر وعبلة، وقيس وليلى، وجميل وبثينة، وغيرهم (المترجم).

(2) الإشارة إلى رواية الكاتب التشيكي ياروسلاف هاشيك «الجندي الطيب شفيك وما جرى له في الحرب العالمية»، وقد تُرجمت إلى العربية (المترجم).

الفاكهة التي اعتاد شراء التفاح منها لقبَ (الأميرة بياض الثلج)؛ لكنها ـ لحُسن حظّه ـ لم تضع السمّ في الفاكهة[1].

في فترة مبكرة من حياته انتبه كارل إلى أن مدينته تغصُّ بالشخصيات الأدبية، وأنَّ لكل ساكن فيها نظيره في عالم الأدب والروايات. بعدها ببضع سنوات تعرّف كارل إلى شيرلوك هولمز، الذي كان رأس إدارة جرائم القتل في شرطة المدينة، بل رأى السّيّدة تشاتيرلي[2] التي غالبًا ما كانت تفتح الباب مرتديةً ثوب كيمونو شفافًا، وهام بها خُفية في شرخ شبابه، إلا أنها هربت من المدينة في صحبة (أدوسو دي مالك)[3].

ومن بين ذلك (الكابتن آخاب)[4]، المهووس بالبحث عن حيوان خُلْدٍ عملاق في حديقة منزله، وبعد أنْ طارده طويلًا لم يفلح يومًا في الإمساك به وقتله. ومن بين ذلك

---

(1) الإشارة إلى قصة الأميرة بياض الثلج (سنو وايت بالإنكليزية)، الواردة في حكايات الأخوين جريم (المترجم).

(2) الإشارة إلى رواية عشيق الليدي تشاتيرلي للكاتب د. هربرت لورنس (المترجم).

(3) الإشارة إلى بطل رواية اسم الوردة للكاتب الإيطالي أومبرتو إيكو (المترجم).

(4) الإشارة إلى بطل رواية موبي ديك للكاتب الأمريكي هيرمان ميلفل (المترجم).

السّيّد (فالتر فابر)[1]، المهندس المصاب بمرض عضال، لكنه لم يتوقّف يومًا عن جلب كتب شائقة تتحدث عن قارة أمريكا الجنوبية حتى لفظ أنفاسه الأخيرة. هذا فضلًا عن الكونت دي مونت كريستو الذي يعيش في منزل ذي نوافذ مزوّدة بقضبان، وكان المنزل سجنًا في الأصل، فأبقى المالكُ الجديد المنزلَ على حالته العجيبة، ولَزَم البقاء وراء أسوارِه. وكان الاسم الأدبي الملائم للشخص يقفز إلى ذهنه دائمًا قبل أن يستطيع تذكّر الاسم الحقيقي، وكأن ذاكرته إنما أرادت أن تحميه من إثقال ذهنه وروحه بالأمور الدنيوية المبتذلة، ومنذ اللحظة التي يقع فيها اختياره على الاسم الأدبي المناسب، كان يتوقّف عن رؤية الأسماء الحقيقية لأصحابها.

كانت الاستعاضة عن الأسماء الحقيقية بأسماء بديلة مسألةً تلقائية تمامًا، تحدث لكارل بشكل لا يكاد يشعر به؛ ومن ثمّ تحوّلت حروف اسم (كريستيان فون هوهينش) بطريقة عجيبة إلى (السّيّد دارسي، بطل رواية جين أوستن)، تحولت وهي في طريقها من شبكية عينه إلى دماغه دونما أي إدراك واعٍ مخطط له سلفًا. وكان ذلك يحصل له في أغلب الأحايين، اللهم إلا في مواقف بعينها وذكريات بذاتها، كان عقله - خلالها - يلين ويعَمَد إلى استعمال الاسم الحقيقي.

---

(1) الإشارة إلى رواية هومو فابر للكاتب السويسري ماكس فريش (المترجم).

على أي حال لم يكن ذهنه مضطرًا إلى تذكّر الكثير منها.

عبر أزقّة المدينة المتعرجة قادته قدماه إلى شخصية أدبية كان مصيرها أشدّ قتامة من مصير النبيل البريطاني دارسي في رواية أوستن الموسومة. وقفت السّيّدة خلف الباب، تختلس النَّظر إلى الزقاق من خلال العين السحرية، ترشق ببصرها الأفراد القليلين المارّين في الزقاق، إذ كانت تلك البقعة خالية دائمًا من المارّة، ولم تكن أبنيتها تلفت الأنظار؛ بسبب وقوع المباني الأثرية الجميلة على بُعد بنايات عدة منها. في هذا الجزء من البلدة القديمة كان المارّة يسرعون الخطا، لعدم قدرتهم على تحمّل ضِيق المكان، حيث ينتاب المرء شعور بأن أسقف المنازل المحدّبة تُطبق الخناق عليهم، وتحجب عنهم ضوء النهار. عرفت الشابة اليافعة الواقعة وراء الباب موعد وصول كارل كولهوف إلى بيتها، وبالرغم من معرفتها بسخافة الوقوف خلف الباب وتلصّص النَّظر عبر العين السحرية بدلًا من الانتظار في غرفة المعيشة حتى يُقرع جرس الباب لم تستطع منع نفسها من فعل ذلك.

أزاحت الفتاة الشابة أندريا كريمين خصلة من شعرها الأشقر خلف أذنها وسوَّت فستانها. منذ التحاقها بالحضانة كانت أندريا هي الفتاة الأبرع جمالًا، وهو ما جعل أفئدة النَّاس تهفو إليها، وأعينهم تحسد جمالها، وقد تزوّجتْ في سن مبكرة بالسّيّد ماتياس، وهو موظف مرموق في قطاع التأمين، يواصل

العمل ليلًا نهارًا، ناهيك عن عطلات نهاية الأسبوع، ليؤمِّن لزوجته سبل الحياة الرغدة. أما أندريا، فقد نالت درجة التأهل في تخصص التمريض، وهي تعمل اليوم بدوام جزئي في وظيفة موظفة استقبال في عيادة صغيرة اختصاصية في طب الأسرة، حيث عُيِّنَت في هذه الوظيفة؛ لأن ملاحة وجهها الفيّاض بالحسن والبشاشة تثير البهجة في قلوب المرضى المترددين إلى العيادة. مكتبة سُر مَن قرأ

كانت أندريا تحيّي الجميع بابتسامةٍ جذلة طبيعية خالية من التصنّع، إذ كانت بشاشة وجهها خصلة متجذرة في جمال الروح، فمن المعلوم قطعًا أن الإنسان إذ كان مليح الوجه جميل الطلّة، بيد أنه يلقى النَّاس بوجه كالحٍ عبوس، فتلك أمارة من أمارات التعالي والغرور على أن الحسناء أندريا كانت عذبة الروح، ومن ثم لم تكن البسمة الخلابة لتفارق قسمات وجهها طوال اليوم.

كان منتهى أملها أن تظهر على الدوام بمظهر الفتاة المثالية، ولكن ما الذي قد يحدث لو غيّرت طبعها؟ ترى كيف ستراها أعين الآخرين؟ ما الذي سيحدث لو بدَتْ عابسة مقطبة الجبين؟ على أي حال رأت الفتاة في كارل كولهوف رجلًا يمكن أن تتعامل معه دون ابتسامة؛ لأنه كان يجيد اختيار الألفاظ التي تصف حالتها، وبدا لها أنه يحسن اختيار كلماته بعناية كما يختار صانع العطور مكوّنات عطر باهظ الثمن. حافظت على

ابتسامتها المعهودة، وأزاحت خصلة شعرها إلى الوراء، ولم ترَ ضيرًا في أن تكون شعثاء بعض الشيء، ولكنها حالما رأتْ كارل كولهوف في الزقاق، سرعان ما دسَّتْ خصلة شعرها خلف أذنها مرة ثانية.

قرع كارل جرس الباب، ولبث منتظرًا ليُفتح الباب له، إلا أن أندريا كريمين كانت تأخذ مزيدًا من الوقت كل مرة للوصول إلى الباب، وتصل بأنفاس لاهثة على الدوام، لكنها لم تكن تفقد ابتسامتها في كل مرة. سمع كارل مفتاحًا يُدار في القفل، ثم سرعان ما فُتح الباب الأمامي.

- سيد كولهوف! لقد وصلتَ اليوم مبكرًا، لم أستعد لمجيئك هذه الساعة، لا بد أن هيئتي بشعة.

ثم مسحت بكفها على شعرها الجميل اللامع الذي كانت طريقة تصفيفه لائقة بفستانها الأنيق المُزيّن بورود حُمر. رآها كارل آية في الحُسن والجمال، ومع ذلك أشاعت هيئتها شيئًا من الحُزن في قلبه، حيث خمَّن أن هذا الجمال الصافي يطوي في أعماقه سرًّا مكنونًا لم يستطع حتى الآن كشفه، وإن كان ذلك السر بلا ريب متصلًا بالكتاب الذي جلبه إليها اليوم، وكان من نوعية الروايات التي تعشقها. كان وزن الكتاب مضبوطًا حرص كارل أشدّ الحرص على أن يكون وزن الكتاب مضبوطًا؛ فلا يكون خفيفًا كقطعة الشوكولاته، ولا ثقيلًا كَلِيتر الحليب، لذا شغلته دائمًا مسألة وزن الكتاب.

سألتْ أندريا كريمين وهي تحلُّ خيوط التغليف:

ـ هل هو كتاب شائق؟

ـ بحسب ما سمعته لاقت رواية زهرة الظلّ قبولًا واسعًا، وهي تقف على قدم المساواة مع أعمال المؤلفة الأخرى.

ـ أتقصد أنها رواية طافحة بالكآبة؟

وهنا ابتسم كارل ابتسامة ذات مغزى، إذ كان بين الاثنين اتفاق صامت، فلم يجلب لها كارل روايةً قط إلا وكانت كئيبة مفرطة الكآبة، بل ذات خاتمة تُدمي القلوب. في الماضي رشَّح لها روايات ذات نهايات سعيدة، لكنها لم تحز إعجابها قط، حيث رأتها أعمالًا مُنبتة الصلة عن الواقع، في حين أنها مغرمة بالروايات التي تعاني فيها الشخصية الأنثوية الرئيسة شتى صنوف المرارة والشقاء، وفي النهاية إما أن تقضي البطلة نحبها، وإما أن تُترك نهبًا للوحدة والهجران، وإما أن تغرق في التعاسة والبؤس. لم تكن ترضى عن النهايات المفتوحة إلا إذا اختُتِمَت بواحدة من النهايات السابقة. قال كارل:

ـ كعادتي دائمًا، سأحتفظ بحقي في عدم التعليق...، هل راقت لك الرواية الأخيرة؟

أخذت أندريا كريمين نفسًا عميقًا، ثم هزّت رأسها قائلة:

ـ كانت رواية مفرطة الكآبة، ألقتْ المرأة بنفسها إلى التهلكة، وأغرقت نفسها...، لماذا لَم تحذّرني؟

قالتها وقد عبستْ في وجهه بإيماءة مازحة.

ـ أندريا: أنتِ خير العارفين! محظور عليَّ تحذيرك.

اعتاد كارل في الماضي تغليف الكتب بورقٍ ملوّن مبهج، لكنه رأى في الأمر لونًا من الخداع والتدليس.

ـ حسنًا، وهل ستُحضر لي رواية جديدة في الأسبوع المقبل؟ سمعت عن رواية مثيرة تدور أحداثها في ليل سرمدي؛ لأن مكان الرواية هو جرينلاند، والتوقيت فصل الشتاء، وبطلة الرواية فقدت طفلتها الوحيدة...، رواية كئيبة بكل المقاييس...، هل تعرف أنها بداية شائقة مثيرة؟

كان كارل يعرف الرواية، وكان يأمل ألا تعلم صديقته أندريا كريمين بصدور هذه الرواية أبدًا.

ـ سأجلبها لك.

هكذا أجابها كارل، ولم يقل: إنه يسعدُه إحضار هذه الرواية إليها كما كان يقول في العادة؛ لأنه لا يسعده ذلك البتة.

ـ هل هناك كتاب آخر يمكنكَ أن ترشّحه إليَّ؟

ـ نعم رواية بوليسية جديدة تدور أحداثها في مدينتنا، لمَّا أطّلع عليها بعد، لكنها مفعمة بروح الدعابة.

رفعت أندريا كريممين يدها معترضةً وهي تقول:

ـ وهل تظن أنَّ رواية كهذه ستروقني؟

آلَى كارل على نفسه أن يتحرى الصدق وألا يكذب أبدًا، فحالما تُطلق سراح طائر الكذب، فلن تستطيع ردَّه مجددًا.

ـ لا لن تروقك.

ـ بالضبط.

ـ لكن ربما تُضحككِ الرواية..، سيدتي: أرجو ألا أكون قد تعدّيت حدودي بهذا الكلام، لكنك وُهِبتِ ضحكة مشرقة جذابة، ربما تعرفين أن تشارلي شابلن قال يومًا: كل يوم يمرُّ على الإنسان دون ضحك هو يوم ضائع، وعُمر الإنسان ليس إلا عددًا محدودًا من الأيام، وحين يمضي يوم ينقضي جزء من حياته، وحياتنا ليست مديدة لِنُفرِّط في يوم واحد منها.

لم يسبق أن قال لها كارل شيئًا مماثلًا!! هل استشعر في نفس أندريا في هذه اليوم حزنًا أشدَّ من حزنها المعتاد؟ ربما! لم يكن يعرف، في بعض الأحيان كان لسانه ينطق بأشياء لا تمرُّ على رأسه أولًا. فارقت الابتسامة شفتي أندريا كريمين، بل كانت شفتها السفلية ترتعش قليلًا وهي تودعه قائلةً:

ـ سعدتُ اليوم برؤيتك..، جزيل الشكر».

ثم سرعان ما أغلقت الباب، وفي عيني كارل لم تكن أندريا كريمين هي مَن أغلقت الباب في وجهه، وإنما كانت (إيفي بريست Effi Briest)[1] البائسة، تلك الفتاة التي تزوجت

---

(1) رواية واقعية كتبها الأديب الألماني الرومانسي تيودور فونتانه سنة 1895، وتدور في أجواء عائلية وعاطفية مشابهة لأجواء روايتي آنا كارانينا ومدام بوفاري (المترجم).

في ريعان صباها، ولاقت مصيرًا مأساويًّا يشبه مصير العديد من البطلات اللواتي قرأتْ أندريا كريمين عنهنَّ. ودَّ كارل من قلبه لو استطاع أن ينتشلها من أحزانها، وأن يساعدها مساعدةً تتجاوز مجرد جلب الكتب والروايات؛ بغرض أن يثبت لها أنَّ ثمة نساء أخريات يعانين مثلها، لكنه لم يكن يعرف سبيلًا لإنهاء هذه المعاناة.

خلف الأبواب المغلفة حبست أندريا كريممين دموعها. أرادت أن تخبره بما جرى لها اليوم، على أن تلك الفضفضة سوف تكلفها استعادة ما وقع لها من أحداث مؤلمة، وقد أرادت المسكينة إسقاط تلك الأحداث من ذاكرتها تمامًا. بيدين مرتعشتين شرعت في فضِّ المغلّف، وبدأت القراءة في الردهة ...، في الصفحة الأولى ينتحر شخصٌ ما.

* * *

لم يكد كارل يخطو بضع خطوات حتى تناهى إلى سمعه صوت أنين مكتوم، نظر أسفل قدميه، فرأى قطًّا أعجف الجسم، له ثلاثة أرجل سليمة ورابعة عرجاء، وفراء أشعث وأذنان مجروحتان من أثر جميع أنواع المعارك، لم يكن كارل يعرف سواء أكان ذكرًا أم أنثى، وأين يسكن، إن كان له مأوى من الأساس، ومع ذلك كان يعلم تمام العلم أنَّ القطط أصدقاء أوفياء.

لقد اعتاد النَّاس اقتناء حيوانات منزلية أليفة، وكذا تمنى

كارل طوال حياته أن يرافقه حيوان لطيف في جولاته لتسليم الكتب. تطلع كارل إلى القط، وخاطبه مبتسمًا وهو يقول:

- مرحبًا يا كلبي الجميل!

سمَّى كارل القط كلبًا؛ لأنه كان يسلك سلوك الكلاب، فكان يقلِّد مشية الكلاب، ويتشمّم كل ما يصادفه في الطَّريق، ويرسم منطقة نفوذه. الكلب لا يموء. الكلب يهمهم فقط. وعندما كان يصل إلى باب بيت عملائه لتسليم الكتب، لم يكن الكلب يجلس قط، وإنما كان يستلقي. كان يمكنه الاستلقاء في أي وقت وفي أي مكان، حتى فوق أضيق درابزين .توطّدت العلاقة سريعًا بينهما، راح الكلب يداعب ساقي كارل، ويركض إلى الأمام، وينظر إليه بشوقٍ عارم، وعند غيبته كان الكلب أعجز ما يكون عن الصبر على انتظار عودته، ويبدو أن الحيوان الذكي قد فَطِن إلى أنَّ كارل سيكافئه بشيء من الطعام مع تسليم الكتاب الثالث اليوم.

على بُعد أربعة شوارع من هذه الناحية (وتحديدًا عند شارع إليسنبرونين) تعيش امرأة عجوز، طباعها على طرف النقيض تمامًا من الحزينة البائسة إيفي بريست، المرأة آنفة الذكر؛ لأن روحها كانت مفعمة بالمرح والانطلاق، كما أنّ ثيابها زاهية الألوان. اعتادت دائمًا أن ترتدي جوربين مختلفي اللون، أو أن تنتعل حذاءين مختلفين في النوع، أو أن تنسى الحزام فوق كتفها. أما داخل شقتها، فبدتْ كل الأغراض مكدّسة فوق

بعضها مثل الجبال الرواسي، وبينها أودية ضيّقة وممرات بغرض السير.

بعثتْ تلك المرأة العجوز في عقل كارل ذكرى شخصية من شخصيات كتب الأطفال، وكانت فتاة صغيرة جامحة العقل شكَّلتْ ملامح العالم وفق مرادها، أما هذه المرأة العجوز (هذه النسخة الحقيقة من فتاة كتاب الأطفال)، فلم تطأ قدماها أرض العالَم الحقيقي؛ لأن الخروج إلى جَنَبَاتِ العالَم المفتوحة كانت يقذف الرعب في قلبها.

أما حكاية هذه المرأة، فقد بدأت قبل ما يزيد عن سبع سنوات، كانت قد أمضت يومًا صيفيًّا ماتعًا مع زوجها في حديقة منزلها، وجلسا يتفيّآن ظلال شجرة جوز وارفة، وعلى حين غرّة ضربت المكان عاصفة رعدية شديدة مصحوبة بأمطار ورياح عاتية. وبعد أن دلف الزوجان إلى قلب المنزل تنبّها إلى أنهما تَركا صندوق القمامة في الشارع، وهو سلوك مستهتر من شأنه إثارة حفيظة الجيران، خرج الزوج لإدخال صندوق القمامة بالرغم من محاولة الزوجة إثناءه؛ بسبب خطورة الطقس بالخارج، أخبرها أن الأمر لن يستغرق سوى دقيقة واحدة، وأنه سيعود على وجه السرعة. وحالما خرج انفصلتْ قطعة بلاط من سطح المنزل، وتحوَّلت بفعل شدّة الرياح العاتية إلى مقذوفة صاروخية أصابت رأس الزوج في مقتل، ومذ ذاك لم تعد تعير انتباهًا إلى شكاوى الجيران، وكذا لم تطأ قدمها الشارع قط.

عندما كانت تفتح الباب لم تقل قط: «مرحبًا سيد كولهوف»، أو «أهلًا وسهلًا»، أو «تسعدني رؤيتك»، وإنما كانت تقول عبارات مُبهمة من قبيل: «ذو الفم المصنوع من الصوف»، أو «تاجر سيارات خردة»، أو «معذرة»، وكان على ساعي بريد الكتب تخمين المقصود بكلامها.

عندما قَرَع كارل الجرس في هذا اليوم، رمقته العجوز بابتسامةٍ عريضة، وقالت: «**البحث عن الضفدع** Selbst-Erfroschung». في هذه اللحظة كان ينبغي لكارل أن يكون سريع البديهة، وأن يتفتق ذهنه عن تعريف مُرتجل ومنطقي، فأجابها:

ـ حسنًا.. يُقصَد بمصطلح استكشاف الذات Selbst-Erfroschung الطَّريق إلى معرفة النواة الصلبة العميقة للذات الإنسانية، والمصطلح مُستلهم من الحكاية الخرافية المسماة بـ «الملك الضفدع Froschkönig أو هنري الحديدي»[1] التي ظهرت للمرة الأولى في حكايات الأخوين جريم. ويشير الاصطلاح إلى فرضية تذهب إلى أنَّ في أعماق كل إنسان

---

(1) لا وجود لكلمة Erfroschung في الألمانية، وإنما هي من نحت المؤلف، وفيها يصنع الكاتب جناسًا لفظيًا بين الكلمة المُخترعة Erfroschung (البحث عن الضفدع) وكلمةErforschung (اكتشاف/ استبطان)، فتربط ربط الكلمة المُخترعة صوتيًّا بين مفردة الضفدع Frosch ومفردة الاكتشاف/ الاستبطان (المترجم).

ضفدعًا قبيحًا ينبغي تحويله إلى أمير مشرق البهاء من خلال الوقوع في مشاعر الحب (وفي حكاية الأخوين جريم من خلال القُبلة). وقد ظهر المصطلح لأول مرة في عالم الأدب عام 1923 في كتاب سيغموند فرويد (الأنا، والهوية، والضفدع)[1].

عندها كافأته السّيّدة لونجشترومف بسكاكر الكرز. أما في الحالات التي كان يجيبها فيها بجواب غير مناسب، فقد كانت تعطيه سكاكر الليمون، على كل حال سرعان ما مدَّ كارل يده بالكتاب المطلوب، وكانت من عادته أن يرسم دائمًا زهرة حمراء كبيرة على ورق التغليف.

كانت السّيّدة لونجشترومف قارئة نهمة، قرأت كل شيء، بدءًا من الروايات الكلاسيكية وصولًا إلى كتب الخيال العلمي والأعمال الفكاهية، أقبلت على قراءة كل شيء بشرط أن يكون محتواه خياليًّا، لا يُنزلها من علياء الخيال إلى أرض الواقع. وقبل أن تغلق باب البيت قالت:

ـ عندما تأتي بعد غدٍ عندي كلمة أخرى لكَ... حبّة جوز قِشْرتها عصيّة على الكسر.

ثم سرعان ما انحنَتْ فوق الكلب، وألقمته شيئًا من جيب سروالها، فالتقمه ملقيًا به إلى جوفه دفعة واحدة.

---

(1) الإشارة ساخرة بالطبع؛ لأن عنوان كتاب فرويد هو: الأنا والهُو (المترجم).

كانت حقيبة ظهر كارل كولهوف خاوية من طلبات الكتب، ومع ذلك تبقّى عميل آخر كان عليه زيارته، فكل زيارة إلى هذا الرجل كان تسرّه وتبهج قلبه؛ لأنه كان يتمتع بأعذب صوت سمعه كارل على الإطلاق. ولو أنّنا أردنا فرش الأريكة الباردة بطبقة صوت دافئة، لكان صوت هذا الرجل هو الغطاء المثالي. بالنسبة لكارل كولهوف كان هذا الرجل هو صنو بطل رواية **القارئ**، وهي رواية الكاتب الشهير بيرنهارد شلينك عن ميشائيل بيرج، المراهق الذي وقع في غرام امرأة تكبره بعشرين عامًا، وكان يقرأ لها الكتب والروايات. ووجه الاختلاف بين بطل رواية القارئ وشخصية هذا الرجل أن هذا الأخير إنما كان يقرأ الروايات على عُمال مصنع سيجار أُسِّسَ قبل بضع سنوات خلت، وكان الوحيد من نوعه في المدينة، فعهِدَ المصنع بالمهمة إلى رجل ليقرأ على العاملين والعاملات في أثناء ساعات الدوام كما هي العادة في كوبا.

لم يَعْدُ الأمر كونه حيلة تسويقية عَمَد إليها المصنع لترويج منتجاته، ولم يكسب القارئ من وراء عمله إلا أقل القليل، ومع ذلك بلغ من حبّه لمهنته أنه كان يطوّق عنقه على الدوام بوشاح لتدفئة أحباله الصوتية، وخارج مصنع السجائر لم يكن يتحدث إلا لمامًا صيانةً لصوته من الإجهاد، لذلك أخذت كارلَ دهشةٌ عظيمةٌ عندما هاتفَه القارئ، وطلبَ منه أن يجلب له بعض أقراص التهاب الحلق التي لم تكن متوافرة إلا في الصيدلية

المجاورة للمكتبة، حيث تجنَّب القارئ الخروج إلى شوارع المدينة؛ بسبب وباء الإنفلونزا الذي اجتاح المدينة في تلك الفترة. ومن باب الاحتياط والحرص فتح كوّة صغيرة من الباب لاستلام أقراص التهاب الحلق، ثم شيَّع كارل بابتسامةٍ ممتنة، وأعطاه ثمن الأقراص، وإكرامية سخيّة، وقد اعتذر كارل عن عدم قبولها لعلمِه بضآلة أجر القارئ.

وقبل إغلاق باب شقّته البسيطة المستأجرة في تلك البناية السكنية كئيبة الملامح سارع القارئ بإخراج الأقراص من العلبة، وكان من الواضح أنّ بُناة العِمارة قد ضنّوا عليها بأي خصائص معمارية تضفي عليها شيئًا من الجمال أو الألفة، فبَدَت البناية السكنية صمّاء بلا قلب، وكأنما هي حظائر الدجاج.

وكانت أثقل لحظة على قلب كارل هي اللحظة التي تخلو فيها حقيبته من الكتب، فمعنى هذا أن أوان الرجوع إلى المنزل قد آن، وإن لم يكن يعني ذلك نفورَه من فكرة العودة إلى المنزل، بل كان ثِقَل لحظة العودة مردُّه إلى كون صديقه الكلب لن يتبعه إلى بيته، وأن أحدًا لم يكن في انتظاره خلف باب الشقة بشوق، أو يغمره بنظرة الاشتياق، في حين أنه يتحرّق شوقًا إلى معانقةٍ من حبيب.

وحين يهبط السماء كانت تقوده قدماه إلى مقابر المدينة المركزية، فيطمئن هناك ويسكُن روعه، فمعرفة أنَّ في هذه المقبرة نهاية مطافه وآخر مشواره كانت تُذهِبُ عنه الهَمَّ

والحَزَن، هذا ناهيك عن جمال تصميم المقابر نفسها التي يزيد عمرها عن مائتي سنة. وكان يميّزها تمثال هادم اللذات وقابض الأرواح، المصمم على هيئة هيكل عظمي ذي جمجمة مرعبة، عليها ابتسامته المرعبة المألوفة التي لا تخطئها العين.

* *

جوار جرس باب الشقّة عُلقّت لافتة صغيرة مكتوب عليها اسم (إي. تي. إيه. كولهوف) (E. T. A.)، لكن اسمه لم يكن صحيحًا بالمرة، اللهم إلا اسم العائلة، إذ طالما أضمرَ كارل إعجابًا قويًّا للكاتب الألماني الشهير إي تي إيه هوفمان E.T.A Hoffmann[1]؛ بسبب الأحرف الأولى من اسمه. وأيّ الكُتاب بدأت أسماؤهم بثلاثة أحرف مختصرة؟ فكَّر كارل في نفسه وقال:

- نعم هناك ج. آر. آر تولكين، وفي عالم الموسيقى ي. س. باخ، يبدو أنَّ شيئًا فريدًا، وشديد الخصوصية يسكن الأحرف الثلاثة الأولى من أسماء المُبدعين، وفي باطن الأحرف الثلاثة خفايا كثيرة مُضمَرة.

وبدا كأنَّ الأحرف الثلاثة الأولى تنطوي على سرٍّ مكنون

---

(1) كاتب رومانسي ألماني من القرن الثامن عشر، مارست أعماله تأثيرًا قويًّا في نشوء الأدب الفانتازي والغرائبي، وكان إدجار آلان بو وبورخيس من كبار معجبيه (المترجم).

وتُقدِّم إجابة عن السؤال الحائر: لماذا لم يذكر صاحب الاسم اسمه كاملًا؟

في أحيان كثيرة كانت الخطابات الواردة لكارل تُرَدُّ إلى مُرسلها لعدم تعرف مكتب البريد على هوية المُرسَل إليه (كارل المتواري خلف الأحرف الأولى من اسمه)، ومع ذلك لم يـرَ كارل سببًا وجيهًا يحمِله على تغيير الاسم المحفور على اللافتة المعلقة أمام الباب، فقد ناهز الثانية والسبعين، ونَدَر من يبعثون إليه بالخطابات اليوم، ولنفترض أن بعض الخطابات تصله بالفعل، إنها ليست أبدًا سببًا لإمتاعه وإدخال السرور على قلبه، ولا ضير لو رُدَّتْ وأخذت جولة في أروقة مكتب البريد مجددًا.

احتوت شقة كارل عددًا من الغرف أكبر مما يحتاج، إذ كانت مكوَّنة من أربع غرف، فضلًا عن: مطبخ صغير، وحمام، ومرحاض بلا أي نوافذ. وفي أحيان كثيرة كان يراوده شعورٌ أنّ غرف المنزل الخاوية على عروشها أشبه بأحواض زهورٍ فارغة، لم تنبت فيها زهرة واحدة.

من بين الغرف الأربع غـرفةٌ مطلّة على الفناء الداخلي المغطى بالزروع، خصصها لابنته، والثانية مطلة على الشارع الرئيس، حيث يمكن مشاهدة السيارات المارقة، وقد خصصها لابنه. على أن كارل - في حقيقة الأمر - لم يتزوج قط، وبطبيعة الحال لم يُرزق بأولاد، ومع ذلك فقد احتفظ بالشقة الواسعة،

فلم يرفع المالك الإيجار مطلقًا طوال عقود طويلة؛ ربما لأنه نسي الشقة وساكنها.

في هذه الشقة الواسعة الرَّحبة عاش مع أسرةٍ أفرادها صفحاتُ الكتب المرصوصة على رفوف المكتبة بعناية داخل واجهات عرض مصنوعة البلور المصقول لحماية الكتب من وهج الشمس والغبار. كانت الكتب هي التي تحثُّ كارل على قراءتها، بل معاودة قراءتها مرارًا وتكرارًا، وكأنما هي قطع الحُلِيّ التي تغري صاحبتها بارتدائها؛ كي يَظهر جمالها الحقيقي، ومثل الحيوانات الأليفة التي تشجع صاحبها على مداعبتها؛ كي تشعر أنها موضع محبّة واهتمام. في بعض الأحيان كان كارل يراوده شعور بأن كلمات الكُتب هي التي تكوّن خلايا جسده، لاسيما بعد أن داوم على قراءتها على مدار سنوات طويلة، فامتصَّت خلايا جسده كلمات الكتب.

مع مرور الأيام تفهّم كارل أن هواة جَمْع الكتب لا يختلفون عن هواة جَمْع الطوابع، فجامعو الكتب يحبّون أن تمرَّ أبصارهم على كعوب الكتب لمعرفتهم أنَّ في بطونها بشرًا من لحم ودم، وأن ثمة علائق قوية تربط بينهم وبين أبطالها، وأن مصائر مشتركة تجمع بين أولئك وهؤلاء، أو أنّ في أحداثها مصائر يرغب أبطال الكتب والروايات مشاركتها مع القُرّاء، فيلتفّون حول الكتب ويستأنسون بها أنسَ صحبة من الأصدقاء الأوفياء في شقة مشتركة.

علّق كارل معطفه الأخضر فوق المشجب المثبّت خلف الباب، ثم أتبعه بتعليق حقيبة الظهر جواره، وسوَّى الاثنين بكفه، ومن ثمّ دلف إلى مطبخه الصَّغير ليضع فوق الطاولة المصنوعة من الخشب الحبيبي شرائح من الخبز الأسمر، ويطليها بالزبدة، وينثر فوقها قليلًا من ملح الطعام، ثم شرب بعدها كأسًا من عصير الملفوف المخلل، وامتدت يده لالتقاط شرائح من تفاحة خضراء قطّعها إلى أربعة أجزاء.

كان كارل قد قرأ في الإعلان عن الشقة - لما استأجرها - أنها مزودة بشُرفة، لكن الحقيقة أن الشرفة لم تزد عن كونها مجرد درابزين مصنوع من الحديد الزهر مقابل باب زجاجي له مصراعان يمتدان من الأرض حتى سقف الغرفة، وقد اعتاد كارل الوقوف في هذا الركن جوار كرسيه عتيق الطراز.

فوق الدرابزين استقر كتاب بَرَزَ منه إيصال سداد ليكون علامةً تدلّه على الصفحة الأخيرة التي توقف عند قراءتها. من هذه الزاوية كان في مقدوره التطلّع إلى المدينة القديمة، وهو بالضبط ما فعله في هذه اللحظة متطلعًا لمراقبة مرور أحد زبائنه، أو معاينة قفزة كلبٍ من سطحٍ إلى آخر، لكنه لم يرَ شيئًا من ذلك.

دأب كارل على الانغماس في القراءة حتى العاشرة مساءً، وبعدها يذهب للاغتسال، ثم يأوي إلى فراشه، وعندما يشدُّ

الغطاء على جسمه لم يكن يفارقه شعور مؤكد أنَّه في صباح اليوم التَّالي سيكون قادرًا على جلب مجموعة مختارة من الكتب المميّزة إلى مجموعة مختارة من القُرّاء المميزين.

الفصل الثاني
الغريب

ولمّا استيقظ كارل صباح اليوم التّالي داهمه شعورٌ قوي بأن حياته صارت أشبه بكتاب طُوِيَت أغلب صفحاته، ولم يبقَ منها إلا أقل القليل، ثم تنامى هذا الشعور بوتيرة مكثفة في الأشهر القليلة الماضية، كما لو كان كتاب حياته يدنو من الفصل الأخير.

ذهب إلى المطبخ لإعداد القهوة، فتسلّل الدفء إلى أصابعه الباردة، وكأن أحدًا قد أشعل نار موقد صغيرٍ في الكأس الفخاري الذي يمسكه بيده، ولمّا بدأ الدفء يسري في أوصاله تداعت إليه نوبات متوالية من الفرح والسعادة، وانتشرت تدريجيًّا في جسده كأنما هي أمواج أثيرية لطيفة حانية، وبسبب هذا الشعور اللذيذ لم يشترِ إلا الأكواب المصنوعة من الخزف الرقيق، مع أنها الأغلى ثمنًا والأكثر هشاشة من غيرها، لكنه لم يكن يشعر بكل ذلك، إذ يمسك بجسم الكوب الصلب.

وكانت الساعات الأولى من النهار تمرُّ عليه مرورًا سريعًا

مثل فيلم بالأبيض والأسود، تتحرك فيه شخوص غامضة حركة يلفّها الغبش والضباب، ولم يكن هذا الشعور لينمحي من ذهنه إلا عندما يدقّ جرس ساعة المكتبة في السادسة والنصف صباحًا مُعلنًا وصول كارل كولهوف إلى المكتبة، حيث تتدفق الألوان الزاهية حينذاك إلى حياته. في تلك الساعة اعتادت سابينه جروبر أن تتخذ وقفة ثابتة حازمة، حيث تتحصن خلف المنضدة مثل آلة حربية عامِدةً الوقوف هكذا لتحجب عن أي زائر إلقاء ولو نظرة خاطفة على المقال الصحفي المعلق داخل إطار ذهبي على الحائط من خلفها، وهو المقال الذي يُشيد بذِكر كارل كولهوف، ويمدح طريقته البارعة في إيصال الكتب إلى الزبائن، وترشيح أفضل الأعمال لهم، بينما تحتل صورته نصف صفحة الجريدة تقريبًا، ناهيك عن التقرير الذي أذاعَه التلفاز عن كارل. وبعد إذاعة التقرير التلفزيوني تزايدت طلبات الكتب على المكتبة، واشتدت رغبة العملاء في تسليم الكتب إلى منازلهم على يد كارل، كارل نفسه ولا أحد سواه.

وكما أنَّ لكل شيء جديد بريقه الباهر الذي يخبو سريعًا، فطِن المرء في المكتبة إلى أنهم مشاهدو تلفاز، وليسوا قُرّاءً حقيقيين.

في هذا اليوم استقر كتابان في صندوق كارل، ومع أنهما كانا كتابين صغيرين، بدا الكتابان ثقيلين بعد أن وضعهما داخل حقيبة الظهر، وأحكم إغلاقها. في تلك اللحظة كان الصبي ليون

يجلس القرفصاء فوق الأرض المفروشة بالسجّاد محملقًا بلا وعي في شاشة هاتفه المحمول، بينما رقدت البطاقات البريدية المغمورة بالتراب، يبدو أنه لم يزل التراب عنها، ويبدو كذلك أن كتاب (نيك هورنبي) وهو كتاب عن رياضة كرة القدم كان ما يزال ملقى على الطاولة لم يُمسّ. أغلب الظن أن كلمات الكاتب هورنبي واجهت صعوبة في أن تُسمَع، بينما شبكة المعلومات العالمية تصرخ بأصوات عالية تحجب أي صوت غيرها. تساءل الصبيُّ ليون من دون أن يرفع بصره عن شاشة الهاتف:

- مرحى! هل ستخرج في دَوْرِيَّة تفتيش جديدة؟"

أجاب كارل:

- لستُ ضابط شرطة، عملي هو تسليم الكتب إلى القُراء، محتوى الكتب فقط يمكن أن يكون جنائيًا.

- أليس هذا عملًا مملًا؟

واصل ليون كلامه وعيناه مثبتتان على شاشة الهاتف. شعرَ كارل في هذه اللحظة بعدم الجدوى من وراء الردّ على الصبي، فقد اعتاد ألا يستنكف عن الردّ عن أي سؤال يُطرَح عليه بأمانة وضمير، وبأكبر قدر من التفاصيل، لكنه - على كل حال - أجابه قائلًا:

- أنا مثل عقارب الساعة. ربما تظنَّ أن المؤشر حزين

وضَجِر؛ بسبب قطع المسافة نفسها، والدوران في حلقة مفرغة، لكن العكس هو الصحيح، فمؤشر الساعة مستمتع بشعور الثقة واليقين من الطَّريق الذي يسلكه والوجهة التي ينشدها، وهو سعيد بشعور الأمان الذي يملؤه؛ لأنه على الطَّريق السليم، وأنه نافع للآخرين ودقيق في عمله.

رمق كارل الصبيَ ليون بنظرة فاحصة، لكن الصبي لم يتطلّع إليه وقال:

ـ آه!! نعم..، أفهم بالطبع.

سوَّى كارل ياقة المعطف، وانطلق خارج المكتبة وصدره منشرح بجسامة المهمة التي في انتظاره، لكنه لم يكن يعلم أنه اليوم سيكون على موعد مع مهمة من نوعٍ آخر مختلف، وهي مهمة أثقل من حقيبة ظهره المنتفخة. كان يومًا ربيعيًّا صحوًا يبشّر بقدوم فصل صيف منعش. في تلك الساعة غمرت أشعةُ الشمس ساحة الكاتدرائية، وبدت جدرانها العتيقة شابّة فتِيّةً من جديد، وبدت المدينة القديمة كأنما أسبِغَت الطبيعة عليها ثوبًا من النضارة والجِدّة.

بمجرد أن صعد كارل كولهوف الرصيف الذي عبَّده وصقلَه وطء النعال الجلدية من مختلف الأجيال، راوده شعوره القديم مجددًا، بدا له أن ثمة عينًا ترصد خطواته. ثم استولى عليه هذا الشعور إلى درجة أنه توقّف بغتة، وتلفّت يمنة ويسرة مرات عدة، فبدا مثل المصباح الأمامي لمنارة بحرية. رأى النَّاس

يسبحون حوله كالسُّفن، بعضهم ينهب الشارع نهبًا كالزوارق السريعة وهي تمخر عباب الماء، وبعضهم الآخر يتهادى في مشيته كأنه قارب يتأرجح على صفحة نهر هادئ. السمة المشتركة التي تؤلف بينهم جميعًا أن كل واحد منهم كان مشغولًا بنفسه، وأنَّ أحدًا منهم لا يعير كارل انتباهًا.

كان يعلم أن عليه المضي قُدمًا دون إبطاء للوفاء بمواعيد تسليم كتب اليوم، وتسرَّب إليه شعور بأنَّ ساقيه تنطلقان من تلقاء نفسهما. حثَّ كارل الخُطا، وتابع المشي محاولًا التخلّص من شعور المراقبة الذي لازمه مثل ذبابة سخيفة مزعجة تأبى أن تغادر. وعلى حين غرّة انتبه إلى وجود صبية صغيرة ذات شعر مجعد داكن، تمشي جواره، وتحذو حذوه النعل بالنعل، وكما هي عادته بدت له الفتاة مثل الشخصية الرئيسة في كتاب الأطفال المصوّر (قصر سُموّ الأميرة)[1]، وهو الكتاب المزوّدة بجيب مليء بملابس الدمى داخل الغلاف الخلفي، ويمكن للقُرّاء إرفاقه بالصفحات التي ظهرت فيها الأميرة. كما لمح كارل وجه شبه بينها وبين بطلة فيلم (لِيلِي والتمساح اللطيف)، حيث قاتلت بطلة الفيلم في صفّ التمساح ضد كاسبار الشرير. لم يكن ينقص تلك الفتاة إلا أنْ ترتدي سترة شتوية صفراء مزوّدة بأزرار خشبية سميكة، وثوبًا ضيّقًا محبوكًا، وأحذية بُنية

(1) Ein Schloss für die Prinzessin، وهو كتاب أطفال مصّور صدر في ألمانيا سنة 1996 (المترجم).

فاتحة موشّاة بزخارف أنيقة من جلد الغنم، لتكون نسخة طبق الأصل من بطلة الفيلم.

أشدّ ما أثار انتباهه هو تلك القبعة الجلدية العجيبة التي اعتمرتها الفتاة، وكان مزوّدة من الأمام بنظارة تشبه نظارة قائدي الطائرات المروحية في الأفلام القديمة، مع أنها مجرد قطعة زينة لائقة بالبنات في سنّها، ولا علاقة بها بتسيير الطائرات المروحية بالطبع. كما تبيّن في وجهها آثار نمش، وكأنما نُثِرت حبوب لقاح زهرة عباد الشمس على وجهها، وتركّزت حول أنفها الأفطس. أما عيناها فزرقاوان، لكن زرقتهما كزُرقة السماء الرائقة، لا زُرقة البحر الداكنة. بادرتْه الفتاة بالكلام قائلة:

ـ مرحبًا، اسمي شاشا، وعُمري تسع سنوات.

عَرَّفَت الفتاة بنفسها بطريقة فطرية بدت كأنها لا تنتظر منه ردًّا من المقابل، أو لا تتوقع أن يُعرّفها باسمه وسنّه. كانت مجرد كلمة خرجت من لسان صبية بريئة عفو الخاطر، وليست طلب تعارف، علاوة على ذلك بدت شاشا صغيرةً بعض الشيء بالنسبة لعمرها الحقيقي، وهو ما جعلها عُرضة للتنمّر والمضايقات في المدرسة، كانت مكتنزةً بعض الشيء، مع أنَّ سمنتها لم تكن إلا الدهون التي يخزّنها الجسم تمهيدًا للانطلاق إلى مرحلة المراهقة.

لم يُبطِئ كارل من خُطاه، إذ كان عليه الإسراع لإيصال طلبات الكتب إلى أصحابها في الموعد المُحدد، لم يكن الرجل

- بطبيعة الحال - يحمل الخضروات في حقيبته، لكن حمولة الحقيبة بدَتْ له مثل سلعٍ قابلة للتلف السريع.

ـ ألا تخافين مني؟

ـ لا...

ـ لكن لا يصحُّ بالتأكيد السير مع رجل غريب!

ـ لكنكَ لستَ غريبًا، أنا أعرفكَ جيدًا.

ـ لا...، أنتِ لا تعرفيني.

ـ بل أعرفك، أراك دائمًا من نافذتي وأنت تجتاز ساحة ميدان مونستربلاتس. أعرفكَ منذ أن بلغت سن الإدراك، أبي يقول: إني بدأت التفكير في سن مبكرة، ومذ ذاك لم أتوقف عن التفكير، كنت أراك تجتاز ساحة الميدان، مثلما كنت أسمع دائمًا قرع أجراس الكاتدرائية، لا تتعجب من كوني أعرفك.

كانت الكلمات تتدفق من لسانها تدفّق المياه من نافورة.

ـ حسنًا، إن كنتِ تعرفينني حقًّا.. ما اسمي؟

ـ اسمع: لا أعرف أسماء أجراس الكاتدرائية، لكن أستطيع تمييزها من بين جميع الأصوات، حتى لو قُرِعَت أجراس مائة ألف مليون كاتدرائية أخرى، وبالمثل أستطيع تمييزك بوضوح وسط حشود البشر.

لم يقتنع كارل بهذا الكلام الذي بدا طافحًا بالسذاجة والطفولية.

ـ معنى هذا أنكِ لا تعرفينني حقًّا...، وإنني بالنسبة إليكِ غريب.

ـ أنتَ ساعي بريد الكتب..، هذا هو الاسم الذي أطلقته عليك، ومن ثمّ، فأنا أعرفكَ، وأعرف اسمكَ، لستَ رجلًا غريبًا بالنسبة لي.

أطلق كارل زفرةَ ضيق وقال:

ـ كنتِ إذًا ترصدين خطواتي منذ فترة طويلة، لا بدَّ أنكِ تعلمين أنني أمشي وحدي دائمًا ولا أودّ تغيير عاداتي.

ـ لا بأس، أنت ستمشي بمفردك، وأنا سأمشي عن يمينك بمفردي أيضًا.

قال كارل:

ـ لا، هذا غير ممكن.

صحيح أن كارل كان مُحبًّا للأطفال، لكنه لم يفهمهم قط. كان عهد طفولته ينتمي إلى فترة بعيدة غابرة من حياته إلى درجة أنه لا يكاد يذكرها إلا على هيئة ذكريات ضبابية مغبّشة. وكلما تقدّمت به السن بقي الأطفال في نظره أطفالًا، وازدادت الهوّة الفاصلة بينه وبينهم، حتى صارت شاسعة إلى درجة لا سبيل إلى ردمها أو تجاوزها. إذ ذاك ترَكَ شاشا واقفةً بمفردها.

في اليوم التَّالي ظهرت شاشا مجددًا. لاذت بالصمت أول الأمر، وتبِعَتْ خُطاه، وجعلت تراقب حركاته، ثم قالت:

ـ فكّرت كثيرًا الليلة الفائتة في أنك ربما تكون مصدر خطر بالنسبة لي، ألم تسألني إذا كنت أخاف منك؟ لكن مِشيتكَ تدلُّ على أنك رجل وديع، ولستَ مصدر خطر.

بعدها تفحّص كارل قدميه، متأملًا مِشيته، لم يطرأ على ذهنه يومًا أن خطواته قد تكون خطِرة. كان قد أمضى الليلة السابقة مفكرًا في كيفية التصرف مع تلك الصبية لو أنها اعترضت طريقه مجددًا، ولما استيقظ استقرَّ رأيه على عدم السماح لها بأن تصحبه في جولات تسليم طلبات الكتب، وأخبرها بذلك قائلًا:

ـ ربما أمشي مشية خَطِرة عندما أنعطف عند زاوية الشارع، لأدخل إلى أحد الأزقة الضيقة للبلدة القديمة.

هزّت رأسها، فاهتزّت معها خُصَل شعرها الداكن قائلةً:

ـ لا أظن ذلك.

ـ كما يمكنني أن أتحوّل إلى خاطف أطفال؟

ـ هراء..، لا أصدق ذلك.

لم يبدُ على ملامح شاشا أنها تأثّرت البتة.

ـ هل تريدين مني إثبات كلامي بالدليل؟

ـ أنتَ أبطأ من أن تفعل ذلك.

ـ أأنتِ متأكدة؟ هل تريدين مني أن أخطفكِ الآن؟

أخفضتْ ذقنها وقوَّستْ حاجبيها تعبيرًا عن التشكيك في كلامه، ثم قالت:

ـ حقًّا؟

ـ نعم، سأخطفكِ الآن.

ـ وعلامَ تنتظر؟ هيا..، أتراكَ تخطفني الآن أم أنكَ خائف؟

حام كارل حول الصَّغيرة شاشا التي كانت ثبّتتْ عينيها عليه طِوال الوقت. انتظر لحظة حتى رمشت بعينها، ثم مدَّ يده ناحيتها، لكنها تملصت منه بحركة بسيطة، مجرد خطوة صغيرة إلى اليمين لا أكثر، فعاودت يده الامتداد جهتها، فانسلَّت منه بسهولة وهي تضحك، ثم قالت:

ـ اعتدنا في المدرسة أن نلعب لعبة الغُميضة، وأنا ثاني أفضل تلميذة تلعب اللعبة، صديقتي سفينا هي الأبرع، هي الأفضل مني في كل شيء، ولكن لا بأس، فهي أيضًا فتاة خبيثة؛ لأنها تُلقِّننا دروسًا عن كيفية الوفاء للأصدقاء، لكنها دائمًا ما تقول الكلمة وتفعل عكسها.

توقف كارل عن محاولة الإمساك بِشاشا، بعد أن جعل من نفسه أضحوكة بما يكفي، وتمنّى لو أن لم يره أحد وهو يفعل

ذلك، كان يريد أن يصون سمعته بعيدًا عن السخرية. عندها عَلَتْ وجه الصبية ابتسامة رقيقة، فقال كارل:

ـ ربما لا تخافينني، لكنك تخافين حتمًا من زميلتكِ سفينيا.

ـ أخافُها...؟

أومأت شاشا برأسها وقالت:

ـ كلامكَ صحيح تمامًا، وإنما شأني شأن جميع التلاميذ، وإنه لمن الأفضل أن تخافها أنت أيضًا، أجل ... لو كنتَ مكاني لخِفتَها أيضًا.

أغرق كارل في الضحك، فبدا صوت ضحكه مثل حشرجة آلة قديمة علاها الصدأ، وقد عادت للعمل مجددًا. قالت شاشا:

ـ طريقة ضحككَ غريبة كأنك لا تستطيع أن تضحك من قلبك.

ـ في مقدور أي إنسان أن يضحك من قلبه.

ـ باستثناء عمّتي باربيل، إنها لا تضحك البتة، فهي مولودة في البلاد التي لا يضحك فيها المرء أبدًا.

ـ وأين وُلدِت عمتك؟

ـ وُلدت في السويد على ما أعتقد.

ـ ولماذا لا يضحك البشر في السويد؟

ـ ربما للبرودة القارسة في فصل الشتاء؛ لأنك عندما تضحك وتفتح فمك، سيسفح الهواء البارد أسنانك ويؤلمها، ولهذا السبب، فأهل السويد يكتفون بالابتسام؛ لذلك تلوِّح العمة باربيل بيديها على نحو غريب عندما يحدث أمامها شيء مضحك، وأحيانًا تدبُّ بقدميها على الفور.

عندها انعطف كارل إلى شارع زاليرجاسّه، ثم قال للفتاة:

ـ لا بد أن والديك يشعران بالقلق الآن لغيابك عن البيت.

ـ أبي في عمله دائمًا، وأمي ماتت.

عندها توقّف كارل عن المشي، وحدّق في عينيها الزرقاويْن:

ـ كم يؤسفني سماع ذلك!!

ـ أيّهما يؤسفك تحديدًا؟"

فكّر كارل في كلامها وقال:

ـ كلاهما يؤسفني، انشغال أبيك في العمل وموت أمّكِ، لكن الأمر الثاني يحزنني أكثر.

ـ ليست أمي إلا صورة معلقة فوق الخزانة في صالة الشقة، لا أكاد أذكرها؛ لهذا لا أرى سببًا يدعوني للحزن على موتها.

ثم أشارت إلى فمها وابتسمت قائلة:

ـ يقول أبي: إن ابتسامتي وضحكتي كأنهما نسخة تعكسها المرآة من ابتسامة أمي وضحكتها، ولهذا السبب أحب أن أضحك كثيرًا، ينتابني شعور أن أمي تشاطرني الضحك. هل تضحك والدتك معك أيضًا؟

لم يرغب كارل في الحديث عن والدته في هذه اللحظة، فسألها:

ـ ولكن ماذا ستفعلين عندما يعود والدكِ إلى البيت ولا يجدكِ؟

ـ إنه يعلم أني كثيرة التجوال هنا وهناك، وهو لا يحمل همًّا لذلك، ولا تحمل أنت الآخر لهذا همًّا.

اضطر والد شاشا إلى العمل ساعات أطول بعد وفاة زوجته (والدة شاشا) ونقصان حصّتها التي كانت تسهم بها في مصروف البيت، وكان يطلب من رؤسائه أن يعمل ساعات إضافية في شركة الإنشاءات المعدنية، وكان البديل لو لم يفعل ذلك هو الرحيل عن تلك الشقة الجميلة، وهو ما حاول أن يتحاشاه إرضاءً لخاطر ابنته، ناهيك عما سيكون من حزنها المؤكد على فقدان دائرة أصدقائها المقربين لو أنها غادرت الحي، وكان ذلك العمل المضاعف هو أقل ما يمكن أن يفعله إرضاءً لخاطرها.

قالت شاشا:

ـ سأرافقكَ اليوم، هذا ما فكّرت فيه، أريد أن أعرف إلى أين تذهب، طالما رأيتكَ تجتاز ساحة الميدان، ثم يختفي أثرك

بعدها، لكني لم أكف عن تخيّل الأماكن التي تذهب إليها. نعم، كنت أتخيّل فقط، فأنا فتاة فضولية، وفي لحظة ما تملّكني الفضول، فأتيتُ إلى هنا لأكلمكَ.

عندما أنهت شاشا كلامها كان الاثنان على مرمى حجرٍ من فيلا السّيّد دراسي. قال كارل:

- ثمة قول مأثور في اللغة الإنكليزية، تقول ترجمته: الفضول هو الذي قاد القطة إلى حتفها.

نظرت إليه شاشا بحاجبين مرفوعين، فاستطرد كارل:

- قولًا واحدًا.. لن تأتي معي.

في ظهيرة اليوم التّالي ظهرت شاشا أمام كارل مجددًا. تفتَّق ذهنها عن حيلة ذكية كي ترافقه؛ لأنها مهما ساقَت أمامه من ذرائع وحُجج، كان كارل يفنّدها بحُجج أفضل وأكثر إقناعًا، لذلك اهتدتْ إلى رأي مفاده: إنها لن تنبس بكلمةٍ أمامه وستواصل السير جواره بهدوء. ومع كل خطوة توقّع كارل أن تنطق شاشا بأي بكلمة، لكنها لم تخرج عن صمتها. لم يعرف هو الآخر ماذا يقول، فأطبق شفتيه هو الآخر. سار الاثنان مُتَجَاورين برهة من الوقت. أنعم كارل التفكير، ثم استقرّ رأيه على السماح لها بمرافقته اليوم فقط؛ بسبب ما رآه اليوم منها من سلوك منضبط، مع أن قراره لم يكن عين الصواب بكل تأكيد. نظر إليها وقال:

ـ حسنًا، سأسمح لكِ بمرافقتي، بشرط ألا تنبسي بكلمة واحدة، والزمي الهدوء تمامًا.

ـ بالطبع، أكيد.

ـ ولا تبادري باقتراف أي حماقة من حماقات الأطفال المعهودة.

ـ أنا لا أرتكب حماقاتٍ أصلًا.

ـ ولا تزعجي عملائي.

ـ ليس من طبعي إزعاج أحد.

ـ وستكون مرافقتك لي اليوم فقط، إنه استثناء..، هل تعرفين ما الاستثناء؟»

ـ بالطبع، فأنا لم أعد طفلة...، أنا على مشارف العاشرة.

في مقابل كل خطوتين ونصف من قدمَي شاشا، كان كارل يخطو خطوة واحدة فقط، وهو ما أصابها بالاضطراب في أثناء المشي جواره، إذ كان الإيقاع الثابت لخطواته يخلق لونًا من التعثّر في خطواتها. توقّف كارل عن السير، وأخذ نفسًا عميقًا عندما ظهرت فيلا السّيّد دارسي أمامهما.

ـ السّيّد دارسي عميل متميّز، وقارئ نهم، يقرأ كتابًا كل يوم تقريبًا.

ـ أيقرأ كتابًا كاملًا كل يوم؟

ـ نعم.

ـ يا إلهي!!

هزَّت شاشا رأسها، ثم أردفت:

ـ ربما لا تشغله شواغل أخرى عن القراءة.

ثم شخصت ببصرها جهة الفيلا، وقالت في نفسها:

ـ من المؤكد أن رفوف المنزل مكدّسة بالكتب، من الأرض حتى السقف.

كان المنزل المكدّس كتبًا بمنزلة الفردوس الحقيقي في عينيها، أو على الأقل الفردوس الذي تحبّ أن تتخيله، صحيح أنّ هذا النوع من البيوت لم يكن المنزل الكلاسيكي المألوف الذي يحتوي كل ألوان النِّعَم مثل: حلوى (غزل البنات)، أو نوافير الشوكولاته، إلا أن شاشا تعتقد أن من حق طفلة في التاسعة الحصول على كل أنواع الفراديس، فردوس الكتب، وفردوس الحلوى.

حذّرها كارل وهو يقرع الجرس قائلًا:

ـ لا أظن السّيّد دارسي يجيد التعامل مع الأطفال.

وفي اللحظة التي نطق فيها بالعبارة السابقة داخله شعور بنشوء رابطة غامضة بينه وبين الصبية شاشا. فتح صاحب المنزل الباب، لكنه سرعان ما أغلقه بعد أن رأى شاشا، واعتقد أنها

جاءت لاستجداء المال لصالح الجمعيات الخيرية، والحقيقة أن دارسي كان يكره التبرعات الشخصية النقدية، مع أنه كان حريصًا على التبرع بعشرة بالمائة من أرباحه لصالح الجمعيات الخيرية كل سنة، لكنه رأى أن وضع المال في يد شخصٍ على نحو مباشرة أشبه بالصَّدَقة.

قرع كارل الجرس مرة أخرى وقال:

- حضرة فون هوهينيش..، أنا كارل كولهوف، ساعي بريد الكتب من مكتبة بوابة المدينة.

تم فتح الباب مرة أخرى.

- وماذا تريد الصبية؟

- إنها ترافقني اليوم، وهو صبية دمثة الخلق وهادئة.

كانت كلمة كارل من باب التوضيح الذي أعقبه استفسار السّيّد دارسي الذي سأل:

- كم كتابًا لديك اليوم؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

سألت شاشا:

- أتقصد العدد الإجمالي؟

هزَّ دارسي رأسه كما لو أنه لم يفهم السؤال، فتقدّمت شاشا خطوة إلى الأمام، وقالت:

- أنا ماهرة في الأرقام، بل بارعة في الحساب. مَن قال:

إن الفتيات فاشلات في الحساب؟ هذا هراء! إنه أشبه بما يقوله النَّاس من أن البنات لا يستطعن ممارسة الرياضة البدنية، أنا ماهرة في الحساب وفي ممارسة الرياضة..، هل تريد أن أريكَ شيئًا؟

لم تنتظر شاشا ردًّا، طالما اعتقدت - عن تجربة - أن النَّاس يسيئون الظنّ بها، ويسيئون فهم كلماتها، فأرادت أن تضرب مثلًا عمليًّا، فهرعت راكضةً إلى قلب الفيلا التي بدت كأنها مُكوّنة من ممرات تزيّنها صور معلقة على الجدران المغطاة بالمخمل، فضلًا عن العدد الهائل من: السلالم، والدرابزين، والأبواب، والنوافذ، لكنها كانت خالية تمامًا من البشر..، ومن الكتب كذلك. توقّعت شاشا أن ترى غابات من الكُتب بدلًا من الجدران الحجرية التي صادفتها في كل مكان، لكنها لم تعثر على كتابٍ واحد.

- توقفي يا بنت!

سمعت أحدهم يصرخ وراءها، لكنها تصرّفت كما لو أنَّ المَعنيّ بالهتاف شخصٌ آخر يمشي في الفيلا. وبعد التجوال في أرجاء الردهة وصلت شاشا إلى قاعة ضخمة خاوية من الأثاث، اللهم إلا مدفأة عتيقة الطراز، وأريكة جلدية بنيّة داكنة، وطاولة رخامية استقرَّ فوقها دفتر ملاحظات وثلاثة كتب فقط. صرخت شاشا:

ـ ثلاثة كتب؟ ثلاثة كتب فقط؟ وأين بقية الكتب؟ في الطابق السفلي؟

كانت شاشا على وشك الركض، لكن دارسي وكارل دخلا القاعة. قال كارل:

ـ أعتذر منكَ بشدّة، لم أتوقع أن يبدر منها هذا السلوك قط.

استاء كارل من سلوك الفتاة الجامح؛ لأنه اعتاد معاملة زبائنه القدامى الأوفياء الذين بقوا على إخلاصهم بأقصى قَدر من الحرص واللياقة، وها هو الآن يرى شاشا تفسد كل شيء. أسوأ ما في الأمر أن الأقدار ساقت إليها السّيّد دارسي، وهو أشدُّ زبائنه تحفظًا وصرامةً في معاملة الغرباء، الرجل الذي طالما أسدل ستائر معتمة على حياته الشخصية....، لماذا لم يصرَّ كارل على موقفه بعدم أصحابها؟ لِم سمح لها بالقدوم معه؟ قال كارل في نفسه:

ـ إنني حقًّا شيخ هَرِم أحمق! لا مناص من أن آخذها الآن على الفور إلى منزلها، وأن أنتظر عودة أبيها من العمل، لأخبره بضرورة ضمان عدم إزعاج الصبية لي مجددًا.

في هذه اللحظة اقترب السّيّد دارسي من شاشا. تساءل كارل في نفسه: ماذا عساي أن أفعل لو اشتغل غضبه؟ لكن دارسي أجاب بنبرة دافئة حنون:

ـ لن تجدي مزيدًا من الكتب في المنزل...، ليست في حوزتي الآن إلا ثلاثة كتب فقط.

صُعقَت شاشا من جوابِه، ثم حملقت إلى المدفأة وقالت:

ـ ماذا؟ هل تَحرق الكتب؟

جلس دارسي على الأريكة وقال:

ـ اقتربي مني من فضلك.

امتثلت شاشا إلى طلبه دون تردد.كانت الصبية تعيش في زمن يدّعي فيه الأغنياء دماثة الخُلق ورقّة القلب، وإلا انقلب النَّاس عليهم، ولكن مَن ذا الذي يدري بما ستؤول الأمور بعد سنين من اليوم؟ قال السّيّد دارسي:

ـ من المؤكد أنكِ تعلمين مدى شغفي بالكتب، ومن ثَمَّ، فلن أحرقها، ومع ذلك أظن أنه لا ضير من حرق الكتب في حالات استثنائية وحصرية، وتحديدًا بغرض التماس التدفئة عندما تشتدّ برودة الطقس، وعندما تمسي حياة الإنسان مهددة بخطر الموت من التجمّد، عندها يمكن لحرق الكتب إنقاذ حياة الآخرين، في مقدور الكتب إنقاذ حياة الآخرين بطرائق شتى، في مقدور الكتب أن تشيع في قلوبنا الدفء، وفي أجسادنا أيضًا، ولكن في حالات الضرورة القصوى.

سألت شاشا.

ـ ولكن أين كل كتبك؟

ـ تعلمين أن النَّاس قد ازداد انصرافهم على القراءة في

الآونة الأخيرة، بين دفتي كتاب ستجدين البشر وحكاياتهم، وفي كل كتاب قلب لا ينبض إلا عندما نُقبل على قراءته؛ لأنَّ قلب القارئ مرتبط بقلب الكتاب.

عَلَت ملامح الحزن وجه السّيّد دارسي الذي شخص بصره إلى نار المدفأة، وليس إلى شاشا إذ يواصل حديثه. كان دارسي من النوع الصموت، لكنه استرسل في الحديث هذه المرة، وربما انتابه شعور بأنه يناجي نفسه، لم يكن يحادث إلا كارل، وتمنّى الأخير لو انطلق لسان السّيّد دراسي ليخرج كل ما في جعبته.

ـ أعلم أنني أعاني من متلازمة (خلط الأزمنة Anachronismus)[1]، لكني أحب العيش على هذا النحو، أنا رجل بطيء الإيقاع في عالم صار يموج بالسرعة أكثر من أي وقت مضى، أودُّ أن يُقبِلَ النَّاس على القراءة.

التقط دارسي كتابًا من الكومة الصَّغيرة الموضوعة فوق المنضدة وقال:

ـ بمجرد إنهاء قراءة الكتاب أرسله في التوّ واللحظة إلى مكتبة المدينة القديمة حتى يتسنّى لغيري قراءته والاستمتاع به قبل أن يَصفرَّ لونه.

---

(1) نوع من الخلط العابر للزمن، وهو مصطلح يشير إلى خلط أحداث أو أشياء أو أفكار عصر مع عصر (المترجم).

ـ يصفرّ لونُه؟

أفلتت الكلمة السابقة من لسان شاشا وأضافت:

ـ كلمة مقززة، تبدو سمِجةً بعض الشيء.

ـ نعم بالضبط، بل كلمة مُعدِية كالمرض الذي يصيب الجِلد بمجرد ملامسة الصفحات، فالنَّاس صاروا اليوم ينفرون من ملامسة الكتاب المصفرّة حائلة اللون، وكأن الكتب أبدان مصابة بالجذام، لقد خصصتُ تمويلًا كبيرًا لدعم مكتبة المدينة القديمة وحفظ الكتب الصفراء العتيقة حتى لا تتردّى أحوالها أكثر من ذلك، وتتحوّل إلى مستعمرة المنبوذين لو صحّ التعبير، عندها لن يجدي معها أي علاج.

بعد كلامه تخيَّلتْ شاشا الكتب العتيقة مرصوصة على رفوف مكتبة حالكة الظلام، فأحزنها ذلك بشدّة، وفي الوقت ذاته لم يسرُّها ما رأته هنا أيضًا، وعلى وجه التحديد خواء الفيلا، وبرودة جدرانها العارية من رفوف الكتب، فقالت:

ـ لكن ذلك لا يمنع من الاحتفاظ ولو بعدد قليل من الكتب التي أسَرت قلبكَ، ولا تستطيع التفريط فيها، لو كنتُ مكانك، لما فرّطتُ في رواية اليانصيب المزودج[1] قط.

---

(1) رواية :Das doppelte Lotschen رواية أطفال مصوّرة من تأليف الكاتب الألماني إيريش كيستنر ظهرت سنة 1949، وقد لاقت قبولًا واسعًا وسط جمهور القُراء (المترجم).

ـ لكني أرى خلاف ذلك، فهذه على وجه التحديد، هي الكتب هي التي ينبغي لنا أن نهديها إلى المكتبة العامة حتى تجلب السعادة إلى نفوس الآخرين، علينا إهداء الكُتب الأعـزّ إلى قلوبنا.

ـ هيأتك تُوحي بأنك كاهن.

ابتسم دارسي وقال:

ـ نعم، أشعر أحيانًا أنني كاهن.

بعدها نَقَل بصره إلى كارل كولهوف قائلًا:

ـ لقد أسعدكَ الحظ برفيق درب لطيف المعشر، وشعلة ذكاء متوقدة.

ـ نعم، أنا مندهش مثلك تمامًا من توقد ذهنها.

ـ مهما يكن من أمر، فسيكون من دواعي سروي لو اصطحبتَ معك شاشا في الزيارة القادمة، أما الآن، فلا بد أن أنصرف إلى بعض أعمالي قبل أن تغلق سوق أسواق الأسهم المالية.

آثر السّيّد دارسي استعمال طريقة التعبير المتحفظة، إذ يشير إلى أموره المالية، بغرض أن يضفي لمسة ساحرة على تعاملاته الصارمة مع عالَم المال.

ـ في المرة التَّالية سأرِيَكم حديقة منزلي... أنتِ والسّيّد

كولهوف الذي طالما أردتُ أن أريه حديقة بيتي، ولمَّا تحن الفرصة المناسبة بعد.

كادت دمعة تطفر من عيني كارل الذي كان عصيَّ الدمع طوال حياته، كان قد بكى آخر مرة لمّا كان في الرابعة عشرة، إذ انفطر قلبه بسبب فتاة بعث لها برسالة غرامية غمسها في عِطر والدته باهظ الثمن، وما أنْ قرأت الفتاةُ الرسالة على مسامع أصدقائها في أثناء وقت الراحة حتى ألقت بها في سلة المهملات. بعد تلك الواقعة نسي كارل اسم الفتاة، ونسيتْ القنواتُ الدمعية العَبَرات التي تستثيرها الأحزان، ولا بدَّ أن سبب الدمعة التي كادت تطفر من عينه مصدرها حكّة تسبب فيها غبار فصل الربيع. رافقَ السّيّد دراسي ضيْفيه حتى باب الفيلا، وتبادل الجميع تحية الوداع بلُطف. وبنظرة ذات مغزى رمقَ كارل شاشا التي كانت تسعى للمحافظة على توازنها، إذ تحاول الوقوف على ساقٍ واحدة، ثم أدام النَّظرة إليها برهة طويلة، ويبدو أنها فهمت مغزى نظرته، فسبقته إلى الكلام قائلة:

ـ أعرف ما تودُّ إخباري به، لم يكن ينبغي لي الركوض إلى قلب الفيلا، وبالفعل لم أكن سأفعل ذلك.

أومأ كارل مؤكدًا كلامها.

ـ ثم ستخبرني أنك تريد شدَّ أذني وجرَّي إلى بيت أبي جرًّا.

بعدها رفعت إصبعها الصَّغير وقالت:

ـ ثم تقول: حذارِ ... حذارِ أن أراكِ هنا مجددًا.

إلا أن كارل لم يهز رأسه، فواصلت شاشا:

ـ لكن بما أن الرجل تَرفَّق في حديثه إليَّ وتلطّف في معاملته، فدعاني إلى زيارة بيته مرة أخرى، فلا داعي لقول ذلك. لقد أحسنتُ التصرّف عندما ركضتُ إلى داخل الفيلا، حتى وإن كان سلوكًا خاطئًا في ظاهره. فمن المؤكد أنك لا تعرف ما تقول؛ لأن في رأسك صوتين متصارعين، يقول الأول: نعم، ويصرخ الثاني: لا، ولا تدري أيهما مُحق. أستطيع أن أقترح عليك اقتراحًا وجيهًا: سأرافقك من الآن فصاعدًا، لكني سأتهذّب في سلوكي، ويجب أن أُكافَأ على حسن سلوكي..، ما رأيك؟

ـ لا بد أنكِ درستِ المسألة من كل الوجوه.

ـ نعم، طافت كل الأفكار برأسي وأنا أركض إلى الردهة الطويلة.

ردَّ كارل وهو يهزّ رأسه:

ـ يجب أن أمضي قدمًا، فيجب إيصال بقية الكتب التي في حقيبتي إلى أصحابها.

توقف كارل مجددًا وسألها:

ـ هل دار كل ذلك بذهنك حقًّا وأنت تركضين إلى الردهة؟

أومأت شاشا برأسها بزهوّ وقالت:

ـ في جعبتي حِيَلٌ لا تنضب.

افترَّ ثغرها عن ابتسامة طفولية عذبة بدت معها أبهى من البدر المنير. ومن ثمّ أخذ كارل نفسًا عميقًا وقال:

ـ لكن أريد منكِ وعدًا بألا تقتحمي منزل أي زبون آخر أو شقته، حتى ولو كان الفضول يقتلك!

ـ أعدكَ.

ـ وعدًا صادقًا؟

دنت شاشا من كارل خطوة، ومدَّت يدها إليه، فبسطَ كارل يده إليها وقبض عليها بحنوّ.

ـ أعدُكَ، ووعْدُ الحرِّ دَيْنٌ عليه.

تشابكت الأيدي وأبرِمَ العهد بين الاثنين.

* * *

كانت الزيارة التَّالية إلى دير قديم تعيش فيه راهبة لم تغادر أسواره قط، فبعد مرور خمسمائة سنة من تأسيسه أمَرَ الفاتيكان بحلِّ نظام الرهبة البنيديكتية، فأبَتْ الراهبةُ مغادرة الدير؛ لأنه مأواها الوحيد.

لم يدر بخَلَد أحد يوم ولادة الأخت ماريا أنها سوف

تترهبنَ في يومٍ ما، وخصوصًا لكونها قد وُلِدت في أسرة لا تقيم وزنًا للإيمان الديني، فقد كان الأب اختصاصيًا في علم الأحياء الجزيئية، والأم كانت باحثة في الفيزياء الفلكية، وكان الوالدان مؤمنيْن بالعلم إيمانًا راسخًا، أما ما دون ذلك من الظواهر الغيبية التي لا يمكن تفسيرها تفسيرًا ماديًّا بالأرقام والمعادلات، والتعبير عنها مباشرةً بالأحرف والكلمات، فقد كانت تلك الأمور - من وجهة نظريهما - هراءً لا قيمة له، وعلى رأسها بالطبع الإيمان الديني. ومنذ نعومة أظفارها وعقب التحاقها بحضانة الأطفال ترسخ في أعماق الابنة رفض صريح لكي تكون عالمة أحياء أو عالمة فيزياء فلكية (وهي بطبيعة الحال لم تعلن عن ذلك لأبويها)، على أنها ودَّت أن تلتحق بالدير، وأن تنخرط في سلك الرهبنة، مما جرَّ عليها سخرية الوالدين، وقالا: إنها أفكار طفولية نزِقة سرعان ما ستتبدّد حين تنضج الصبية، هذا فضلًا عن رغبة والديها الصريحة في رؤية أحفادها.

ومع ذلك لم يكف حُلم الطفلة عن مداعبة عقل البنت الصَّغيرة يومًا وراء الآخر. بدأ الحُلم برغبة غائمة المعالم كسحابةٍ لا شكل لها، ولا يمكن لمسها، سحابة شكّلتها الرياح العابرة، فتبدو أمام النَّاس كل يوم في شكل مختلف، مع أنها السحابة نفسها. وبعد تخرّجها في المدرسة الثانوية سافرت إلى زيمبابوي في رحلة مدّتها ستة أسابيع كان الغرض منها رعاية الأطفال الأيتام، ثم شاءت الأقدار أن تتمَّ تلك المهمة تحت

جناح دير الراهبات البنيديكتي ورعايته، ووسط راهبات الدير عثرت الفتاة (التي ستكون فيما بعد الأخت ماريا هيديجارد) على السكينة والسلام .وكانت حين يخيّم الظلام تعكف على قراءة الكتاب المقدس، ولم يكن الحال كحال أيام المدرسة، حيث يضطرّ التلاميذ إلى تلاوة النصوص الدينية وإكمالها في اليوم التَّالي، وإنما كانت تقرأ الكتاب المقدس بملء إرادتها، وبالقَدْر الذي يمكنها استيعابه فقط.

ثم تعرّفت إلى السّيّد المسيح الذي أشار إليها نحو الطَّريق، وكان الطَّريق المنشود هو الانخراط في سلك الرهبة في الدير البينيديكتي، حيث شعرت فيه وللمرة الأولى أنها عثرتْ على محور حياتها الحقيقية، وبدا لها الأمر مثل العودة إلى الديار، بالرغم من اعتقادها فيما سبق ألا وجود لديار تضمّها أبدًا.

اعتزمت الأخت ماريا هيلديجارد ألا تغادر هذا المكان؛ بسبب شعورها بالوَحشة والغربة خارجه، واستمرّ الأمر على هذا المِنوال حتى جاء اليوم الذي أبلغتها فيه الأبرشية رسميًّا بقرار الإخلاء، وبمقتضي القرار أوقفتْ إمداد الدير بالمياه الجارية وبالتدفئة، بل هددت الأبرشية بتوقيع غرامات مالية باهظة، وبسبب أحكام قانون الكنيسة القديم تعذَّر على السلطات إرغامها على مغادرة الدير بالقوة، لكنها كانت تعلم أنها لو غادرت الدير مرةً واحدةً فقط، فلن تستطيع العودة إليها بعد ذلك أبدًا.

لم تعرف الأخت ماريا هيلديجارد ما إذا كانت تحت المراقبة اليومية أو لا، ومع ذلك آثرتْ ألا تخاطر بالخروج من الدير لجلب ما تحتاج إليه من مؤن وغذاء. وقد جلب لها كارل الروايات البوليسية، ثم كان يُزوِّد طردَ الكتب خُفيةً برطل من الدقيق، وحزمة من الشموع لزوم وسائل العيش الأساسية، ولم يأتِ أحد منهما على ذكر تلك المسألة قط، واستمرَّ بقية الجيران في تزويدها ببعض الأغراض الضرورية، يحدوهم في ذلك أمل ألا تسخط السماءُ عليهم لمخالفة أوامر الأبرشية.

لم يكن كارل يعرف شيئًا عن حديقة المطبخ الصَّغيرة داخل الدير الداخلي التي كانت تديرها الأخت ماريا هيلدجارد، ولا عَرَف شيئًا عن البئر التي تمدهم بمياه الشرب، ولهذا لم يفطن في الماضي إلى سرِّ إلمامها العميق بأحوال الطقس، وكانت معرفتها الدقيقة بأحوال الطقس إنما هي راجعة إلى أهميته البالغة للنباتات والزهور في حديقتها. وقد خلع كارل عليها كارل اسم "الراهب» المذكور في رواية نرسيس وجولدموند لِهيرمان هسّه، مع أنه كان يؤثر أن يطلق عليها اسمًا مستَلهمًا من مملكة النبات، فدعاها الأخت أماريليس (Amaryllis)[1].

(1) يُطلق على النبات أماريليس ست الحسن، وهو نوع نباتي من فصيلة النرجسيات (المترجم).

اشتعل قلبُ شاشا بالحماسة لمّا عرفت أنها ستقابل واحدة من الرهبات، وتملّكها فضول قوي لتعرف ما إذا كنّ يأكلْنَ خبز الصلاة فقط، وما إذا كان لديهن شَعْر تحت أغطية رؤوسهن، وما طَول قامة الراهبات في العادة، وما إذا كانت هناك منامات خاصة للراهبات. كان بودِّها أن تسألها عمَّا إذا كان من الضروري غَسل كل شيء بالماء المقدّس، لكنها بَلعت السؤال بعدما انزلق سؤال ثانٍ على طرف لسانها، فقالت:

ـ هل صحيح حقًا أنه محظور عليك الزواج؛ لأنك راهبة؟

ـ لكني متزوجة بالفعل.

ـ يا إلهي!! وهل يعرف الرب ذلك؟»

ضحكتْ الراهبة أماريليس وقالت:

ـ أنا عروس السماء.

ـ إذًا فزوجكِ يعيش بعيدًا جدًّا.

ـ و كيف ذلك؟ السماء فوق رؤوسنا مباشرة.

ـ نعم جميل، لكنكِ لا تستطيعين الطيران!

ثم نظرت شاشا إلى قلنسوة الرهبنة فوق رأس العجوز وأردفت:

ـ أم تراكِ طرتِ قبل ذلك؟

ـ لا ....، لم أجرب الطيران.

ـ لتجرّبيه إذًا، لو كنتِ عروس السماء، فمن المؤكد أن السماء تريدكِ معها.

ـ جميع الراهبات متزوجات من السماء.

أمالت شاشا رأسها وقالت:

ـ ولكن أليست لكل زوج زوجة واحدة فقط؟

ثم ما لبثت أن أومأت برأسها بعد أن انتبهت إلى شيءٍ ما وقالت:

ـ لكن السماء فعّالة لما تريد.

بعد هذه العبارة انعقد لسان الأخت أماريليس، وسرعان ما ألقى كارل تحية الوداع متظاهرًا بأنه لم ينتبه إلى كلام شاشا.

❋ ❋ ❋

كانت الزيارة الثالثة لتسليم كتاب مُغلّف بدقة بالغة إلى الدكتور فاوستوس[1] الذي زعم أنه حاصل على الدكتوراه الفخرية، مع أنه لم يتلقَّ تعليمًا عاليًا في حياته البتة. وبالرغم من نباهة عقله لم يتوافر لأبويه المال اللازم لتعليمه، فترسّم خطا أبيه وجدِّه واشتغل سائق قطارات في السكك الحديدية.

---

(1) في التسمية إشارة إلى شخصية فاوست غزيرة العلم في مسرحية جوته، وكذلك إلى رواية الأديب الألماني توماس مان الذائعة دكتور فاوستوس (المترجم).

وفي كل يوم تنهال على رأسه الشكاوى بسبب تأخّره أو افتقاره إلى الكفاءة أو فظاظته في التعامل مع زملائه، بينما أثارت نظرته المرتبكة دائمًا انطباعًا بأنه مُراقَب، هذا ناهيك عن خوفه الشديد من الكلاب، وخصوصًا من سلالة (البودل)، ومع أنه طالما أراد لنفسه كلبًا وفيًّا ليكون رفيق طريق مخلصًا، ومِن سلالة فريدة لائقة بعالمٍ جهبذٍ مثله، ومع ذلك لم يجد ضالته. كل ذلك مما يسَّر على كارل العثور على اسم ملائم للرجل.

كان الدكتور فاوستوس قد قرأ عددًا هائلًا من الأطروحات التاريخية؛ بغرض دحضها وتفنيد فحواها في أكبر عددٍ ممكن من النقاط، وفي أكبر عدد ممكن من الرسائل الموجَّهة إلى المؤلفين أو الجامعات التي يدرّسون فيها، وراح يحدّث كارل عِنها دون الالتزام بسياقٍ محدد، فراحت تنهال الشروح والتفاسير من فمه أنهارًا وفي مسارات متفرقة، كما كانت تفسيراته تتدفق مثل الأنهار التي تتفرّع في مسارات كثيرة، ولا تعود أبدًا إلى مسارها الأصلي، وأحيانًا كان يغلق باب الشقة بهزّةٍ من رأسه.

* *

تداعت أفكار كارل محدّثًا نفسه وهو يمشي: لقد وجدت السّيّدة لانجشتروموف خطأً مطبعيًّا لا يُغتفر في نسخة كتابها هذه المرّة، كانت كلمة (الطوبق الأرضي)[1]. في الفترة ما بين تسليم

---

(1) المقصود منها: الطابق الأرضي وفق الكتابة الصحيحة (المترجم).

كتاب وآخر كان ثمةَ شعور دائم بالتوحّد يتسرّب إلى كارل، التوحدّ مع نفسه ومع العالم، فلم يكن يرهق ذهنه بالتفكير لا في نفسه ولا في الطَّريق، فتقوده قدماه إلى أي مكان حيثما اتفق، لكن الأمور اختلفت اليوم، صحيح أن شاشا توخَّت الحرص في كلامها، لكنها كانت جواره تفكّر في كل شيء. سأل كارل نفسَه عن سبب وجود الصبية جواره، ثم توجَّه بسؤاله إلى شاشا:

ـ لماذا لا تذهبين للعب مع غيرك من الأولاد والبنات؟ أتوقّف الصبيان عن اللهو هذه الأيام؟

ـ ومَن قال ذلك؟ أنا ألعب بالفعل معهم.

ـ لكنك لا تلعبين معهم الآن.

ـ صحيح.

ـ أليس عندك أصدقاء؟

ـ بلى..، بالطبع عندي أصدقاء.

كان كارل يعرف هذه الإجابات المقتضبة المكوّنة من مفردة واحدة على خلفية محادثاته من الطُّلاب اليافعين المتدربين في المكتبة، وكأن جيل الشباب يحمل شعارًا: «خير الكلام ما قل ودل»، ربما كانوا يدخرون طاقاتهم لممارسة أنشطة أخرى.

ـ ومَن هم أصدقاؤكِ؟

ـ أليكس، ولِيلِي، وسيمون، وآنا، إيفا لينا، وتِـم، لا.. لا..، لم تعد إيفا لينا صديقتي، فهي بنت حمقاء غبية ومتغطرسة ..، حسنًا، هل يمكنني تسليم الكتاب التَّالي؟

كان كارل يهيم عشقًا بلحظة تسليم الكتب، وفي أحايين قليلة، بل ربما نادرة كان يعتقد في دخيلة نفسه أنَّ تلك اللحظة تُشعره كأنه (بابا نويل).

فأجاب شاشا:

ـ لا ...، مستحيل.

ـ رجاءً.. مرة واحدة فقط!

ـ آسف.

ـ من فضلك..، من فضلك..، من فضلك..، من فضلك..، من فضلك!

ـ ربما يمكنكِ ذلك في مرة تالية، ولكن ليس مع إيفي بريست.

وكانت إيفي هي الزبون الأخير على قائمة جدول تسليم كتب اليوم. ألحّت شاشا بصوت طفولي:

ـ لا، بل هذه المرة..، وأعِدكَ ألا أزعجكَ بعد اليوم أبدًا..، وسأبقى عند وعدي!

ـ هذا ابتزاز.

ـ هذا أكيد، وما رأيك؟ أليست حيلة ذكية؟

أجاب كارل طلبها، ومضى الاثنان في طريقهما، ثم سرعان ما ظهر منزل إيفي بريست على مرمى البصر، فهزَّ كارل رأسه وقال:

ـ لن تسلّمي الكتاب، ولكن سأدعكِ تقرعين الجرس.

ـ أتقارن هذا بذاك! على أي حال قَرْع الجرس يُحدث نغمًا مُحببًا..، على عكس تسليم الكتب.

ـ معكِ حق يا شاشا؛ لأن صوت الجَرس يشبه نغمات ساعة بيج بن.

مرت لحظة قصيرة حتى فتحت إيفي الباب وهي تلهث، ورأت شاشا جواره، فقالت:

ـ أهلًا سيد كولهوف...، ها قد أحضرت حفيدتك معك اليوم».

مدَّتْ الصبية يدها.

ـ لا .. لست حفيدته، وإنما أنا شاشا التي تساعده، يجب على المرء أن يأخذ بيد كبار السنّ.

وبالرغم من وعي كارل بحقيقة تقدِّمه في السن يومًا وراء الآخر، لم يؤلمه شعور الشيخوخة حقًّا إلا بعد أن سمع هذه

الكلمة، وبدا كأن شاشا علَّقت حول رقبته لافتة مكتوبًا عليها: «هذا الشخص محتاج إلى المساعدة».

قالت إيفي:

ـ أعشق الأطفال عشقًا.

ـ هل رُزِقت بأطفال.. سيدتي؟

لأول وهلة ظنّتْ شاشا أنها طرحت سؤالًا بسيطًا يحتمل الإجابة بـ: «نعم أو لا». أما بالنسبة إلى أندريا كريمين، فلم تكن كلمة واحدة، بل لم تكن رواية كافيةً للردّ عن سؤالها، كان السؤال محتاج إلى مكتبة كاملة. على كل حال أوجزت أندريا الردّ في عبارة واحدة مقتضبة:

ـ لمَّا أرزق بعد.

وضع كارل حقيبة ظهره، وحلَّ الرباط لإخراج آخر كتاب في رحلة اليوم. سألته شاشا بصوت عذب يكاد يقطر بالعسل الخزامي من فرط عذوبته أن تسلم هي الطرد، فقالت إيفي:

ـ من فضلك دع الطفلة تسلِّم الكتاب هذه المرة، فيبدو أن هذا أقرب إلى حُلم حياتها.

تردّد كارل شيئًا ما، وكان مبعث تردده أنه لن يُسلم الكتاب يدًا بيد لأول مرة منذ عقود طويلة، شعر كارل أن الحياة تدير ظهرها إليه، وتولّد في نفسه شعور بأن عضلات يده ترفض الاستجابة لأوامر عقله، بل إنها توقفت عن العمل، فأعطى

الكتاب لِشاشا لتُسلِّمه. أخذت شاشا الطَّرد من يد كارل، وسلّمته على عجل إلى إيفي بطريقة صبيانية متسرّعة. قالت شاشا وهي تضحك:

ـ افتحي الطرد! عادة ما أمزّق غلاف أي هدية على الفور لرؤية ما بداخلها، والآن أريد رؤية محتوى الطرد.

كانت رواية (ابنة وردة الظلال)، وهي الجزء الثاني من الرواية الأكثر مبيعًا بالاسم نفسه، بحسب كلمة الغلاف الخلفي تستمرّ الأحداث المأساوية في حياة عاملة البستان الشابة الموهوبة التي كبرت وترعرعت في دار أيتام. تفحصت شاشا صورة الغلاف التي تصوّر امرأة شابة تسير عبر مستنقع، ورأسها مُنحنٍ أمام عاصفة عاتية، وقالت:

ـ تبدو رواية مغرقة في الحزن.

بينما قالت إيفي وهي تتصفّح الرواية بسرعة:

ـ نعم، هذا صحيح، لكني بالتأكيد متطلعة باهتمام إلى قراءتها.

ثم تفرّست إيفي ملامحَ شاشا وسألتها:

ـ هل ستجلبين إليَّ رواية أخرى؟

قالت شاشا:

ـ بالطبع، إذا سُمِح لي.

ـ سوف تسمح لها يا كارل بالتأكيد، أليس كذلك؟

ابتسم كارل وقال:

ـ سنرى ما سنفعل.

التفتت إيفي إلى شاشا مجددًا وقالت:

ـ بالنسبة إلى العم كولهوف، فكلمة «سنرى» معناها: «نعم».

تدبّرت إيفي- في نفسها - مقالتها السابقة، ثم تابعت قائلةً:

ـ أو ربما تعني «لا»..

لكنها لم تشأ التفكير في مسألة الرفض، فما دام كارل لم يرفض صراحةً، فكلمته حمّالة أوجه. أزفت ساعة الرحيل، حينذاك رأى كارل نفسه مضطرًا إلى قبول التغيير الذي طرأ على جدوله اليومي الصارم، حيث تجب عليه الآن إعادة شاشا إلى ساحة ميدان مونستربلاتس، أي: إنه لن يعود إلى المنزل مباشرة، وهو ما يعني بالضرورة تقلّص عدد الساعات المخصصة للقراءة في بيته، وقراءة عدد صفحات أقل عما اعتاد عليه، وهو ما يعني أيضًا حاجته إلى تخصيص مزيد من الوقت لإنهاء الكتاب الذي بين يديه، ففي حياة تمشي وفق نظام صارم، تكون أصغر ذرة غبار كفيلة بتعطيل تروس الماكينة برمتها. قالت شاشا قبل أن تتراجع خطوة إلى الوراء وهي تحادث كارل:

ـ لا أنكر أنها امرأة لطيفة المعشر، لكنَّ في حياتها سرًّا عميقًا.

ـ أعرف.

ـ وهل لاحظتَ كيف تصفّحَت الرواية بطريقة غريبة؟

ـ ماذا تقصدين؟

ـ لا أعرف، ربما أراقبها عن كثب في الزيارة التَّالية، لكن طريقتها لم تخلُ من غرابة.

ـ إيفي امرأة غريبة الأطوار على أي حال.

شرعت شاشا في الوثب، إذ تمشي جوار كارل، ثم خاطبته قائلة:

ـ بالمناسبة: لماذا تقول إيفي بريست؟ والسّيّد دارسي؟ فالأسماء المكتوبة جوار جرس الباب مختلفة؟

ـ هي أسماء سمّيتُها، لائقة بهم أكثر من أسمائهم الأصلية، فعُشّاق القراءة جديرون بأن نخلع عليهم أسماء أبطال الروايات العظيمة.

ـ وهل أنا جديرة باسم «بطلة رواية عظيمة» أيضًا؟

ـ وهل أنتِ من عشاق القراءة؟

ـ أعشقها بما يكفي؛ لكي أنال اسم «بطل رواية عظيمة».

ـ ما الاسم الذي ستطلقينه على نفسكِ؟

ـ أنا من سألتكَ أولًا.

فكّر كارل قليلًا، ثم قال:

ـ لا ...، لَمْ تطرحي سؤالًا.

أطلقت شاشا ضحكة بريئة، ثم قالت قبل أن تسلم ساقيها للرياح وتغيب عن الأنظار:

ـ حسنًا، كلامك صحيح، لكنك ستخبرني غدًا من دون شك باسم البطلة الروائية اللائقة بي...، وداعًا يا ساعي بريد الكتب.

في طريقه إلى البيت قرّر كارل المرور بأحد المتاجر لشراء زجاجة نبيذ للترويح عن نفسه، فكما تحتاج السيارة القديمة إلى زيوت التشحيم، يحتاج هو إلى شيءٍ من النبيذ، طالما وقع اختياره على شراء نبيذ من نوع (سيلفانر) الفرنسي بفضل مذاقه المتميّز الجامع بين طعم الكمثرى والسفرجل، هذا فضلًا عن افتتانه بتمرير أصابعه فوق ثنايا زجاجات نبيذ Bockstaschen المستديرة الرائعة التي لم تكن تتوافر إلا في هذه المنطقة تقريبًا، وعلى غير عادته اشترى زجاجتين دفعة واحدة، حيث لا يُستبعد ظهور شاشا مجددًا مرة ثانية.

في صباح اليوم التَّالي زار كارل رئيسَه القديم، السّيّد جوستاف جروبر في دار رعاية المسنين الكائنة في مونستربليك، وبالرغم من اسمها [المطُلّة على الكاتدرائية] كانت تتعذّر رؤية الكاتدرائية، إلا إذا وقف المرء فوق سطح المبنى ووثَب إلى

الأعلى مسافة ثلاثة أمتار في الهواء. داوم كارل على زيارة صديقه جوستاف في الفترة الفاصلة بين وجبتي الفطور والغداء؛ حيث كان الأخير حريصًا على ألا يزعجه أحد في أثناء تناول وجبة الطعام، ففي دور المسنين تُعَدُّ الوجبات وحدة قياس الزمن، وليست الساعات والدقائق، على مدار اليوم تُقدّم له القهوة والكعك، ثم وجبة العشاء وبعدها يُقدَّم كأس خفيف من الشراب قبل الخلود إلى الفراش.

في شرخ شبابه كان لِجوستاف شعر مجعّد أشقر ضارب إلى اللون القمحي، أما اليوم، فعلى رأسه شَعْر مستعار باللون نفسه، وبدا كأن شَعره الأشقر المستعار يغمز ويلمز سخريةً من الخطوط الرمادية الداكنة التي تتخلل شَعْر حاجبيه ولحيته الخفيفة، فبدت هيئته في تلك اللحظة كهيئة مُهرِّج أزال الأصباغ التنكرية، وإن بقيت بعض آثارها، ومع ذلك كانت تجاعيد وجهه مُشرقة بروح الدعابة الفتيّة، وتغضّنات جبهته مسكونة بحكمة الشيوخ. ربما يلاحظ مَن يتأمّل عينَي جوستاف جروبر خفوت بريق المكر والدهاء المعهودين، وتحوّل ذلك البريق إلى ضوء واهن بفعل سنوات الشيخوخة، وربما تكون حِيله وألاعيبه القديمة قد شاخَتْ، وإن لم يبطل مفعولها تمامًا.

عندما دخل كارل الغرفة وجده مستلقيًا في فراشه، وبين يديه كتابٌ يطالعه، ومع أن جوستاف كان أوهن من أن يحمل كتابًا غلافه مغطّى بالكرتون المقوّى، لم يكن يطيق في الوقت

ذاته حَمْل كتاب ذي غلاف ورقي عادي؛ لأنه كان يشعر إذ يحمل الكتاب ذا الغلاف الصلب المقوّى أن كلمات الكتاب النفيسة محفوظة مصونة، وأن لا شيء يقدر على أذيتها، على أنه الآن وبعد أن شَعر بدنوّ أجله، وبأن الموت يأتيه من كل مكانٍ، عندها ازدادت رغبته في أن تكون الكلمات التي ترافقه في أيامه الأخيرة، في مأمن من أي الأذى. ما أن دلف كارل إلى الغرفة حتى أخفى جوستاف الكتاب بسرعة تحت الغطاء. قال كارل:

ـ تبدو حالتك على ما يُرام.

فأجاب جوستاف:

ـ إنْ كنتَ كذوبًا، فكن ذكورًا، تقول هكذا في كل مرة مع علمك بحالتي الصحية، لا..، لست على ما يُرام يا صديقي، ولو كنتُ بيتًا لهَدَمَ أركاني حفّارُ الهدم منذ زمن بعيد. أشار كارل إلى البطانية وقال:

ـ الطبع يغلب التطبّع يا جوستاف[1].

ـ على أي حال، لقد تدرّبتُ على إخفاء الكتب تحت الأغطية منذ سنوات بعيدة.

ـ من المؤكد أنَّ وراء ذلك سببًا..، هل تعتقد أنني

(1) وردت في الأصل عبارة ساخرة تشير إلى معاودة السلوك نفسه، وهي موازية للمثل العربي القائل: عادَتْ حَليمة إلى عادَتِها القَديمة (المترجم).

سأغضب لو كنتَ تقرأ كتبًا فيها مشاهد ساخنة في هذه السن؟

أغرق جوستاف في الضحك حتى انخرط في نوبة سعال حادة، ومنذ أن أصِيبَ بذلك الداء حَرِص على ألا يضحك مجددًا، فتوقف عن مطالعة أي مادة فكاهية أو مشاهدتها أو الاستماع إليها، فكان يُنحِّي أي صفحة هزلية من صفحات الجرائد جانبًا دون أن يقرأها، وقد أعانته هذه الطَّريقة على تقليل نوبات السعال التي كانت تضربه، إلا أنَّ رئتيه مشتاقتان إلى الضحك، فالضحك يضخّ الدماء إلى قلبه، ذلك القلب كان مفتقرًا إلى الحياة بالمعنى الواسع الرحب أشدّ من افتقاره إلى أي شيء آخر .بعد أن استردَّ أنفاسه مجددًا قال جوستاف:

ـ لقد طعنتُ في السن إلى درجة أن عقلي لا يكاد يستوعب فهم المكتوب في هذه النوعية من الكتب، لقد تقدّمت بي السن، وكتب الإثارة بالنسبة إليَّ مثل اللغة الإغريقية القديمة، ربما أكون قادرًا على قراءة حروفها، لكني عاجز عن فهم معناها.

جلس كارل فوق الكرسي المجاور لسرير جوستاف وضغط برفقٍ على يده وسأله:

ـ ولِمَ تخفي إذًا كتبك دائمًا؟

ـ وهل تودُّ حقًّا أن تعرف ما أقرأه؟"

ـ بالطبع.

ـ لكني ستسخر منك لو أخبرتُـكَ.

ـ لا..، لن أسخر، أعدك ألا أسخر منك.

أخرجَ الكتابَ وأعطاه لكارل، كان كتاب (جزيرة الكنز) لروبرت لويس ستيفنسون، فمرّرَ كارل بأنامله على القماش الجميل الذي يغلّف الكتاب؛ بينما قال جوستاف:

ـ أعيد قراءة الكتب الذي طالعتها أيام شبابي، وخصوصًا روايات المغامرات، أعيدت قراءة روايات كارل ماي[1]، ومع أنني أدرك اليوم أنها ليست على نفس القَدر من الروعة التي وجدتها عليه آنذاك، أشعر إذ أقرأها بشعور العودة إلى الديار.

ـ وهل في ذلك سبب يدعو للخجل، أيها العجوز الأحمق؟

ـ الممرضات هنا يُطلقنَ عليَّ لقب بروفسور؛ لأني بائع كتب.

توقف بغتة، ثم تابع قائلًا:

ـ أو بتعبير أدقّ: كنتُ يومًا بائع كتب..، أيَرونني رجلًا مثقفًا؟ أنا مثقف؟ هل تتخيل ذلك يا رجل؟

---

(1) كارل ماي:Karl May روائي ألماني، مات سنة 1912، يُعد أغزر كُتاب المغامرات الألمان إنتاجًا، واشتُهر بكتابة أدب الرحلات والمغامرات، وعدّته منظمة اليونسكو من الكُتاب الألمان الأكثر ترجمةً إلى اللغات العالمية (المترجم).

ـ لكنك واسع الثقافة بالفعل.

ـ ومع ذلك، فالقراءة النهمة لا تصنع منكَ إنسانًا مثقفًا، كما أن الإفراط في الأكل لا يصنع منك ذوّاقة، أقرأ بدافع أناني محض، وهو تحصيل متعتي الشخصية، أقرأ من منطلق شغفي بالقصص المرسومة بدقة وعناية، ولا غرض لي في اكتساب معرفة بالعالَم والحياة.

ـ لكنك لا تستطيع إغلاق منافذ عقلك عن استقبال الجديد وأنتَ تقرأ، حتى وإنْ كان عقل رجل طاعن في السنّ مثلك.

نَقَر جوستاف بسبابته على غلاف رواية جزيرة الكنز وقال:

ـ لقد منحني والدَيَّ الكتب وقتذاك، كما تعلم أنهما كانا يبيعان الكتب أيضًا.

ـ بالطبع.. اسم آل جروبر نارٌ على عَلَم في عالم الكتب.

ـ بالضبط، في بعض العائلات يمكنك إظهار عاطفة الحب من خلال تقديم الطعام الشهي، وعن طريق إضافة طبقة سميكة من الزبدة على شريحة الخبز، أو وضع طبقة ثانية من النقانق فوق شريحة الخبز، وثمة عائلات أخرى يُطِيلُ أفرادها معانقة بعضهم فترة طويلة لمواجهة برودة العالَم وقسوته بشيء من دفء العناق؛ أما عائلتي، فاتخذت من إهداء الكتب وسيلةً للإعراب عن مشاعر الحب، وليس بالضرورة أن يكون الكتاب مناسبًا. في السنوات الأولى من التحاقي بالمدرسة واجهتُ

صعوبة جمّة في فهم الجُمل الطويلة، فكنت أنطق كل حرف على حدة بتعتعةٍ، ثم أنطقها كلها دفعة واحدة نطقًا أخرق خلوًا من المعنى».

عندها ضحك جوستاف حتى دمعت عيناه، وسَعَل مجددًا، ثم استأنف كلامه:

ـ حينها أعطاني أبي رواية: (بودينبروك) لِتوماس مان، وهي رواية هائلة الحجم مؤلّفة من مئات الصفحات المكونة من جُمل طويلة عذبة وعبارات مسبوكة سَبْكَ سلاسل ذهبية نفيسة، لكنها كانت مسهبة الطول إلى درجة أفزعتني. بعدها بسنة أهداني أبي رواية تولستوي (الحرب والسلم)، ولما أتممت العاشرة ولم يكن أمامي مزيد من الزمن لأضيّعه، أهدتني أمي رواية: (البحث عن الزمن الضائع) لمارسيل بروست. كان من رأي أبي أن لا كتب للأطفال وأخرى للبالغين، فالكتاب إما جيد، وإما رديء، وهكذا أهداني أبي وأمي أفضل الكتب لديهم، مثلما يُهدي الآخرون أولادَهم أنْفَسَ الجواهر والقلائد الماسية..، عساك تراني ألقيتُ عليك محاضرة مرة أخرى.

قالها جوستاف بعد أن انفرجت شفتاه على ضحكة خفيفة، فأجاب كارل:

ـ هذا عهدي بكَ طوال حياتي، ولا أريد أن أراك الآن إنسانًا آخر.

ـ آه يا كاذب!

ثم لكَمَ كارل صديقه أعلى كتفه، كانت لكمة خفيفة كخفّة النسيم، ثم تابع:

ـ ولكني مستمتع وأنت تواصل كذبك.

ـ جوستاف: أتعرف أنني تذكُّرتكَ بعد فراغي من قراءة آخر كتاب وقع تحت يدي.

ـ من المؤكد أنه كتاب عن زير نساء طاعن في السنّ يطارد كل تنوّرة متبخترة في الطَّريق.

أشرقت عينا كارل الحسيرتيْن بوميض وقال:

ـ بل عن بائع كتب مُسِن سافر إلى كل البقاع التي قرأ عنها.

اعتدل جوستاف في جِلسته حتى انتصب ظهره قليلًا، وهو ما كلّفه بعض المشقة، ثم أشار إلى جسده الهزيل طريح فراش المرض قائلًا:

ـ وهل تظن أن في استطاعة جسدي قطع أسفار طويلة إلى أي مكان؟ يا رجل..، إن مجرد سَيْرِي إلى دورة المياه بمثابة سَفَر طويل.

افترَّ ثغر كارل عن ابتسامة دافئة متفهّمة وقال:

ـ أنت بائع كتب بارع بالفطرة، وستظل هكذا حتى الرمق

الأخير من حياتك، في كل مرة تراني فيها لا تسألني عن أحوالي أبدًا، بل تنصحني بقراءة الكتب، لقد تعلّمتُ منك الشغف بالقراءة.

بعدها أعاد كارل رواية جزيرة الكنز إلى جوستاف ثانية وقال:

ـ ربما تكون رواية ستيفنيسون حافزًا على حثِّ المتدرب الجديد بالمكتبة على القراءة.

ـ نعم، أخبرتني ابنتي سابينه عنه، اسمه ليون فيما أذكر..، أليس كذلك؟

ـ بلى...، ولو كنتَ في المكتبة، لعثرتَ على الكتاب المناسب لهذا الفتى، في مثل هذه الأحوال نُدرِك قيمتكَ ونعرف كم نفتقدك.

رفع جوستاف كفَّه وكأنما يقول: «أخجلتم تواضعنا»، وبعدها أجاب:

ـ ربما تستطيع سابينه في نهاية المطاف إكمال دوري على نحو أبرع مما كنت أستطيع.

عندما سمِع كارل كولهوف هذه الإجابة تململ في كرسيه قليلًا، واضطر إلى تغيير وضعية جلوسه للشعور بالراحة، فعل ذلك مرات عدة، لكنه لم يسترح. ابتسم جوستاف وقال:

ـ أعرف أنَّ هذا الموضوع ثقيل على قلبك..، أيها الأحمق

أعلم أنك لن تصدّقني لو أخبرتكَ أنَّ سابينه تحبّك، وإنْ كانت طريقتها في الإعراب عن مشاعرها قاسية وسخيفة.

ـ وأنا أيضًا أحبها، في نهاية المطاف هي ابنتك، من لحمك ودمك.

ـ هي ابنتي..، وهي رئيستك في العمل في الوقت نفسه.

ـ بالضبط، ينبغي أن أحبّها وفق شروط التعاقد.

ـ ما أودّ قوله: يجب عليك أن تتفهم رغبتها في تجديد وتطوير الأشياء إلى الأفضل، وهذه مزية جيل الشباب.

سوَّى جوستاف فراشه، ثم أردف:

ـ ومن ثم عليها أن ترسِّخ قدميْها في المكتبة أمام الموظفين، وألا تبدو مهزوزة الشخصية أمام أحد.

مال بجسمه إلى الأمام قليلًا، مُخفضًا صوته كأنه سيخبر صديقَه كارل بدعابة:

ـ لقد وَعَدَتْني سابينه بتكليفك بإيصال مزيد من الكتب إلى الزبائن ما دمتَ هذه رغبتكَ.

ـ أشكرك.

قالها كارل، متحاشيًا النَّظر إلى عينَي صديقه، إذ لم يرد أن يُظهِر لجوستاف مدى تعلّق قلبه بتسليم الكتب إلى الزبائن، مع

أن تعلقّه بهذه المهنة كان واضحًا وضوح الشمس في أعين الجميع. تابع جوستاف:

ـ طالما نهشت نار الغيرة قلب سابينه بسببك؛ لأنك بائع كتب موهوب بالفطرة، وهي ليست كذلك.

لكن جوستاف لم يُصِبْ الحقيقة كاملة، حيث آمنَتْ الابنة أن أساليب الإدارة الحديثة في بيع الكتب تتفوّق على أساليب البيع القديمة، وطالما راودها شعور بأن كارل كولهوف يستأثر بمكانة خاصة في قلب أبيها. صحيح أنها كانت تضطرم حقدًا على كارل؛ بسبب نبوغه وبراعته في تسويق الكتب وبيعها، لكن الضغينة أكلت قلبها؛ بسبب محبة والدها العميقة لكارل. قال جوستاف:

ـ أنت موضع ثقة القُرّاء، وهذا هو مربط الفرس في أي بائع الكتب، وعندما ترشِّح كتابًا لقارئ، فإنه لا ينتظر أن يكون الكتاب عند حُسن ظنّه وحسب، بل لا يفارقه يقين أنه سيلتهم الكتاب التهامًا، وإذا لم يعجبه الكتاب فاللوم - عندئذٍ - يقع على ذوق القارئ، لا ذوقكَ أنت.

عندها قال كارل:

ـ جئتَ هنا في الحقيقة لأشدّ أزرك، وأرفع روحكَ المعنوية، وليس العكس.

ـ وبما أنني أبرع منك في ذلك، فقد نهضتُ أنا بالمهمة.

رأى كارل أنها فرصة سانحة لممارسة لُعبة قديمة، طالما لعبها الصديقان مرارًا وتكرارًا مع تغيير الموضوع في كل مرة، فقال:

ـ والآن أخبرني بأفضل خمسة كتب قادرة على إدخال البهجة إلى قلب الإنسان.

عدَّ جوستاف خمسة كتب، ثم أحصى كارل خمسة كتب أخرى. تحدّثا عن مواطن الضعف والقوة في كل كتاب، وعند كل مؤلف، ثم تطرّق بهما الحديث إلى الكلام عن الكتب المثالية لرجل يعيش في دار رعاية مسنين، وكان من العسير العثور على كتبٍ ملائمة لذلك الغرض، لكنهما وجدا شيئًا ذا قيمة. قال كارل: إنه يجدر بجوستاف العودة لاستئناف ممارسة نشاطه بالمكتبة، حتى وإنْ عَمِلَ بضع ساعات فقط كل أسبوع؛ فضحك الأخير بشدة حتى أمسك صدرَه، وقال:

ـ لا سبيل للرجوع إلى المكتبة، أنتَ تعلم.

ـ لا تقل ذلك.

ـ في هذه السن المتقدمة نحن أشبه بأجهزة مذياع عفَّ عليها الزمن، وما دمنا نعمل لا نلاحظ أننا هكذا، على أنه لا قطع غيار لنا في حقيقة الأمر.

ـ كلامك يُشبه العبارات المأثورة المحفورة على البطاقات البريدية.

ـ لا بأس، فهذه البطاقات تحقق مبيعات قياسية.

قالها جوستاف بأنفاس متهدجة، ثم تابع متهكمًا:

ـ أظنني محتاج الآن إلى بعض القيلولة، فهي نافعة لبشرتي النضرة.

لاحت آثار التألّم بوضوح على وجهه، وفي أثناء المحادثة لم يكفّ عن طرح سؤالٍ بعينه حدثته به نفسه، وإنْ لم يصرِّح به، ثم ما لبث أن أخذ نفسًا عميقًا، واختلجت نبرات صوته وقال:

ـ هل ستزورني الأسبوع المقبل؟

ـ بالطبع.

ـ هذا عهدي بكَ دائمًا يا صديقي.

ـ وسأواظب على زيارتك سنوات وسنوات، كن على يقين من ذلك.

أومأ جوستاف برأسه، ثم أشاح ببصره بعيدًا، فقال كارل مازحًا:

ـ اعتنِ بنفسك يا سيادة المدير.

ثم ربّت على ذراع جوستاف النحيلة لوداعه.

ـ وأنت أيضًا..، اعتنِ بنفسك أيها البائع الشاب.

الفصل الثالث

الأسود والأحمر

في مكتبة بوابة المدينة أُزيلَت المقالة الصحفية التي كانت مُعلقةً في صدر المكتبة، ولم يبقَ من أثرها إلا مستطيل شاحب المعالم على ورق الحائط المزخرف.

لم تُلْقي سابينه تحية الصباح على كارل، بل بادرتُه بزفرة ضيقٍ، وقالت:

ـ لم يعد ثمة إقبال على خدمة إيصال طلبات الكتب يا كارل.

ـ لكني لا أتقاضى كثيرًا من المال مقابل تسليم الكتب إلى الزبائن.

ـ لكن الخدمات المرافقة من: تجهيز، ونقل، وتغليف باهظة الثمن يا سيد كولهوف.

قالتها بعد أن رفعت حاجبيها حتى كادا يلامسان مفرق شعرها، وأضافت:

ـ يتطلب الأمر مزيدًا من الوقت لتجهيز عدد قليل جدًّا من الكتب، صرنا نطبّق اليوم نظامًا مختلفًا.

ـ لكن النَّاس جدّ سعداء بخدمتي!!

ما إنْ نطقَ كارل بهذه الجُملة حتى تراءت أمام عينيه ملامح الفرحة التي طالما رآها مرسومة على وجوه الزبائن، فأشرق وجهه ببسمة صافية؛ لكن سابينه استأنفت كلامها قائلةً:

ـ أظنُّ أن القراء سيكونون أسعد حالًا لو أخذوا جولة على الأقدام وزاروا المكتبة بأنفسهم. فالمشي رياضة، ناهيك عن متعة الاستمتاع بالهواء النقي، أم أنّ لك رأيًا آخر؟ لذلك سنعلن عن توقّف خدمات إيصال الكتب إلى المنازل..، أظننا متفقيْن على ذلك يا سيد كولهوف؟

يمكن القول: إن سابينه جروبر أبصرت نور الدنيا على يدَي كارل الذي اعتاد أن يُجلسها فوق ركبتيه أيام طفولتها ويقصُّ عليها قصصًا وحكايات، ويلعب معها أحيانًا لعبة القفز بالحبال، ويداعبها، فيجعلها تغرق في الضحك، واعتادت أن تُطلق عليه العمّ كارل. كانت سابينه واحدة من الأطفال القلائل الذين أحبّهم كارل في حياته، وبعد أن تولّت شؤون الإدارة دعته إلى مكتبها وأوضحتْ له أنَّ عليهما استخدام أسلوب المخاطبة الرسمي وعدم رفع الكُلفة بينهما؛ لأن ذلك أليق بآداب الحوار بحسب تعبيرها. بينما لم يرَ كارل ضرورة لذلك بعد سنوات العشرة الطويلة.

ـ أنتِ صاحبة الكلمة الأخيرة في المكتبة على أي حال.

قالها كارل ومضى إلى غرفة مكتبه لتجهيز طلبية الكتب الجديدة، بينما شيَّعه موظّفو المكتبة بنظرات المؤازرة والتعاطف، وكانوا جميعهم قد تدرّبوا على يد كارل، ومع ذلك لاذ الجميع بالصمت وكأن على رؤوسهم الطير. ألقى كارل نظرة على الطاولة، فلَمَح كتاب Fever Pitch للمؤلف الأمريكي نيك هورنبي على حاله، ولم يُمسّ، بينما كان الصبي المتدرب ليون قاعدًا على الأرض ينقر على شاشة هاتفه الجوّال.

حَزَم كارل الكتب ساكتًا، وفكَّر في أول محطة من جولة اليوم، وهو بيت السّيّد هرقل، وهو ما يعني أن عليه السير مسافةً طويلة. أخذ طريقه إلى الميدان، ولما اقترب من ساحة مونستربلاتز أبطأ الخطى قليلًا، وأجال البصر حوله؛ ليتأكّد من أن الشيطانة الصَّغيرة ذات الشعر المجعد الداكن التي تقفز هنا وهناك، ليست في أثره. لم يُرِد في هذا اليوم مصاحبة رفيق طريق يطرح عليه أسئلة في غير محلّها، أو ربما يحدث الأسوأ، فيطرح عليه الأسئلة التي يجب أن يطرحها هو على نفسه.

تداعت إلى رأسه فكرة سلوك درب مختلف هذه المرة عبر ساحة ميدان مونستربلاتس، فيشق طريقه تحت ظلال الأروقة الرخامية، وقُرب المتاجر، مرورًا بالطاولات والكراسي حيث يجلس النَّاس للطعام والشراب، فهذا هو المكان الوحيد الذي لم يكن من المرجح أن تراه فيه شاشا، لكنه نبذ الفكرة. ثم دار

بباله أن يخلع قبعته من باب التمويه والتخفّي، لكنه سرعان ما طرد الفكرة عن ذهنه أيضًا بعدما تبيّن له مدى سخافتها، وقال في نفسه: إنْ هي إلا بضع خطوات حتى أصل إلى زقاق بيتهوفن، على أن صوتًا طفوليًّا مشرقًا قد تناهى إلى سمعه، فالتفتْ ليجد شاشا واقفة جواره تقول له:

ـ عجيب! لم يسبق أن سلكتَ هذا الطَّريق قط! لم أركَ تقريبًا.

جحظت عيناه من فرط الذهول، فتوقف عن السير.

ـ ما رأيك في الثوب؟ أليس رائعًا؟"

قالتها شاشا، ثم دارت على عقبيها دورة كاملة في رشاقة، وأردفت:

ـ للأسف لا أرتدى اليوم الثوب المازج بين: الأحمر، والأصفر، والأزرق، مع أنها ألواني المفضلة.

كانت شاشا ترتدي سروال جينز أخضر زيتونيًّا، فوقه قميص مخضرٌّ كَخَضار جلد الضفدع، ومعطف واقٍ من المطر لونه أخضر فاتح، وحقيبة ظهر. بدت ملابسها قريبة الشبه من ملابس كارل، بعد أن استعارت بعض قطع الثياب من صديقتين. كان في نية كارل أن يخبرها بتعذّر إمكانية مرافقته اليوم، لكن ملابس شاشا جرَّدته من سلاحه، وشلَّت تفكيره لسانه، فبادرها متسائلًا:

ـ ألا يفضل الأطفال في سنّكِ ارتداء اللون الوردي؟

ـ لستُ طفلة...، أنا على مشارف العاشرة!

ـ آه!! معكِ حق... أعتذر منكِ.

ـ في العادة أحب الثياب المرقّطة، ولا أحب القمصان المشغولة بالمربعات أو الزوايا أو ذات الأركان.

ـ ولكن ثوبك يخلو من أي رُقَط.

رفعت شاشا حاشية سروالها قليلًا، وأظهرت زوج الجوارب المرقّطة قائلة:

ـ هذه ألواني المفضلة، هلا أريتني أي نوع من الجوارب ترتدي؟

ـ زوجا جواربي يخلوان من الترقيط.

قالها كارل رافضًا إظهار لون الجوربين.

ـ كنت متأكدة من ذلك، فأنت من الأشخاص الذين لا يحبون ارتداء جوارب مرقّطة.

ـ وكيف يبدو شكل الأشخاص الذين يحبّون ارتداء جوارب مرقطة؟

ـ على طرف النقيض منك، صدّقني أنا أعرف الكثير عن الجوارب المرقّطة..، والآن هل سنبدأ الجولة؟ عندي خُطة لجدول اليوم.

لم يحرك كارل ساكنًا، وسألها:

ـ وإلامَ تخططين اليوم؟ يجب أن أعرف. هل تريدين الركض والعربدة في بيوت الزبائن مجددًا؟

ـ لا...، لا تسِئ الظنّ بي. هذا وعد مني وكلمة شرف، لكني لن أخبركَ قبل أن تختمر الفكرة في ذهني.

ـ ولكن...!!!

ـ صدّقني، كل ما أفعله إنما أفعله إرضاءً لخاطركَ أنت..، حسنًا، ليس فقط لأجلك فقط، ولكنكَ شخصيًّا على رأس الأولويات بالطبع، في الواقع خططتُ اليوم لأمريْن عظيميْن، في مقدوري أن أخبرك مبدئيًّا بالأمر الثاني.

ـ تفضّلي..، كلي آذان صاغية.

كانت مخاوف كارل في محلّها، ومع ذلك حاول الاحتفاظ بنبرته المهذّبة في هذه اللحظة ليعرف ما تخطّط له شاشا التي شرعت تقول:

ـ بقيتُ ليلة أمس في سريري وذهني مشغول بالتفكير، وأنا كثيرًا ما أفكّر قبل الخلود إلى النوم عندما يغشى الظلامُ الدامسُ غرفةَ نومي، ولا تنيرها سوى النجوم الساطعة الملصوقة على سقفها، حينها قلتُ في نفسي: إنكَ لن تستطيع أن تُطلق عليَّ اسم شخصية روائية؛ لأنك لا تعرفني عن قرب، لذلك خطر ببالي أن أحكي لك اليوم عن نفسي باستفاضة، والأفضل أن أروي لك كل شيء عن حياتي.

مضت شاشا في خطّتها وشرعت تحكي قصة حياتها وهما يمشيان؛ فبدأت بلحظة الولادة، قالت: إن أمّها عانت آلام المخاض مدة ساعتين فقط، وقالت: إنها وُلِدت بشَعْر غزير، ومضت في حكايتها مرورًا بالتحاقها بروضة الأطفال...، تجريب لعبة قفز الفقمة...، والطائرة المعلّقة في المعطف...، وصولًا إلى المدرسة..، الالتحاق بالصف الأول A وهو صفّ التلاميذ المتفوقين، وإن لم تكن السّيّدة شيلد هي أفضل المدرسات على الإطلاق. قالت شاشا: إنها لم تكن موضع محبة التلاميذ في الفصل، بل على العكس تمامًا، ففي المسابقات الرياضية كانت آخر مَن يقع عليها الاختيار عليها للمشاركة في الألعاب، وأن أقرانها رغبوا عن ضمِّها إلى أي مجموعة عمل دراسية، ولم يكن أمامها إلا الجلوس على الأرض بمفردها أمام مكتب مدير المدرسة في أثناء فترات الراحة، بينما ينغمس بقية التلاميذ في لعبة الغُميضة أو تسلّق ألعاب الأطفال.

في أثناء كلامها لم تكفّ شاشا عن التأكيد على حبّها الجارف للقراءة مُشيرةً إلى استهزاء التلاميذ بها بوصفها دودة الكتب التي لا تتوقف عن قرض الكُتب على حد قولهم، بل إنهم تمادوا في السخرية منها والاستهزاء بهواياتها، ورسموا دودة مقززة بالقلم الملوّن على ظهر مقعدها في الفصل، لم يرسموا دودة قزّ عادية، بل رسموا دودة بشعة الهيئة من النوع الذي نراه في المراحيض. كما سخر منها الصبي سيمون الذي كان يشبه

(رون ويزلي)[1]، وكان شغله الشاغل في حياته ألعاب الفيديو جيم، وكان يرى أنَّ كل الفتيات حمقاوات، ومع جموح رأيه وفظاظة أخلاقه لم تَرَه شاشا ولدًا أحمق غبيًّا، ولم تعرف سببًا لذلك الشعور بالتعاطف معه.

بعدها توقّفا أمام بناية سكنية فاخرة، حيث يعيش السّيّد هرقل، وكان نقطة انطلاق جولة اليوم. قالت شاشا قبل أن يضغط كارل على زرّ الجرس، المجاور لليافطة التي تحمل اسم (مايك تروفِر):

- انتظر لحظة!

وما أن نطقت بهذه الكلمة حتى أخرجت من حقيبة ظهرها ألبوم صداقة، وكان ألبومًا من النوع الشائع بين الأولاد والبنات في هذه السن، غلافه مُزيّن بصور وحيد القرن وقوس قُزح، ومقفول بقفلٍ ذهبي من الجنب.

لم تَخْفَ على كارل قدرة الكتب على إنقاذ العالم، لكنه كان مَن بين فئة قليلة من البشر المؤمنين بقدرة مثل هذه الألبومات الطفولية على إنقاذ العالم أيضًا، التي وإن كانت قدرتها ضئيلة على إنقاذ حياتها أصحابها، لكنه بمنزلة طَوق النجاة الوحيد لهم. نبَّهها كارل قائلًا:

---

(1) شخصية خيالية من سلسلة هاري بوتر للمؤلفة البريطانية ج. ك. رولنج (المترجم).

- حذارِ أن تقتحمي المكان، أو أن تركضي إلى داخل الشقة، سيدعونا الرجل لتناول الشاي في المطبخ على أي حال.

- لقد قطعتُ وعدًا بالفعل؛ ولذا فمن الواجب عليّ ألا أكرر ما فعلتُه في بيت السّيّد دارسي، وإن كان ذلك نافعًا.

- أنتِ طفلة عجيبة! هل يجب أن تكون الكلمة الأخيرة لكِ دائمًا؟

- وهل أنا مُحقّة في كلامي أم تراني مخطئة؟

في تلك اللحظة فُتحت البوابة الأمامية للبناية. وأمام الشقة الكائنة في الطابق الثاني وجدا في انتظارهما رجلًا مفتول العضلات، يرتدي قميصًا أسود، يكشف عن ساعديْن مشدودين.

- تفضّل سيد كولهوف..، سأحضر الآن كأس شاي إيرل جراي.

نظر شاشا إلى كارل وهمست:

- هل يروقك مذاق هذا النوع الغريب من الشاي؟

- لا يروقني في الحقيقة، لكني سأكون وقِحًا لو رفضتُ.

- لكن عليك أن تشرب نوع الشاي الذي تُحبّه، وليس ما يُحبِّه الآخرون.

- في كرم ضيافته عزاءٌ عن مذاق الشاي يا شاشا.

مدَّ هرقل يده في البداية لمصافحة كارل، ثم مدَّ يده

لمصافحة شاشا التي جفلت بعض الشيء عندما أحكم الرجل مخالبه على كفّها الرقيق، ضغط هرقل على كفّها ضغطةً لطيفة وقال:

- اسمي مايك...، وأنتِ؟»

- اسمي شاشا.

- هل تحبّين شاي إيرل جراي أيضًا.

- لا ....، أنا لا أحبه.. أيضًا.

سار هرقل باتجاه المطبخ وسألها:

- كأس ماء؟ كوب لبن؟

أجابت شاشا وهو تجول ببصرها في أرجاء الشقة بدهشة:

- سيان ...، لا فرق، كما تشاء.

في تلك اللحظة فغرت شاشا فمها مدهوشة، إذ لم يسبق أن رأت شقة فاخرة مثل هذه الشقة من قبل. على الجدران الجصّية البيضاء عُلقت صور ذات أطرٍ فضّية حُفِرت داخلها نصوص مكتوبة بطريقة فنية باهرة، وحروف كبيرة مكتوبة بخط اليد، مزخرفة بطريقة معقدة إلى درجة استحالة فكّ رموزها، بعضها مرصوص على شكل قلب، وبعضها الآخر على شكل كنيسة. كان اللونان الأبيض والفضيّ مهيمنيْن على جدران المطبخ الذي بدا أنيقًا ونظيفًا كما لو كان قد تنظيفه للتوّ. سألت

شاشا ما إذا كان بمقدورها الذهاب إلى دورة المياه، فأشار عليها هرقل بالمكان، ولما عادت وجدت كأس ماء بارد على الطاولة في انتظارها، بينما رأت كارل ممسكًا بفنجان الشاي الساخن، أما هرقل، فلم يشرب شيئًا. قال كارل:

- سأسلِّم الكتاب أولًا قبل أن أجرع رشفة واحدة من الشاي.

ثم أخرج الكتاب من حقيبة ظهره العسكرية، ومن ثمّ فضَّ هرقل الغلاف بعناية فائقة لم تعهدها شاشا في غيره من زبائن كارل الآخرين، ثم مرّر أنامله على سطح الكتاب بلمسةٍ وقورة، وكأنما يلمس شيئًا مقدسًا، إذ ذاك فتحت شاشا ألبومها ودوّنتْ شيئًا. قال كارل:

- سيدي: هذه هي النسخة النادرة التي أردتَ الحصول عليها.

كان كارل قد استطاع تدبير نسخة نادرة من خلال تاجر كُتب نادرة، مع أنه لم يفهم سرَّ إصرار هرقل على الحصول على هذه النسخة النادرة، باهظة الثمن. رفعتْ شاشا رأسها وقرأت عنوان الكتاب: (آلام الفتى فيرتر)[1]، ومن ثم ألقت بسؤالها:

---

(1) رواية رومانسية مأساوية كتبها شاعر الألمانية الأشهر يوهان ف. جوته، ونُشرت أول مرة سنة 1774، ولها ترجمة عربية (المترجم).

ـ هل للعنوان علاقة بـ....

سرعان ما اعترض كارل حديثَها قائلًا:

ـ كلا.

ـ لكنك لا تعرف ما أردتُ قوله!

ـ بل أعرف، ثقي بي. سمعتُ هذا السؤال عددًا لا يُحصى من المرات..، إلى درجة أنني لا أستطيع أن أتذكر عدد المرات التي طُرِح عليَّ....، نحن نفهم بعضنا يا شاشا.

أعاد هرقل الرواية إلى كارل وقال:

ـ حدّثني عن الكتاب يا سيدي كولهوف.

ـ لا أريد حرق أحداث الرواية.

ـ بالعكس، أريد منك أن تقصَّ عليَّ أحداثها من الألف إلى الياء، أريد معرفة كل شيء.

هكذا كانت تمضي الأمور بينهما في كل مرة يجلب فيها كارل إلى هرقل كتابًا جديدًا. سلسلة من الألعاب البلاغية اللغوية، لعبة بهلوانية يمشي فيها كارل على حبل مشدود؛ كيلا يحرق أحداث الكتاب، فيلزم الحذر والتحفّظ وهو يسرد الأحداث، يحدوه في ذلك الأمل في أن يغيّر هرقل رأيه ليقرأ الرواية بنفسه، إلا أن الأخير كان يصرّ على معرفة أحداث الرواية حتى النهاية.

ـ إنها رواية رسائل عن محامٍ شاب اسمه «فيرتر»، وقع في غرام الجميلة لوتّه، المخطوبة لرجلٍ آخر.

قَطَّب هرقل جبينه وسأل كارل:

ـ وكيف وقع فيرتر في غرامها؟

ـ اشتعل في قلبه غرامها منذ اللحظة الأولى التي رآها تقطّع شرائح الخبز لإخوتها الصغار، مَسَّتْ طبيعتها الأمومية شغاف قلبَه، هذا ناهيك عن كونها فتاة بارعة الجمال.

أعاد هرقل كلمة كارل السابقة:

ـ طريقتها الأمومية؟ أي نوعٍ من الرجال كان بطل الرواية فيرتر؟ أقصد من ناحية خصاله الإنسانية.

ـ رجل مندفع متهوّر العاطفة، والرواية ثمرة الحركة الأدبية السائدة وقتذاك، والمُسماة بالعاصفة والاندفاع Sturm und Drang[1].

ـ وماذا عن خطيب الفتاة لوتّه؟

ـ ألبرت رجل محافظ وتقليدي.

أومأ هرقل برأسه قائلًا:

---

(1) حركة أدبية رومانتيكية ألمانية، ازدهرت في أواخر القرن الثامن عشر، أبرز ممثليها جوته وشيللر (المترجم).

- رجل ممل إذًا..، وهل نال فيرتر مراده؟

هزَّ كارل رأسه نافيًا. وانبعث أثر أحداث الرواية القوي في نفسه لمّا قرأها أول مرة، فأورثته في ذلك الوقت آلامًا نفسية عميقة لم تبرح صدره حتى اليوم.

- لا..، بكل أسف، فعندما قبَّلها هرعت الفتاة إلى غرفة جانبية بعد أن رآها أحدهم، عندها قرر فيرتر الانتحار؛ كيلا يلوث سمعة لوتّه البريئة، وفي منتصف الليلة السابقة على عيد الميلاد أطلق النار على نفسه، ومات متأثرًا بجراحه في اليوم التَّالي.

صفق هرقل بيده وقال:

- رائع، نهاية ممتازة..، وأي نوع من الأسلحة استَخدَمَ البطل؟

- تقصد بأي سلاح انتحَرَ؟

- نعم...، بالضبط.

- لا أعرف، كل ما أعرفه أنه استعار المسدس من غريمه ألبرت.

- هذا جنون.

- صحيح، ولكن إليكَ ما هو أشدّ جنونًا؛ لم تُقَم شعائر الدفن المسيحية على جثمان فيرتر؛ لأنه مات منتحرًا، وهذه هي العقوبة القصوى وقتذاك، لو صحّ التعبير.

- يا إلهي!

- أنا واثق من أن الرواية ستنال إعجابك.

هزَّ هرقل رأسه مؤكدًا كلام كارل:

- بالطبع، لا يتطرقّ إليَّ شك في ذلك، سأستمتع بقراءة الرواية طبعًا، وهي رواية مهمة في الأدب الألماني كما قلتَ آنفًا، في المرة القادمة أودُّ أن تجلب لي شيئًا لذلك الكاتب الألماني الحائز جائزة نوبل في الأدب.

نظرَ كارل إلى ساعة يده، صحيح أنها توقّفت قبل أكثر من عشرين عامًا، لكنه كان يشعر براحة نفسية وهي تطوِّق معصمه، نظر إلى ساعته، ثم قال:

- ينبغي عليَّ الانصراف الآن بكل أسف، فثمة أشخاص آخرون في انتظار استلام كتبهم بفارغ الصبر.

- بالطبع، أكيد، أشكرك شكرًا جزيلًا على تخصيص هذا الوقت من أجلي.

- بالعكس، ربما لا تدرك مبلغ استمتاعي بهذه الأحاديث الشائقة، وأقول ذلك من أعماق قلبي، من دواعي سروري أن أصادف قارئًا متحمسًا لقراءة روائع الأعمال الكلاسيكية.

خُيّل لشاشا في هذه اللحظة أن هرقل قد ابتسم ابتسامة خفيفة؛ لأنها لم تعتد رؤية الابتسامة على وجوه مثل هؤلاء الشبّان مفتولي العضلات، وقالت في نفسها: ربما كانت هذه

هيئتهم دائمًا. ولمّا وصلا إلى باب الشقة كانت شاشا تدوّن شيئًا في ألبومها، ثم همَّت بفتح فمها لتقول شيئًا لكارل، إلا أنه سبقها وحذّرها قائلًا:

ـ لا تتفوّهي بحرفٍ واحد من ملاحظاتكِ العجيبة قبل مغادرة مسكن الشاب.

التفت كارل جانبًا باحثًا بنظرِه عن الكلب الذي طالما رافقه حتى باب الشقة في زياراته السابقة، فلم يلمح أثره، بينما قالت شاشا:

ـ أعرف أنها ملاحظة عجيبة، لكني لا أستطيع تفسيرها..، كل الكتب المرصوصة هنا حمراء اللون.

قالها كارل وهو يمشي جوارها بخطواتٍ متمهلة.

ـ ماذا تقصدين؟

قالت شاشا بعد أن رفعتْ ذقنها الصَّغيرة بزهوٍّ وفخر.

ـ عندما طلبتُ الذهاب إلى دورة المياه تسللتُ إلى غرفة المعيشة، أعرف أنه لم يكن ينبغي عليّ فِعْلُ ذلك».

قال كارل:

ـ رأسكِ رأسُ ثعلب ماكر يا شاشا.

ـ رأيتُ كتبًا كثيرة مرصوصة على الرفوف، وكلها باللون الأحمر..، أعني.. ما الذي يُسمّى العمود الفقري للكتاب؟

ـ اسمه كَعْب الكتاب.

ـ نعم..، نعم..، بالضبط، كانت كعوب الكتب جميعها حمراء اللون.

ـ هذا غير مألوف، أعرف زبونة ترفض لونًا محددًا من الكتب، وتحديدًا اللون الأخضر.

ـ أضف إلى ذلك أن غرفة المعيشة بأكملها مطليّة بثلاثة ألوان فقط: الأسود، والأبيض، والأحمر، اللهم إلا الأقراص الممغنطة للأفلام، أي: الجزء الخلفي من الأغلفة التي تحفظها الأفلام، فلها ألوان مختلفة. يجب أن ألقي نظرة فاحصة المرة القادمة.

ـ والآن، هل ستخبرينني بحكاية الألبوم؟

فتحت شاشا الألبوم وفي نفسها شيء من الحَرَج، وقالت:

ـ هذا دفتر ملاحظات عن جميع الزبائن الذين نزورهم، اشتريتُه لما كنت في الصف الثاني، وفيه صفحات فارغة كثيرة، أعطيته لعددٍ من زملائي في المدرسة لكتابة شيء لي من باب تخليد الصداقة، فأعاد بعضهم الألبوم إليَّ دون أن يكتبوا حرفًا، وبعضهم الآخر أساء إليَّ، فحذفتُ كلامهم.

بعدها أوضحت شاشا:

ـ هو في الأصل ألبوم صداقة، حيث تُلصق في العادة صور الأصدقاء أعلى الصفحة؛ لكني لا أستطيع بطبيعة الحال أن

أطلب من زبائنكَ صورهم الشخصية، ولهذا السبب أحمل معي أقلامًا ملونة لرسمهم، مع أنني لستُ رسّامة ماهرة.

مرَّ كارل ببصره سريعًا على الألبوم، ولاحظ تقسيم الألبوم إلى ثلاثة أقسام: (الألوان المفضلة، والفرقة الموسيقية المفضلة، والمدرّس المفضل)، أوضحت شاشا:

ـ لا ألتزم بالتقسيم الأصلي لأبواب الألبوم، وإنما أدوّن ما أريده وفق هواي، فأسجّل عناوين الكتب المهمّة، وأدوِّن كيف يبدو شكل أصحابها وأكتب عن رائحتهم..، شيء من هذا القبيل.

ـ وكيف ستصلين إلى كل هذه المعلومات؟ هل تخططين لإجراء استجواب رسمي مع أصحابها؟

ـ ما معنى الاستجواب الرسمي؟

فكر كارل قليلًا، ثم قال:

ـ أقصد عندما تُمطرين شخصًا بالأسئلة.

ـ ولكن عندما يمطركَ شخص بالأسئلة، فهذا دليل على اهتمامه بأمرك، وهو شعور طيب، عندما أسأل شخصًا ما عن نفسه، فإن ذلك معناه أنني أبدي اهتمامًا بأحواله، ما الضير؟

قالتها شاشا وهي تعيد الألبوم إلى حقيبة ظهرها الصَّغيرة. ردَّ كارل:

ـ ولكن عليكِ كذلك السماح للطرف الآخر بطرح الأسئلة، عندها فقط ينشأ الحوار.

لم تفهم شاشا مغزى كلام كارل، فأي شخص يطرح سؤالًا يتلقّى ردًّا عن سؤاله، وبالتّالي، يتحقّق الحوار.

على حين غرة انزلق (الكلب)[1]، والتفَّ حول ساقيها، وذيله مُنتصب، وراح يمرُّ بين ساقيها مرارًا، وبدا الأمر كأنه يؤدي رقصة تدرّب عليها قبل فترة طويلة في قاعة رقص كبيرة، وللمرة الأولى تنتبه شاشا إلى أن كارل أعطى (القطّ) شيئًا ليأكله، كانت قطعة نقانق مقشّرة الجلد، وملفوفة بورق مقاوم للدهون.

ـ أعرف أنك ذكي، لكن إعطاء النقانق لقطط الشوارع ليس من الحكمة في شيء.

رمقها كارل بنظرة مدهوشة:

ـ وكيف ذلك؟ انظري إليه... كم هو سعيد.

ـ عندما تقذف إلى القط بقطع النقانق، فإنك لن تعرف إذا كان قد جاء حبًّا فيك أم حبًّا في النقانق.

ـ ولِمَ لا يكون مزيجًا من هذا وذاك؟

---

(1) المقصود هو قط الشوارع المرافق لبطل الرواية كارل، بعد أن سمَّى القط «كلبًا» كما ذُكِر آنفًا (المترجم).

ـ مَن يعرف؟ لكن ذلك الأمر يضايقني، لا أريد أن يقترب مني حيوان أليف لمجرد أنه يتضوّر جوعًا ويريد التهام أي شيء.

ـ ليس الكلب حيوانًا أليفًا، بل هو حيوان يعيش في الشارع، مجرد روح حرّة جوالة، وهو يأتي إليكِ؛ لأنه يريد ذلك، ولا تهمُّني معرفة الأسباب، ربما يكون من الأفضل لو أننا تركنا بعض الأمور محفوفةً بالغموض.

هزَّت شاشا رأسها قائلة:

ـ لكن الفضول يقتلني لأعرف.

ـ يؤثر الكلب الاحتفاظ بسرّه، دعيه يحتفظ بسرّه الصَّغير لنفسه.

انحنت شاشا وداعبت رأس المخلوق الصَّغير الذي سُرَّ لملاطفتها، وفرحت شاشا؛ لأن عاطفة الحيوان ناحيتها لم تكن بسبب النقانق، ولكن بسبب مهارتها في الملاعبة. بعدها انطلق الاثنان لإكمال رحلة اليوم. لمّا وصلا إلى بيت السّيّدة لانجشترومف[1]، وجداها في حالة مِزاجية ممتازة، ثم سرعان ما نطقت المرأة بعبارة:

---

(1) الاسم مُستعار من الشخصية الروائية ذات الجورب الطويل (بالإنكليزية Pippi Longstocking)، هي شخصية خيالية من سلسلة قصصية مكتوبة للأطفال من تأليف الكاتبة السويدية أستريد ليندجرين (المترجم).

ـ لوثة حشود الشوارع!

ثم وضعت يدها على فمها؛ لكتم ضحكتها الصاخبة، وأضافت:

ـ أراهن أنك لا تفهم المقصود اليوم يا سيد كارلهوف.

هذه المرة لم ترتدي المرأة زوجَي أحذية من لونين مختلفيْن؛ لكنها ارتدت زوجَي جوارب من لونين مختلفين. حكَّ كارل ذقنه متعجبًا، وشعر بنظرات الاستفهام من أعين شاشا، بل حتى عينَي الكلب!!

في سنوات شبابه الأولى شقَّ كارل طريقه الوعر بين صفحات **موسوعة ماير**[1]، فبدأ بالحرف الأبجدي الأول A وأكمل طريقه وصولًا إلى الحرف الأخير Z، وكان لهذه الموسوعة أبلغ الأثر في تشكيل وجدانه المعرفي وثقافته العامة حتى صار كارل نفسه اليوم موسوعة حية تمشي على قدمين. أجابها كارل:

ـ يشير هذا المصطلح إلى لون درامي مثير من ألوان الجريمة التي لا وجود لها إلا في المكسيك، حيث يسبّب الطعام المحلي المطبوخ بالتوابل الحرّيفة في هذه البلادة

---

(1) موسوعة باللغة الألمانية صدرت منها طبعات عدة بعناوين متنوعة في الفترة من سنة 1839 إلى 1984، ثم دُمِجت مع موسوعة بروكهاوس (المترجم).

اضطرابات في الجهاز الهضمي، وإذا تعذَّر إفراغ الأمعاء بطريقة طبيعية منتظمة يغلي الدمّ في عروق النَّاس، ويستفزّهم الغضب دون إرادة منهم، فيهرعون في الشوارع راكضين مع غيرهم لإفراغ غضبهم فوق رؤوس باعة الخضروات، وعلى الأخص باعة الفول، وفي أغلب الأحوال يكون لهذا النشاط البدني الجماعي المحموم أثره الإيجابي المرجوّ في تحسّن حالة الجهاز الهضمي، ولهذا السبب تُعد ظاهرة لوثة عصابات الشوارع جزءًا لا يتجزأ من الثقافة المكسيكية، وهي تُعدُّ تقليدًا شعبيًّا يظهر أثره في العديد من الأغاني، ويأتي ذِكره في الكتب والروايات.

ولمّا فرغ كارل من شرحه المستفيض انحنت السّيّدة لانجتشرومف انحناءة تقدير واحترام، وقالت:

ـ رائع..، لقد أضفيتَ على المصطلح لمسة مفعمة بالحيوية.

قالت شاشا:

مكتبة
t.me/soramnqraa

ـ السّيّدة لانجيـ...

نطقت شاشا نصف الكلمة، لكنها أغلقت فمها في اللحظة المناسبة، فأجابتها لانجتشرومف:

ـ اسمي دوروثيا هيلسهايم، لكن تستطيعين أن تناديني «**ثيا**" كما يفعل الجميع.

فتحَتْ شاشا ألبومها وأمسكت قلمها الرصاص المزوّد بممحاةٍ من طراز HB، وسألتها:

ـ لماذا تلعبين أنتِ وكارل هذه اللعبة، وتبتكران تعريفات جديدة من خلال اختلاق أخطاء نحوية.

ـ ماذا تقصدين؟

ـ لا ينتبه معظم النَّاس لذلك، ولا حتى أنا...ولكن سؤالي: لِمَاذا؟

ـ هل تعلمين أنكِ فتاة حادة الذكاء؟

علتْ وجه شاشا ابتسامة زهو، وقالت:

ـ أعلم ذلك بالتأكيد، لكن في بعض الأحيان يبدو سلوكي مفرط الحماقة.

ـ هذا لو لاحظ الآخرون تلك الحماقة المزعومة.

أجابت شاشا:

ـ أنتِ تحاولين اختبار ذكائي..، أليس كذلك؟

مالت السّيّدة لانجشتروموف إلى الأمام قليلًا لتهمس في أذن شاشا، لكنها رفعت صوتها حتى يستطيع كارل سماع كل كلمة:

ـ بل أنتِ أذكى مما ظننتُ...، عملتُ طَوال حياتي في التدريس في المرحلة الابتدائية، ومع أنني تركت العمل في

المدرسة، لكن روحي ما تزال هناك، لا أستطيع خلع هذا الثوب أبدًا.

بعدها جلست المرأة العجوز، فسألتها شاشا:

ـ بمعنى أنَّ الوظيفة تغلغلت في أعماق روحكِ.

تجهّم وجه السّيّدة لانجشترومف، وقالت:

ـ تعبيركِ قاسٍ بعض الشيء، الأمر أشبه بخاتمٍ ثمين يتعذَّر خلعه من الإصبع، ربما لا ننتبه إلى وجوده في أغلب الأحيان، لكن المحيطين بنا يرونه بوضوح.

وقعت عينا شاشا دون قصد على أصابع العجوز المتغضنّة، والمزيّنة بعدد كبير من الخواتم، وقالت شاشا في نفسها: لا ريب أن المرأة اشتغلت بالتدريس سنوات طويلة، ولهذا أُجْهِدَتْ أصابعها على هذا النحو. سلَّم كارل الكتاب المطلوب، بينما انغمست شاشا في تدوين ملاحظاتها في الألبوم، ولَزِمتْ الصمت حتى انتهت الزيارة وغادر الاثنان المكان، بعدها همست بكلمة في أذن كارل كما لو أن المرأة العجوز قادرة على سماع صوتها من وراء الأبواب المغلقة.

ـ لقد كذبتُ لتوّي، لستُ فتاة ذكية على الإطلاق.

ـ ماذا؟ من المؤكد أنكِ ذكية، لكن الجميع يرتكب الأخطاء، وهذا لا يجعلكِ أقل ذكاءً من غيرك، واقع الأمر أن

ارتكاب الأخطاء هي السبيل الوحيدة لتعلّم الإنسان من أخطائه، ومن ثمّ يتحلّى بالذكاء بعدها.

ـ لكن أخطائي أجلُّ من الحصر، وربما لهذا السبب سأرسبُ في امتحانات هذه السنة.

ـ عليكِ إذًا تحصيل دروسكِ بجدٍّ واجتهاد، هذا كل ما تحتاجين إليه.

ـ أعلم بالطبع، لكني أشعر أنَّ كثيرًا من الموضوعات عصيّة على الفهم، ولا يكاد يستوعبها عقلي.

نقرتْ بقبضتها على جبهتها في أسى حتى أمسك كارل يدَها بلطف وقال:

ـ هناك حِيلة في غاية البساطة لتجاوز المشكلة.

ـ أخبرني بها من فضلك.

ـ تحتاجين إلى قراءة المزيد من الكتب، فالقراءة تجعل الدماغ مرِنة وقادرة على استيعاب كل شيء.

فكَّرتْ شاشا في كلمات كارل، ولكن أيًّا ما كان المنظور الذي رأت من خلاله كلامه، فقد رأته كلامًا خلوًا من المعنى، هذه هي حقيقة الأمر، فكثيرٌ من كلام كارل وزبائنه خلو من أي معنى أو منطق، وهو ما كان يروقها، ويدفعها للتفكير، أما كل البرامج المتلفزة التي تُقَدَّم للأطفال في سنّها، فرأتها برامج موجّهة، وذات معنى وغرض، وهو ما كان يُشعرها بالضجر

الشديد. طالما راودها شعور غامض أنَّ العالم أبسَطَ من أن يكون مسكونًا بهذه الأسرار المعقدة، وأن العالَم لا يستحق منا أن نكبر وننضج لفكِّ غوامضه واجتلاء أسراره.

انعطف الاثنان إلى الزقاق التَّالي، فلاحَتْ الكاتدرائية على مرمى البصر، وبدت من مكانهما رائعة بهيّة بنافذتها الوردية الواسعة المستديرة متعددة الألوان التي أظهرت صورة الرُسل الاثني عشر، ومنظر البرج ونصف البرج المرتفع إلى عنان السماء.عندها ابتعد كارل عن شاشا قليلًا، وانزوى في ركن مؤديًا علامة الصلاة خُفية؛ كيلا تراه شاشا التي لاحظت وسألته:

- لِمَ فعلتَ ذلك؟

أطلق كارل زفرة هادئة وقال:

- اعتدت أن أصلّي عندما تظهر أمامي البوابة الرئيسة للكاتدرائية.

- هل تواظب على الشعائر تقربًا إلى الله؟

- ليس من باب تأدية الشعائر وحسب؛ لأنني أترك المواظبة على الشعائر الدينية لمَن هم أقدر مني على أدائها، بل هي تحية إجلال وتقدير للكتاب المقدّس، الكتاب الذي أشعل بكلماته الحروب، وأشاع بكلماته الغفران، الكتاب الذي أفشى بين البشر المظالم الفادحة، مثلما أشاع بينهم المحبة العميقة. متى آمن الإنسان بقوة الكلمة المكتوبة (وأنا رجل مؤمن بقوة الكلمة)،

فلا يسع المرء إلا أن يرفع القبّعة تعظيمًا لأي كتاب مقدس، وأن يحني رأسه بقوّة. وهذا بالضبط ما فعلتُه بطريقةٍ مجازية بالطبع.

ثم لَمَسَ قبعته لمسة سريعة.

ـ ومع ذلك لن أخلع القبعة في هذا الطقس من باب المحافظة على الصحة.

ـ أنت غريب الأطوار.

ـ ولكن من يا ترى الأغرب؟ الرجل غريب الأطوار أم فتاة التي تصرُّ على مرافقة الرجل غريب الأطوار؟

ـ الرجل غريب الأطوار بالطبع.

ابتسم كارل. لم يكن يخفى عليه أنه غريب الأطوار، لكنه لم يشعر بذلك، فالغريب لا يشعر بغرابة أطواره إذا عاش هكذا طَوال حياته، لاسيما لو كانت غرابة أطواره تخصّه وحده.

انتبه كارل بغتة إلى تغيّر سرعة خطواته، في الماضي كان يقطع شوارع البلدة بخطوات واسعة، أما اليوم، فقصرت خطواته لتوائم سرعة خطوات الصَّغيرة شاشا. سألته الصبية وهي تثبّت أربطة حقيبة ظهرها بقوة:

ـ والآن... مَن سنقصد في المحطة التَّالية؟

ـ سنذهب إلى إيفي. أقصد إلى بيت السّيّدة كريمين.

أشارتْ شاشا إلى زقاق معتم لا يكاد يزوره ضوء الشمس، وهو من آثار القرون الوسطى، ولم تكن أرضية الممرّ معبدة بالخرسانة، بل من تربة طينية ضُغِطتْ على مرَّ القرون، قالت شاشا:

ـ هذا طريق مختصر مذهل.

ـ نعم، ولكن الطُّرق الطويلة خير من الطرق المختصرة في بعض الأحيان.

ـ وما السبب؟

ـ ستعرفين عندما تكبرين.

كان هذا هو الرد المألوف من البالغين على الأطفال عندما لا تتبادر إلى أذهانهم إجابة أفضل، ومع ذلك شعر كارل بعدم الارتياح لهذه الإجابة، وقرّر أن يبوح أمامها بالحقيقة:

ـ الحقيقة أنّ هذا الزقاق المعتم يقذف الرعب في قلبي المُسنّ الأحمق، نعم هذه الحقيقة، لا أعرف لماذا، لكني أهابُ الدخول فيه مثلما يهاب الحصان القفز فوق خندق.

سرعان ما توقّفت شاشا، وأخرجت الألبوم؛ كي تُدوّن فيها شيئًا بقلم لامع مزيّن بشرائط بلاستيكية ملوّنة معلقّة في نهاية القلم، وكانت تستعمله عندما تُدوِّن شيئًا يخصُّ كارل فقط. قال كارل:

ـ هل كتبتِ: إنني حصان؟

ـ لا.

ـ حسنًا لا بأس.

ـ كتبتُ: إنك أجبن من نعامة.

علت شفتيه ابتسامة عذبة؛ لأنه لم يُطلق عليه أحد هذا الوصف منذ أيام المدرسة، ثم عرجت به الذكريات إلى سنوات الصبا، فتذكّر صورته وهو يقف في صالة الألعاب الرياضية أمام (عصا الزانة)، ونفسُه وجِلة من القفز، كان في اعتقاده أن الأطفال يدفعون بالمرء ليدرك سنوات عُمره وشيخوخته، لكنهم ربما يعيدون إليه ذكرى أيام الشباب والفتوة. راحت شاشا تتقافز حول كارل والكلب، ثم قالت:

ـ بالمناسبة: عرفتُ من كانت إيفي بريست.

أجاب كارل:

ـ لعلك تقصدين: مَن تكون إيفي بريست؟

ـ لا، بل أقصد مَن كانت إيفي بريست؛ لأنها عاشت في زمن قديم، وهي شخصية روائية عاشت وماتت بين دفتي كتاب.

ـ إذا تحوّلتِ إلى شخصية روائية، فستبقين على قيد الحياة إلى الأبد، بطلة الرواية لا تموت ما بقي ثمة قارئ يقرأ الرواية.

ـ أريد إذًا أن أكون بطلة روائية داخل كتاب.

ـ عليكِ إذًا أن تكتبي الكتاب بنفسك.

ركضت شاشا بمرح وقالت:

ـ رائع، وما المانع؟ سأصبح كاتبة.

ركضت شاشا بسرعة وغابت عن الأنظار، فلم يرها كارل إلا أمام منزل إيفي. عندما وصل رأي شاشا جالسةً على الدرج الأمامي، تلهث قليلًا، فبادرت كارل بقولها:

ـ استغرقتَ وقتًا طويلًا للوصول إلى هنا.

ـ لكني استمتعت بالطَّريق. هل قرعتِ الجرس؟

ـ لا، انتظرتُ وصولك.

نهضت شاشا وضغطت زرّ الجرس، ثم همست في أذن كارل:

ـ أعددتُ لك مفاجأة رائعة.

في هذه اللحظة رَبَط عقلُ كارل بين ركضِ شاشا والمفاجأة التي جهّزتها، وهو ما أثار في نفسه القلق، وقبل أن يسألها عن طبيعة المفاجأة فتحت إيفي باب المنزل وقالت:

ـ مرحبًا سيد كولهوف، مرحبًا شاشا...، كنت مشغولة بتعليق الغسيل في القبو، من حُسن حظكما أني سمعت قرع الجرس.

قال كارل:

ـ لم يشغلني شيء اليوم مقدار ما شغلني تسليم كتابكِ.

لم يقل كارل ذلك على سبيل الشكوى، وإنما قصد إثارة فضولها بعض الشيء. لم يبدر من شاشا ما ينم عن رغبتها في تسليم الكتاب، فبادرَ بتسليمه وهو يهزّ كتفيه. وفي حوالي ذلك حشدت شاشا تركيزها على الخطوة التَّالية، ورأت فيها لحظة ممتعة زاهية الألوان. رأت أنه من غير اللائق في هذه اللحظة أن تثب في الهواء كعادتها حين تفرح، فاكتفت بالوقوف على أطراف أصابعها.

قالت إيفي بوجنتين متوردتين من فرط سعادة وهي تُقبِّل الكتاب:

- يبدو أنها رواية دسمة.

ابتسم كارل:

- كلما حصل الإنسان على كتاب جديد ينبغي له تخصيص الوقت الكافي لقراءته في هدوء.

- لا بأس، لكنني سأكون مُمتنةً لو جلبتَ لي حِزمة وقت كافٍ في المرة التَّالية.

فضَّت إيفي غلاف الكتاب على الفور. كانت رواية (سنوات التجوال)، وهي جزء جديد من سلسلة (ظل الوردة)، في هذه اللحظة فكرت شاشا أنَّ هذا الجزء ربما يكون أشدَّ كآبة من الأجزاء السابقة، وبدا لها أن الناشر أنه أراد أن يُكثِّف أكبر قدرٍ من البؤس بين دفتي الرواية، وأن يطبع على الأوراق عصارة الدموع.

كان قلب الصَّغيرة شاشا يخفق بين ضلوعها وهي تدنو خطوات إلى الأمام وتقول:

ـ لم أجلب لكِ حزمة من الوقت اللازم للقراءة كما كنتِ تودّين، لكني جلبتِ هذه لأجلك.

بشيء من الاضطراب أنزلت شاشا حقيبة ظهرها، وأخرجتْ قطعة من الورقة المطوية، وقد رُبِط حولها شريط أحمر وآخر ذهبي.. وقالت:

ـ هذا من أجلك يا سيدة كريمين.

ـ ما هذا؟

ـ عليكِ اكتشاف ذلك بنفسكِ، لن أفسد المفاجأة.

انتاب كارل شيء من القلق، فأخذ نفسًا عميقًا استعدادًا للمفاجأة، لاسيما مع صعوبة التكهّن بأفعال شاشا، ومع ذلك لم يرَ ضيرًا في المسألة برمتها، صحيح أن رأسها الصَّغير يموج بأفكار جامحة كثيرة، لكنه لم يرَ حرجًا في أفعالها.

اختلجت نبرة صوت إيفي وهي تقول:

ـ إنها صورة ظل الوردة.

ـ نعم، صورة شيء يكبر ويزدهر في بيتكِ يا سيدة كريمين..، لا أعرف إنْ كنت قد نجحتُ في رسمه رسمًا واضحًا أم لا؛ لأنني أحصل على درجات ضعيفة في مادة الرسم

عادةً، مع أنَّي أستحق أكثر من ذلك، لكن مدرِّسة المادة، السّيّدة داميان شديدة الصرامة.

أشاحت إيفي بوجهها لإخفاء دموعها؛ لأنها اعتادت كتم مشاعرها على مدار السنوات الأخيرة إلى حد صار إخفاء المشاعر طَبْعًا أصيلًا. على أنها سرعان ما جففتْ دموعها، ثم قالت:

ـ والآن، هيا نبحث عن مكان ملائم لتعليق صورتكِ.

كان المنزل يفيض بروح من البهجة التي يندر وجودها في منزل آخر، حيث ملأت أصص الزرع كل ركن من أركانه، وغطَّتْ صور الأزهار اليانعة كل جدار من جدرانه، وبدا المنزل بأكمله كأنما هو بستان مُزهر. وكان من الواضح أن المنزل مُجهَّز ليسكنه فردان اثنان فقط، ومع ذلك بدا أنَّ فردًا واحدًا فقط هو الذي ترك بصمته في كل مكان، وأن الثاني لا أثر له، فعلى منضدة غرفة المعيشة استقرَّ كتاب واحد فقط، وفي حوض الغسيل فنجان قهوة واحد فقط، وعلى المشجب سترة واحدة. ومع وجود أماكن مثالية كثيرة في البيت لتعليق الصورة التي رسمتها شاشا، علّقتها إيفي على باب المطبخ من الداخل، بحيث لا تُرَى الصورة إلا عندما يكون الباب مغلقًا.

شكرت إيفي شاشا من قلبها، وأعطتها قالب شوكولاته بيضاء، ولم تنسَ أن تعطي كارل قالبًا آخر، مع أنه لم يكن يحب مذاق الشوكولاته البيضاء. ولما غادرا المنزل وصارا أمام

باب البيت، انشغلت شاشا بتدوين كثير من الملاحظات في ألبومها. عندها مال كارل عليها وقال:

ـ هل تدوّنين الآن خطّتكِ لاقتحام شقق زبائني ومنازلهم؟

ـ هذا ضروري لإتمام مشروعي.

وهذا بالضبط ما فعلته شاشا على مدار الأيام التّالية. بدأت تنفيذ خطتها بالذهاب إلى السّيّدة لانجشترومف، حيث طلبت منها أن تصحّح لها الأخطاء اللغوية في القصة التي كتبتها لمجلة الحائط المدرسية (بعدما أدرجتْ عمدًا عددًا كبيرًا من الأخطاء خفيفة الظل)، ولما ذهبت إلى القارئ أخبرته أن نظارتها مكسورة، وأنها تحتاج منه إلى أن يتلو على مسامعها بصوتٍ مرتفع الفصل الأخير من رواية جيم كوبف ولوكاس سائق الجرارات[1]، واختارت هذه الرواية تحديدًا؛ لأن محورها يدور عن التدخين، ولأن من يتلو عليهنَّ الرواية عاملات وظيفتهنَّ لف أوراق السيجار. وعندما ذهبت إلى كاتدرائية الراهبة أماريليس طلبت أن تعترف أمامها (بعد أن اختلقت قصة تقشعرّ لها الأبدان عن سرقة لعبوة سكاكر Werther's Original من أحد المتاجر، وكانت تحاول كتم ضحكها بصعوبة بالغة).

---

(1) رواية مغامرات ألمانية لليافعين حققت ذيوعًا كبيرًا وقت صدورها، وهي من تأليف الروائي الألماني ميشائيل إنده، مؤلف الرواية الشهيرة «قصة بلا نهاية» (المترجم).

أما الدكتور فاوستوس، فقد تطلّب الأمر ثلاث محاولات للدخول إلى بيته، إذ لم تنطلي عليه حيلتها، ورفضَ كل ما جلبته إليه شاشا من قطع أثرية تاريخية مزعومة، ورآها مجرد قطع خردة بلا قيمة، وحديثة الصنع، صحيح أنَّ ساعة يد أبيها المكسورة عتيقة، وكذلك قِدر الطبخ الذي يعود للجدّة إنجريد، وعلبة الكعك المعدنية التي حال لونها وصار أبيض باهتًا، إلا أن د. فاوستوس لم يقتنع بكل ذلك، وطلب منها في النهاية أن تدخل إلى البيت ليُريها شيئًا أثريًا قديمًا بحق، لكن خاب أمل شاشا لمّا عرض عليها بعض العملات المعدنية الرومانية المملّة. وبهذا تكون شاشا قد خطتْ خطوتها الأولى في طريق إتمام مشروعها الكبير.

❊ ❊ ❊

بدا ذلك المقعد القديم المصنوع من حديد الزهر المُزوّد بشرائح خشبية كما لو أنه صُمِّمَ خصيصًا للجلوس عليه؛ بغرض الانغماس في محادثات شائقة؛ ذلك أن كثيرًا من النَّاس جلسوا عليه وتجاذبوا أطراف الكلام، وأنصتوا إلى بعضهم، وحاولوا إبداء التعاطف مع أحوال بعضهم. أما المقعد المقصود، فكان في مقابر المدينة، وتحديدًا في الجزء القديم الذي يضمُّ أضرحةً ومقابر واسعة تنتمي إلى عصور غابرة، بعضها يشبه الكنائس الصَّغيرة، وبعضها الآخر يشبه المعابد الإغريقية، وبعضها بدا كأنه يحبس الظلام الدامس خلف قبضان منيعة. طوى الموتُ

الراقدين تحت التراب منذ أمد بعيد، بينما ظلّلتْ أشجار البلوط الباسقة، وشجيرات التوت الأسود المنتشرة في كل مكان، وحتى الزهور البرية التي بذرت بذورها الرياح، ظلَّلتْ قبورَهم برأفة وشفقة.

وقع اختيار شاشا على هذا المقعد تحديدًا لبدء الكلام، وأشارت على كارل بالمجيء إلى هذا المكان. جلست على المقعد، وقالت بنبرة مفرطة الجدية:

ـ علينا أن نتحدّث.

امتدت أصابعها إلى الألبوم، وفتحت الغلاف بحركة ثقيلة كأن صفحاته مصنوعة من ورق سميك، وأضافت:

ـ كل شيء مُدوَّن هنا.

عقد كارل يديه على المقبض الخشبي لمِظَلته.

ـ أتقصدين الملاحظات التي كتبتِها عند زبائني؟

أومأت شاشا برأسها إيماءة بطيئة جادة.

ـ إي نعم، وخرجتُ بأفكار عظيمة..، أفكار لا تُبارى.

أخذت شاشا نفسًا عميقًا؛ لأن ما تودُّ قوله الآن يجب أن يُعلن بصوت عالٍ:

ـ عليكَ أن تجلب لزبائنكِ كتبًا من نوع آخر.

عبس كارل وزَوَى ما بين عينيه، ثم ضاعفتْ تجاعيد وجهه من نظرته العابسة، فأجابها قائلًا:

ـ أنا أجلب لهم الكتب التي يطلبونها.

ـ لكن زبائنكَ لا يطلبون الكتب التي يحتاجون إليها حقًّا.

ـ ألا يفترض أن يعرف كل قارئ ما يريده؟

ضجّت ساشا بالضحك وقالت:

ـ وأنا بالمثل أرغب في تناول الآيس كريم كل يوم، فهل يفترض أن يكون الآيس كريم نافعًا؟

ـ ليست الكتب كالمثلجات، فهي لا تؤذي المعدة.

ـ أنتَ لا تفهم معنى كلامي.

قالتها شاشا وأرادت أن تلمس الأرض بقدميها، لكنها كانت أقصر من أن تطأ قدماها الأرض وهي جالسة. سألها كارل:

ـ هل أجلب للقُراء كتبًا عن مداواة آلام المعدة؟ الكتب أشدُّ خطورة من المثلجات، فالكُتب قادرة على إفساد العقول، بل الأسوأ من ذلك أنها قد تُدمي القلوب.

زاغ بصرُ شاشا، وحارت كيف تُحسِنُ عرض وجهة نظرها لتبيِّن غرض كلامها لِكارل، وسألت نفسها: كيف لم يفطن الرجل إلى مغزى كلامها؟ لا ريب أنه على درجة عالية من

الذكاء في هذه السنّ المتقدمة. كيف لم يفهم؟ أشارت بإصبعها إلى الألبوم، وقالت:

- كل شيء مكتوب هنا، صحيح أنَّ عملاؤك يطلبون عناوين محددة، لكنها أبعد ما تكون عن مرادهم الحقيقي.

- ما تقولينه عبث!

- عليك أن تتدقق النَّظر قليلًا عزيزي ساعي بريد الكتب. ألا ترى كيف تتهلّل وجوه الزبائن عندما يرونك، وليس عندما يرَون الكتب؟ أنتَ عندهم أهمُّ من الكتب. ربما يطوي النَّاس في أعماقهم شعورًا بأنهم لا يقرأون الكتب التي يريدونها حقًّا. وإلا، فهل تظن أن إيفي محتاجة إلى روايات كئيبة تزيد حياتها حزنًا وشقاءً؟

- تلك حياتها، وتلك اختياراتها من هي الكتب التي ترضيها!

- ولكن ألا توجد كُتب تشيع السعادة في قلوب النَّاس؟ مثل الكتاب المقدس، مع لمسة من التشويق؟

أدار كارل المظلة قليلًا كما لو كان يدير قطعة طبشور فوق الأرض:

- لكن الكتاب المقدّس شائق جدًّا.

- صديقي العزيز..، أنتَ تفهم ما أقصد..، أقصد كتابًا يقع في هواه أي قارئ.

أزاح كارل قبعته إلى الأعلى قليلًا، وبدا أن رأسه ازدادت سخونة بفعل القبعة، فقال:

ـ لا وجود لمثل هذا الكتاب، آمنتُ بهذه الفكرة منذ سنوات بعيدة، فأخذتُ أهدي كتابًا نافعًا لكل من يهمّني أمره بمناسبة أعياد الميلاد، فكنت أهديهم الكتب التي تشيع البهجة في قلبي حين أقرأها، وأردتُ مشاركة المتعة، لكني اكتشفت في النهاية أنَّ أكثر النَّاس لا يقرأون، وإن قرأوا الكتاب، فَهُم لا يكملونه، أو أنهم لا يروقهم اختياري.

رمق كارل شاشا بنظرة حزينة، إذ حزَّ في نفسه أنْ يدمِّر حُلمها البريء العذب مثل فقاعة صابون زاهية الألوان تنفجّر بغتة، ثم واصل كلامه قائلًا:

ـ لا يوجد كتاب يرضي جميع الأذواق، ولو وُجِد هذا الكتاب، فسيكون بالقطع عملًا رديئًا، فصديق الكل ليس صديقَ أحد؛ لأن كل فرد نسيج وحده، ولو وُجِد كتاب يخاطب أذواق النَّاس جميعًا، لزالت الفروق الفردية بين إنسان وآخر، ولمُحيت الخصال المميّزة لكل إنسان، وسيكون القارئ على هذه الشاكلة مجرد إمعة لا يحبّه أحد. هل تفهمين كلامي؟ يختلف الكتاب باختلاف حال القارئ، ولكل إنسان كتابه المخصوص، وما يُحبُّه قارئ من أعماق قلبه، قد لا يعيره قارئ آخر أدنى اهتمام.

ارتسمت على شفتَي شاشا ابتسامة تنمُّ عن الارتياح، وقالت:

ـ نحن متفقان في الرأي إذًا، سنجلب لكل فرد الكتابَ الذي يحتاج إليه.

ثم أشارت إلى ورقة في ألبومها، رسمتْ في المكان المخصص للصورة الشخصية امرأة دامعة العينين، يفترض أن السّيّدة إيفي، وقالت:

ـ وبالتّالي، علينا أن نجلب لإيفي كتبًا تشعرها بالسعادة، ومن المؤكد أنها ستُنهي قراءتها على خلاف الكُتب الحزينة التي لا تُنهيها حتى الصفحة الأخيرة.

ـ ومن أين عرفتِ أنها لا تنهي قراءة الروايات الحزينة حتى الورقة الأخيرة؟

ـ لأنها بعد فضِّ الغلاف تسارع إلى تصفّح الرواية حتى المنتصف، ولا تصل إلى الصفحة الأخيرة أبدًا، مثلما يفعل المرء في العادة، لقد راقبتُها جيدًا، وتفحّصتُ رفوف الكتب، وفتحت الروايات، ودققت النَّظر إليها، ربما لا تعرف أنتَ هذه المعلومة، لكن الكتاب يُفتح في موضعٍ آخر صفحة توقّف عندها القارئ.

ـ أحقًّا؟ يا لها من معلومة جديدة!!

ـ نعم، تأكّدتُ من ذلك، إنها أبعد ما تكون في قراءتها عن الوصول إلى نهاية الرواية، إنها تترك الخمسين صفحة الأخيرة أو

نحو ذلك غير مقروءة، وقد تبيّنتُ أن بعض الصفحات ما تزال مطويّة معًا، كما أصدرتْ صريرًا طفيفًا لمّا فتحتُها.

واصلت شاشا تقليب صفحات الألبوم، ووضعت سبابتها عند الصفحة التّالية، وقالت:

ـ أما السّيّدة لانجشترومف، فالخوف يأكل روحها، وجدير بنا أن نجلب لها كُتبًا تحثّها على الشجاعة، و.....

اعترَض حديثَها كارل:

ـ لا.

ـ ولِمَ لا؟

هبَّ كارل من مقعده واقفًا:

ـ لا، قولًا واحدًا!

ـ وما السبب؟

ـ لا أرغب في لعب دور الوصاية على ذوق أحد، فكل إنسان حرّ في اختيار ما يريده من كتب، وهذه الحرية هي أروع ما في القراءة برمتها، ألا يكفي أن الحرية تُملي على الإنسان كل شيء؟ يَحسُن بكل إنسان اختيار ما يريد قراءته.

سرعان ما وقفت شاشا هي الأخرى بعد أن أثار أعصابَها كلامُ كارل، ومضت تقول:

ـ لكني فكرت بعناية، من الآن فصاعدًا يجب عليك أن تجلب لهم الكتب المناسبة التي يحتاجون إليها.

هزَّ كارل رأسه بعناد قائلًا:

ـ لا..، لن أفعل ذلك..، على جُثتي!"

ـ أوك..Ok.

الفصل الرابع

آمال عُظمَى

لم تكن لدى كارل أدنى فكرة عما تحمله له الأيام المقبلة. كان الأمر أشبه ما يكون بعاصفة رعدية تتشكّل فوق بحر بعيد رويدًا رويدًا، لكنها آتية لتضرب رأسكَ لا محالة في حوالي أيام قليلة. وربما كان مردُّ ذلك إلى جهل كارل برطانة شباب اليوم الغريبة، مع أنه مُلمّ إلمامًا قويًّا باللغات الأجنبية كـ: الإنكليزية، والفرنسية، واللاتينية، وشيء من اليونانية القديمة، ولهذا لم يفطن إلى المعاني المختلفة التي تنطوي عليها كلمة (أوك.Ok.) التي نطقتها شاشا لتوّها.

فَهِمَ كارل الكلمة آنفة الذكر على أنها موافقةٌ ضمنية على رأيه، وأنها قَبول لفكرة أن لكل إنسان الحقّ في اختيار ما يشاء من الكتب، أما عند شاشا، فكانت المفردة تعني: «لا بأس، لكَ الحق في رؤية المسألة من منظوركَ الشخصي، أما أنا، فعندي وجهة نظر أخرى، كلمتكَ ستدخل من أذن، وتخرج من الثانية، سأفعل ما يحلو لي، سواء أشئتَ أمْ أبيتَ». ويبدو أن كلمة:

(أوكـ.Ok.) عند جيل اليوم تنطوي على معاني أكبر مما يظنّ.

لم تفت كارل ملاحظة مدى انتفاخ حجم حقيبة ظهر شاشا في اليوم التَّالي، كما لاحظ أنَّ حزام الحقيبة مثبَّت بقوة في سترتها الشتوية الصفراء، وأنَّ وزن الحقيبة ازداد، فأبقى ظَهرَ شاشا منتصبًا أكثر من المعتاد، فسألها:

ـ ألا تودين إعادة حقيبة المدرسة إلى البيت أولًا؟ لا بأس.. سأنتظركِ.

ـ لا، لا تقلق..، كل شيء على ما يُرام.

ـ ألا تودّين أن أحمل عنكِ شيئًا من محتويات الحقيبة؟

ـ ماذا...؟ لا...لا.

فكَّرت شاشا في حُجَّة قوية؛ كيلا يلحّ كارل في السؤال، فقالت:

ـ أنت الأكبر سنًّا، ومن المفترض أن أحمل أنا عنك شيئًا.

ثم سألته شاشا عن أول زيارة مُخططة في جدول اليوم، ولم تكن قد طرحت عليه هذا السؤال من قبل، وهو ما لم يتعجب منه كارل على أي حال. كانت المحطة الأولى هي بيت السّيّد دارسي الذي اصطحبهما هذه المرة إلى حديقة بيته. أمطرتْ السماء بشدّة؛ ولأنه كان يعاني حساسية إزاء حبوب اللقاح، أكَّد لهما أنه لن يستطيع البقاء خارج البيت إلا ساعات معدودات. لم يتُق أحد من سكان المدينة إلى مياه المطر مثله،

إذ كانت كل قطرة مطر تُمثّل الحريّة الحقيقية مسكوبةً على رأسه. ملأ رئتيه بالهواء النقي، ثم مضى يتجول في أرجاء الحديقة ليُرِىَ ضيفَيْه ساعة الأزهار، وهي الساعة التي استُلهِمَ تصميمها من العالم كارل لينيوس[1]، حيث يمكن للمرء معرفة الوقت من خلال مراقبة حركة الأزهار، فعلى سبيل المثال: زهرة (نبات الجليد) تُزهِر من الساعة الثانية عشرة ظهرًا حتى الخامسة عصرًا، و (زهرة القرنفل) من الساعة السادسة مساءً حتى الثامنة مساءً، وزهرة (نجمة الصباح) هي ساعة البُكور لو صحَّ التعبير، وتفتح أوراقَها من الثالثة فجرًا حتى الثانية عشرة ظهرًا، وإلى جانب ذلك نباتات دقيقة للغاية، مثل: زهرة الجَنْسِيانَا [كف الذئب] التي تفتح أوراقها في الساعة التاسعة صباحًا، أو نبات زنبق العشب الذي يفتح أوراقه في تمام السادسة صباح كل يوم صيفًا شتاءً.

انقطع السّيّد دارسي إلى دراسة شتّى أنواع النباتات في أصص الزرع على مدار السنة الماضية؛ لأن بعضها كان يزهر بضعة أسابيع فقط. جوار ساعة الأزهار استقرَّ كرسي بديع المنظر، مصنوع من الخيزران، وبدا كأنَّ لم يُصنع على أيدي البشر، وإنما نَبَت من تربة الحديقة الخصبة، فكان يوحي إلى

(1) عالم نبات سويدي، وهو رائد علم التصنيف البيولوجي الحديث، وقد اعتمد تصنيفه على المواصفات الجسدية في تصنيف الكائنات (المترجم).

الناظر بأن الجالس فوقه كأنما يجلس في الفردوس. قال كارل:

- في حديقتك ركن مثالي للقراءة.

- لكني لم أجلس يومًا على هذا الكرسي، ولم يجلس عليه أحد من قبل.

اقترب كارل من الكرسي ومرَّرَ أصابعه على مادته الناعمة المصقولة قائلًا:

- أتقصد أنه مجرد قطعة ديكور؟

- لا، بل هو أُمْنِيَة، أو ربما حُلم. سأخبركَ بشيءٍ، ولكن لا تسخر مني من فضلك، لا شيء في هذه الدنيا أجمل عندي من رؤية امرأة تقرأ، ولا لحظة أروع من رؤية امرأة مستغرقة بكل جوارحها في قراءة كتاب، امرأة طرحت الدنيا وراء ظهرها؛ لأن عقلها يسبح في مكان آخر. ليس ثمة أجمل من حركة حدقتيها، إذ تنتقلان بين السطور، ولا أجمل من مراقبة أنفاسها العميقة وهي تقرأ مشهدًا دراميًّا يحبس الأنفاس، ولا أعذب من رؤية ابتسامتها عند المرور بفقرة مضحكة، غايتي ومرادي أن أحظى بامرأة يمكنني مراقبتها وهي جالسة تقرأ طِوال اليوم.

ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة، واستطرد:

- سيكون الأمر أشبه بقراءة كتاب لا أعرف لغته، في أيام الدراسة قابلت زميلة اعتادت دائمًا الجلوس جواري وهي غارقة

إلى أذنيها في القراءة، لكنها ـ لسوء حظّي ـ لم تُبدي اهتمامًا بالتعرّف إليَّ.

ودَّ كارل لو سَمِعَ المزيد عن حكاية الفتاة المنغمسة في القراءة دائمًا، والمزيد من ساعة الأزهار، لكن جدول اليوم مزدحم. أما شاشا، فلم تخرج عن صمتها، وبقيت واقفة على مشطي قدميها من فرط القلق والترقب. كادت تهمُّ بمغادرة المكان بمجرد قرع جرس الباب، لكنها أطبقت شفتيها طوال الزيارة، وهو ما ضايق السّيّد دراسي قليلًا، وتحديدًا بسبب عدم اكتراثها بكلامه وشرحه المطوّل لساعة الأزهار، ولذلك رافقها حتى باب المنزل، بدلًا من مرافقتها لمراقبة تفتّح الأزهار، كما خطَّط لهذه الزيارة.

غادر الاثنان. ولاذت شاشا بالصمت مسافة خطوات قليلة، مع أنَّ الكلمات كانت على طرف لسانها. تابعت السير عن يمين كارل صامتةً، حتى ابتعدا مسافة كبيرة عن البيت، قبل أن تخرج عن صمتها:

ـ لقد نسيتُ شيئًا، تجب عليَّ العودة مرة ثانية، امضِ أنتَ في طريقكَ، سألحق بك.

ركضَت شاشا جهة البيت، بينما مضى كارل قُدمًا في طريقه. وصلت إلى المنزل، وقرعت جرس باب منزل السّيّد دارسي الذي فتح الباب، وقد اعترته الدهشة.

ـ هل جرى شيء؟

ـ لقد نسي كارل أن يعطيكَ هذا الكتاب، فعيد ميلاده اليوم وذهنه مشتت قليلًا.

ـ ولكن ألا يجدر أن أكون أنا مَن يُهديه هديةً بمناسبة عيد ميلاده؟

ـ هو عيد ميلاده السبعين، وحين يأتي هذا اليوم يمنح المحتِفلُ بعيد ميلاده الآخرين هديةً.

ـ حقًّا؟ وأين نشأ هذا التقليد؟

ـ في دولة بنما.

كانت شاشا قد قرأت في رواية عن هذا البلد وتقاليده.

ـ معذرة..، ينبغي عليَّ الانصراف الآن.

ركضت شاشا عائدةً إلى كارل بأنفاس مبهورة، وقلبها يرقص فرحًا من نجاح الخطة، وكان مما ضاعف سعادتها أنَّ وزن حقيبة الظهر قد خفَّ قليلًا، وعندما وصلا إلى بيت السّيّدة إيفي، لَمَحاها جالسة وراء إحدى النوافذ .كانت هذه أول مرة يراها كارل جالسةً في هذه البقعة، ورأسها مدفون بين دفتي الكتاب، فقفز إلى ذهنه كلام السّيّد دارسي عن القارئة المستغرقة في القراءة حتى أذنيها، ثم حدّثته نفسه أن الفكرة أبعد ما تكون عن إيفي في مثل هذه الظروف. لم تكن هيئة إيفي تسرّ

الناظرين؛ حيث كانت تضع أمام أنفها كتابًا سميكًا، فبدت كمن يحمل درعًا واقيًا يزود به عن نفسه، ومع أنها تعرف أنه درع هشّ قابل للكسر بسهولة، لكنها كانت تشعر كأنها في مأمن من أذى العالم بطريقةٍ ما أو بأخرى وهي تحمل كتابًا، كما لو أنها تؤدي صلاة بخشوع.

غشي الظلام الدامس الغرفة الكائنة خلفها، ثم سرعان ما انشقَّ الظلام عن رجل غريب راح يدنو منها بخطوات بطيئة. بدا أكبر سنًّا منها، له شعر: أشيب قصير، وملامح صارمة، وجسد رياضيٍ ممشوق، كأنه جُندي في الجيش. أخذت كارل الرعدة لمّا فكّر في دقة اسم الشخصية الروائية الذي أطلقه على أندريا كريمين، ثم قال لشاشا:

- اقرعي الجرس بسرعة.

ركضت شاشا جهة الباب بسرعة، وضغطت على الزرّ المجاور للافتة الذهبية التي تحمل اسم صاحب المنزل، تبعها كارل وعيناه شاخصتان بتوتّر إلى النافذة. كان يؤمل أن تستيقظَ إيفي من استغراقها، وعقد الأمل على أن يكون الكتاب الذي يحمله في حقيبة ظهره طوق النجاة بالنسبة إليها، وأن يفتح لها نافذة أمل تطلُّ منها برأسها، إلا أن تلك الرأس غاصت عميقًا بين دفتي الكتاب.

سرعان ما فُتح الباب بقوة، لتحدّق في وجه كارل عينان

زرقاوان صلبتان صلابة الفولاذ، وكأنما توبّخانه على تعكير صفو هدوء المنزل وساكنيْه. قال كارل:

ـ مساء الخير، أنا من مكتبة بوابة المدينة، ومعي طرد كتب للسيدة كريمين.

ـ وأين يجب التوقيع بالاستلام؟

ـ هل لي بكلمةٍ مع السّيّدة كريمين؟

ـ إنها ليست في المنزل الآن.

غشي الصمتُ الجميع، اللهم إلا أن شاشا التي قالت وهي تشير مكان جلوس أندريا كأنها تحاول إثبات حقيقة تراها بعينيها:

ـ بل هي جالسة أمام النافذة، أستطيع رؤيتها من هنا بوضوح.

ـ قلتُ: إنها ليست في المنزل، عُدْ لرؤيتها غدًا.

ثم صَفَق الباب بقوّة، ويبدو أن صوت إغلاق الباب قد طَرَق سمعَ إيفي، فرفعت رأسها من الكتاب، واستطاع كارل رؤية خدِّها الأيسر الذي كان متورمًا، ومخضبًا باللون الأحمر الدامي. سألته شاشا:

ـ هل أقرَع الجرس مجددًا؟

فأجاب كارل:

ـ لا..، فقد يزيد هذا الطين بلّة.

ـ أو ربما يكون مفيدًا!

قالتها شاشا بعد أن قرعت الجرس مجددًا على حين تعالى صوتُ صراخ حاد داخل المنزل. فتحت إيفي الباب ووَارَبَتْه بمقدار شِق صغير عرضه كَعَرض كعب كتاب، فلم يرَ كارل إلا جانبًا واحدًا من وجهها، وقالت:

ـ للأسف، أنا مريضة اليوم، ولا أستطيع أن.....

سألتها شاشا:

ـ هل ضَربَكِ هذا الرجل؟ هل تريدين الاتصال بالشرطة الآن؟

قالت إيفي بسرعة:

ـ لا..، بل يجب أن أعود إليه الآن.

قال كارل:

ـ هذا كتابكِ، سنعود مرة ثانية، لن نتركَكِ بمفردكِ..، أتمنّى لكِ السلامة، وإذا أردتِ التحدّث إلى أحد، فهذا رقم هاتف المنزل.

كتب كارل رقم الهاتف فوق فاصل كتب، ومَرَّره من خلال الشقّ الصَّغير. انغلق عالم إيفي مرة أخرى؛ لتعود إلى وحدتها

القاسية مع زوجها ماتياس، الرجل الذي وقعت في غرامه منذ سنوات بعيدة.

ولكن كيف بدأت الحكاية؟ بدأت حكاية إيفي مع زوجها في أثناء تأدية وردية خدمة في قسم الطوارئ؛ إذ وصل ماتياس مثخنًا بالجراح، ومصابًا بكسور ورضوض خفيفة، كانت لغة جسده تقول: إنه رجل (زئبقي)، وعيناه توحيان بأنه ثعلب واسع الحيلة يستطيع اكتشاف نقاط الضعف فيمن أمامه في لمح البصر والإجهاز عليه. كان من السهل على الجميع ساعتها إدراك أنَّ ذلك الرجل الذي يرتدي بزّة العمل الزرقاء الداكنة رجلٌ غريب الأطوار، لا يكشف مظهره عن مخبره. ولم يخفَ ذلك على إيفي أيضًا، وأرادت معرفة ما وراءه.

في عنبر الكشف الطبي رقم 3 قصَّ عليها ما جرى، فقال: إنه تعرّض للضرب المبرح على يد ثلاثة أشقياء سخروا منه سخرية شنيعة، وأخذوا يتغامَزون عليه، ويَلْمِزونه لمّا رأوه جالسًا على أحد مقاعد المنتزه، منغمسًا في قراءة كتاب؛ ولأن الكثرة تغلب الشجاعة، لم يستطع صدَّهم.

كانت هذه هي الشرارة الأولى التي أضرمت نار الحب في قلبها، فوقع اختيارها على ماتياس؛ لأنها حسِبَتْ أن الرجل القارئ إنما هو رجل مرهف الحسّ وطيّب القلب، ومهما كانت غرابة أطواره وما يخفيه، فحبّه للقراءة كفيل بتغيير طباعه وإنقاذه من أي سوء. لم تسأل عن عنوان الكتاب الذي كان يطالعه؛

لأنها رأت بالفعل العنوان الجذّاب مطبوعًا طباعة بارزة واضحة على الغلاف: (**كيف تفوز في أي معركة؟**)، ولمّا قرأ الأشقياء الثلاثة العنوان، استُفِزُّوا وغلى الدم في عروقهم، وانهالوا بالتعليقات المُهينة على رأس ماتياس الذي انتفضَ واقفًا وانقضَّ عليهم، لكنهم ضربوه ضربًا مبرحًا.

خسر الرجل المعركة في لمح البصر، لكنه كسب شعورًا بالارتياح وتفريغ الكبت. بعدها وجد متعة كبرى في الخروج في أثناء عطلة نهاية الأسبوع لمشاهد مباريات كرة القدم، ولم يكن مبعث متعته مشاهدة المباريات في حد ذاتها، وإنما الانخراط في المشاجرات العنيفة التي تنتهي بالضرب. مع كل ضربة يسدّدها لإنسان، ومع كل ضربة يتلقّاها من إنسان كان يشعر أنه على قيد الحياة. واستمرّ الأمر على هذا المنوال حتى تحول الضربُ إلى عادة، ثم إلى إدمان، ثم زادت الأمور سوءًا عندما قرَّر ممارسة تلك العادة الخبيثة في منزله.

أَحَبَّ الرجلُ إيفي من قلبه، لكن حبَّه لضربها كان أقوى. ومع ذلك لم تفقد إيفي الأمل في أن يفهم زوجها القارئ مرهف الشعور مشكلته المؤرقة، حَسِبتْ أنه كلما زادت محبّتها ومراعاتها ورغبتها في تجميل عُشّ الزوجية، سيفطن الزوج إلى أصل الداء عنده، كانت تبذل قصارى جهدها لرعايته؛ ولكن مهما بلغ صدق رعايتها وصفو مشاعرها، دأب ماتياس على تصيِّد أخطائها مهما صغرت، ومهما بدت تافهة صغيرة؛ بهدف

العثور على سبب وجيه ليضربها. ومع زعمه أنه كان يضربها على مضض، رأى أنها كانت تستحق ذلك، ولم يرَ خيارًا آخر إلا معاقبتها، لكن الطامة الكبرى أنه لم يجد إلا الضرب وسيلةً مناسبة في نظره لتأديبها.

لم يرَ كارل في إهداء المسكينة إيفي كتابًا جديدًا مساعدةً تضمن لها العزاء والسلوان. قالت شاشا:

ـ لم يعد هذا الحل ناجعًا..، علينا أن نبذل مزيدًا من الجهد لنساعدها.

ـ أنتِ على حق، يجب أن نفكر في الكتاب الذي قد ينقذها، ولكن أي كتاب؟

لم تُحر شاشا جوابًا، ولاذت بالصمت. بعدها قَصَدا منزل السّيّدة لانجشترومف، وكانت أُحجيتها اللغوية في هذه الزيارة جُملة غامضة تقول: «لقد ألقَى عليها نظرة سريعة متعبة»، وبعد انتهاء الزيارة قرر كارل اقتفاء شاشا خلسة. مشى كارل وشاشا حتى دخلا إلى زقاق جديد، ثم سرعان ما ضربت شاشا جبهتها، وقالت: إنها نسيت شيئًا، فتساءل كارل في نفسه ما إذا كانت ذاكرة الأطفال قد صارت ضعيفة كالكبار، لكنه عجز عن أن يتذكر ذلك، تركته شاشا وركضت إلى بيت السّيّدة لانجشرومف، على أنه تعقب خطواتها دون أن تشعر به، وفي طريقه إلى بيت لانجشرومف انشقت الأرض عن صديقه الكلب،

فألقَمَه كارل علبة معدنية صغيرة كيما يلعب بها[1]، وأخذ كارل والكلب يراقبان شاشا وهي تعطي العجوز كتابًا مغلفًا بورق زاهي الألوان، وما أنْ فضَّت العجوزُ الغلاف حتى عانقت شاشا معانقة دافئة، ثم غابت داخل المنزل بضع لحظات، لتعود وتعطيها قطعة شوكولاته.

استبدَّ الفضول عندئذٍ بكارل لمعرفة عنوان الكتاب، لكنه لم يشأ الإعلان عن دخيلة نفسه وإحراج شاشا، ومع ذلك لم يخامره شكٌّ أن كذبتها البيضاء ستُكشف إذا زعمت مجددًا أنها نسيت شيئًا في بيت أحد.

عادت إليه شاشا تهتزُّ فرحًا، وخلعت حقيبة الظهر، وجعلت تراقِصُه، فالكلب ارتبك من فرط حركتها وهزَّ ذيله، وأعطاه كارل شيئًا من علبة السكاكر لتهدئته. ولمّا قَصَدا بيت **القارئ** غمرته السعادة لصدور ترجمة جديدة لرواية ثيربانتيس دون كيخوته. قالت شاشا:

ـ أنت قارئ نهم.

ـ نعم، أقرأ ثمان ساعات يوميًّا في المصنع، ثم أواصل القراءة في البيت، حيث تفرض عليَّ طبيعة عملي اختيار كتب

---

(1) ربما وجب علينا أن ننبه إلى أن البطل كارل كولهوف ينظر إلى قط الشوارع بوصفه كلبًا، ويعامله معاملة الكلاب (المترجم).

جذابة أقرأها على مسامع عاملات وعمال لفِّ السيجار في المصنع.

- معنى هذا أن لك باعًا طويلًا في الكتب؟

- صحيح، ومع هذا، فمهما قرأ الإنسان من كتب، فسيبقى المزيد منها لم يُقرأ، وهذا هو المحزن في الأمر، فأي إنسان مولع بالقراءة يكره أن تفوته فرصة قراءة كتاب جيد.

- ولماذا لم تفكَّر في تأليف كتاب بنفسك؟ فأنتَ أعلم النَّاس بالكتاب الجيّد.

صُعِق القارئ من سؤالها. ثم تعجَّب كارل عندما فكّر أن شاشا لم تطرح عليه هذا السؤال قط، ربما لأنها ظنّت أن ساعي بريد الكتب عاجز عن تأليف الكتب، مثلما أنَّ شركات نقل الطرود لا تصنع الطرود، بل تسلّمها فقط. رمق القارئ كارل بنظرة ذات مغزى، وقال:

- لديك رفيقة درب ذكية رائعة.

أجاب كارل:

- هذه حقيقة لم تعد تخفى عليَّ.

أجاب القارئ:

- سأصارحكِ القول: لقد ألَّفتُ كتابًا بالفعل، وعكفت على تأليفه عشر سنوات.

عندها لامس الكلب ساقَي القارئ، ظنَّ كارل أن القط يحاول تهدئته بعد أن بدا التوتر واضحًا على ملامحه، على حين سألته شاشا:

ـ وما موضوعه؟ هل يروي قصة حياتك؟

ابتسم القارئ وقال:

ـ لا، بل يروي قصة رجل أبكم أصم يسعى إلى تعلُّم رقص التانجو، لكن جميع مدارس التانجو ترفضه، فينشر إعلانًا في إحدى الجرائد. وتتقّدم امرأة وتعرض عليه تعليم الرقص. ترصُّ المرأة مكبِّرات الصوت فوق الأرض، ويرقص الاثنان بأقدام عارية ليحسًّا بالاهتزازات التي تحدثها مكبرات الصوت من خلال باطن القدمين. يقع الاثنان في غرام بعضهما، ثم يكتشف الرجل الأصم الأبكم أن معلّمة الرقص صماء وبكماء مثله، فيشعر بطعنة غدر وخديعة؛ لأنها كذبت عليه، وأوهمته أن لها أذنًا موسيقية متذوقة، فيهجرها وينهي العلاقة.

قالت شاشا:

ـ قصة سخيفة، أو على الأقل نهاية سخيفة، كان عليهما أن يتبادلا القبلات.

ـ لقد تبادلا القبلات فعلًا يا شاشا، ولكن ليس في ختام الرواية».

ـ لكن مربط الفرس في أي رواية هو أن يتبادل البطلان القبلات في النهاية، أما قبل ذلك، فلا قيمة له.

قال القارئ:

ـ هكذا الحياة كما تعلمين؛ نمرُّ بمواقف تُسَطِّرُ فيها القُبُلات النهاية السعيدة، ومواقف أخرى تكتب فيها الدموعُ كلمة النهاية، وموطن الاختلاف بين الرواية ذات النهاية السعيدة والرواية ذات النهاية الحزينة هي النقطة التي يتوقّف فيها المؤلف عن سرد القصة.

ـ لم تَفهم قصدي، ينفر القُراء من النهايات الحزينة.

قالتها شاشا عفو الخاطر، ثم سرعان ما انتبهتْ إلى أنّ الصواب جانبها بعد أن فكّرت في حالة إيفي، فقالت:

ـ حسنًا، معنى هذا أن الرواية لا تنتهي نهاية سعيدة..، وهل أقبل كثير من القُراء على شراء كتابكَ؟

ـ لم يقرأ الرواية مخلوق حتى اليوم؛ لأني لمَّا أنشرها بعد.

ـ ألم تقرأ فقرات منها في عملك أو في مصنع السيجار؟

ـ لم ولن أقرأ منها كلمة واحدة على أحد.

ـ لماذا؟

ـ لأنها قد تكون رواية بالغة الرداءة.

أشارت شاشا إلى كارل قائلة:

ـ أعطِ الرواية إذًا صديقي ذوّاقة الكتب، فهو خبير علّامة، وسيخبرك ما إذا كان الكتاب جيدًا أو رديئًا، ولا تنسَ أن نهاية الرواية سخيفة.

حينذاك خُيِّلَ لشاشا أنَّ ذهن القارئ قد توقّف عن العمل؛ لأن الرجل تيبّس في مكانه، لا ينبس بكلمة، ومع هذا اعتقدت الصبية أن رأسه تموج بكثيرٍ من الأفكار في هذه اللحظة. ومع علمه أن كارل كان يسمع حديثهما همس القارئ في أذن شاشا قائلًا:

ـ لكني لا أستطيع أن أسأله عن ذلك سؤالًا مباشرًا.

ـ سيرّحب كارل من دون شك بقراءة مخطوط روايتكَ، فهو إنسان لطيف المعشر، ومحبٌّ للقراءة على أي حال، ولا ضير لو اطَّلع على مخطوط روايتك.

قال القارئ:

ـ سيد كولهوف: اعذرني إن كنتُ قد استخدمتُ سيف الحياء؛ لكني سأكون ممتنًا لو أسديتَ لي هذا المعروف، وقرأتَ مخطوط روايتي، أنا واثق من أنَّ الجميع يتوجّهون إليك بمثل هذه الطلبات دائمًا.

والحقيقة، لم يطلب أحدٌ من القُراء من كارل يومًا أن يطّلع على مخطوط كتابه، ولم يرَ ضيرًا في ذلك. ثم فكَّر كارل: ماذا لو كانت الرواية رديئة بالفعل؟ ماذا عساه أن يقول للرجل دون

أن يصدم مشاعره؟ سألت شاشا كارل بنبرة توحي بأن جوابه سيكون مجرد تحصيل لحاصل:

ـ ألن تقرأ مخطوط روايته يا كارل؟

تردّد كارل بعض الشيء، لكنه عندما لاحظ تهلّل وجه شاشا كَرِهَ أنْ يخيِّب رجاءها، وقال:

ـ بالطبع، تسعدني قراءة المخطوط.

ـ سأجلبه على الفور.

غاب القارئ لحظات، ثم عاد حاملًا المخطوط في صندوق أحذية، ثم خاطبَ كارل قائلًا:

ـ منتهي رجائي أن تصارحني بالحقيقة، وإنْ كانت مُرَّة، وأنْ تكاشفني برأيك بلا مواربة، فهذه هي الطَّريقة الوحيدة لأمضي قُدمًا في طريق الكتابة».

وبينما كان يقول ذلك لاحظتْ شاشا أنه كان يزدرد شيئًا، لكنها لم تستبن ما يلوكه في فمِه، ولكنها خمّنتْ أنها لقمة كبيرة.

ـ خذ وقتك، واقرأ المخطوط في أوقات فراغك، سيكون ذلك من دواعي سروري.

ـ حسنًا، سأقرأ مخطوط العمل وأبلغكَ برأيي.

علَتْ وجه القارئ ابتسامة مشوبة بالقلق والترقّب، حيث

كانت هذه هي اللحظة التي يتوق إليها، لكنه يخشاها في الوقت ذاته، لحظة خروج الرواية من الأدراج، ورؤية نور العالم. صحيح أنها لم تكن سوى خطوة صغيرة في طريق طويل، وأن رجلًا واحدًا فقط سيقرأها، لكن سطور الرواية ستحقّق بهذه الطَّريقة، الغرض الذي كُتِبت لأجله، وهو أن تطالعها عين قارئ. ثم داهمه شعور مقبض بأن خطوته قد تُمنى بالفشل الذريع، فانعقد لسانه، ولم يدرِ ماذا يقول.

عندها قالت شاشا:

ـ والآن وداعًا...، وراءنا يوم طويل وعمل شاق.

ـ بالطبع، لا أريد أن أعطِّل جدول اليوم، أراكما قريبًا..، لقد سجّلتُ طلبية الكتب الجديد عبر الهاتف.

تبادل الثلاثة تحية الوداع، وانصرف كارل وشاشا إلى حال سبيلهما. في هذه المرة زعمت شاشا مجددًا أنها نسيت شيئًا في بيت القارئ، فقال كارل:

ـ لا بأس، سآتي معكِ، أشعر بملل شديد عندما أنتظركِ حتى تعودين.

ـ لكني سأعودُ إليك في لمح البصر، لن تشعر بالملل على الإطلاق.

ـ سآتي معكِ على أي حال، لا ضير من بضع خطوات من المشي.

تلذَّذ كارل بمراقبة قسمات وجه شاشا بعد أن صارت في موقف لا تُحسد عليه، لكن سرعان ما راوده شعور تأنيب الضمير والأسف، لم تكد تمرّ دقيقة حتى صفعت شاشا جبهتها بطريقة مسرحية هزلية، وقالت:

- أوه!! لا، لم أنس شيئًا... يا لي من مغفلة!

- هل أنتِ واثقة من كلامك؟

- شيء من هذا القبيل.

- ربما تودين أن تعطيه أحد كتبكِ؟

دبَّت شاشا بقدميها الصَّغيرتين على الأرض بحنقٍ بالغ، وقالت:

- آه منكَ!! لقد كشفتَ أمري منذ البداية.

- لا، بل عرفتُ الحكاية بعد زيارة إيفي.

- تجسّسْتَ عليَّ إذًا؟

- وأنتِ تنافسينني في عملي.

- أنا لا أنافسك، فأنا لا أبيع كتبي، بل أهديها لهم.

- هل هذه الكتب التي يجب عليهم أن يقرأوها؟

- نعم، الكتب التي ستُدخل السعادة على قلوبهم. ولمّا رفضتَ أنتَ فعل ذلك، اضطررت إلى إنفاق كل مصروف الجيب الذي ادّخرته.

ـ وما عناوين تلك الكتب؟

ـ تعلم بالطبع أن السّيّد دارسي يقرأ الأعمال التي تحثُّ على التأمل والتفكير، فاعتقدتُ أنَّ عليه الانشغال بعملٍ يدوي، ولهذا أهديته كتابًا عن فنون البستنة؛ لأنَّ لديه أشجارًا باسقة في حديقة منزله.

ـ اختيار موفّق. وماذا عن السّيّدة لانجشتروموف؟

ـ هوايتها العثور على الأخطاء، وكلما كثرت الأخطاء اللغوية، ازدادت سعادتها.

ـ سيقتلني الفضول لمعرفة اسم الكتاب.

ـ أهديتُها كتابًا يحتوي صورًا. في كل صفحة صورتان متجاورتان متطابقتان، وفي إحدى الصورتين عشرة أخطاء مخفيّة، واسم الكتاب (اكتشفْ الفرق بين الصورتين)، لم أهدِها الكتب المملة التي كانت يقرأها مدرّسو اللغة الألمانية القدامى.

ـ لا أشكُّ أنها ستغرق في الكتاب حتى أذنيها فترة طويلة، وماذا عن إيفي؟

ـ "أهديتها كتابًا هزليًّا ساخرًا للفنان فيبس أسموسن[1]، اسمه: أجمل الطرائف والنِّكات.

---

(1) فنان كوميدي ومطرب، وكاتب سيناريو ألماني (1930 - 2020)، اشتهر بأداء الفقرات الهزلية، وتأليف كتب الطرائف والنِّكات (المترجم).

اعتقد كارل أن إيفي لن تتجاوز الصفحة الأولى عندما تفتح هذا الكتاب، وقال في نفسه: حتى لو لم تُقرأ هذه الكتب، فليس من شكٍّ أنها لَفْتة كريمة ودودة من شاشا، وإطراء رقيق على ذكاء وذائقة مَنْ أهديِتْ إليهم الكتب. أسّسَ عدد هائل من المؤلفين سمعتهم الأدبية على حقيقة أنَّ كتبهم تُشترى بغرض الإهداء فقط، حتى وإن لم تُقرأ منها صفحة واحدة، ثم تُرصُّ فوق الرفوف بعد تجليدها بأغلفة ذهبية الإطار من باب المباهاة، ليس إلا.

استأنفت شاشا كلامها قائلة:

ـ لكني وضعتُ كتاب الطرائف والنكات في صندوق بريد إيفي، لم أرغب في قرع الجرس مرة ثالثة.

نَظَر كارل إلى منزل القارئ وسألها:

ـ وماذا ستهديه؟

ـ هذا سؤال معقّد؛ لأني لا أعرف ما الذي يسعده، مثلما لا أعرف ما الذي يُتعِسه.

ـ ولكن هل في حقيبتك أي كتاب له؟

أومأت شاشا برأسها، وأخرجت الكتاب المُغلّف الملفوف من حقيبة الظهر، وقالت:

ـ إنه كتاب عن المفردات الجديدة...، لمؤلف اسمه «ألفريد».

ـ ألـفـريـد هـيـبيـرث: الـمـفـردات الـجـديـدة، أو كـتـاب المصطلحات الجديدة في اللغة الألمانية منذ عام 1945... اختيار رائع.

ـ طافت برأسي فكرة أنه قد يستمتع بقراءة كلمات يسمع بها للمرة الأولى في حياته..، شيء من قبيل: مصارع ثيران، نحلة العسل.

ـ لكن لا وجود لهذه الكلمة في الألمانية.

ـ ولهذا السبب ما أمتع أن تقول: مص ـ ارع ـ ثير ـ ان ـ نح ـ لة ـ العـ ـ سل.

ـ وما رأيكِ في كلمة فن صناعة الأبواق والقبعات.

ـ يمكنك أن تكون مرحًا، إنه يحب النكات البارعة.

أجاب كارل:

ـ مرح بمحض المصادفة، ليس إلا.

ـ اعترف!..، لا تخجل من كونك مرحًا ومفعمًا بروح الدعابة..، لا عيب في ذلك.

ـ كيف وقعتِ على هذا الكتاب بمفردك؟ مَنْ رشَّح لكِ الكتاب؟

ـ رشّحه لي البائع العجوز في مكتبة موسى لبيع الكتب النادرة والمستعملة..، إنه رجل طاعن في السن، وبشرته مليئة بالتجاعيد كالزبيب المجفف.

كان البائع (هانس) رجلًا هادئًا يتحلّى بالفطنة والكياسة، وطالما بدت هيئته وسط مكتبته العتيقة كهيئة سلحفاة عجوز تُبرِز رأسَها من بين أكوام الكتب المكدسة، ومع ذلك لم يكن هانس من هُواة القراءة البتة؛ لأنه ورث المهنة عن أمّه ليس إلا، ولمّا اشتدَّ عوده تمرَّد على تقاليد العائلة، ولم يُقبِل على قراءة أعمال: غوته، أو شيللر، أو تيودور فونتانه، أو فريدريش دورينمات، أو تولستوي، واكتفى بقراءة سلسلة الكتب الهزلية [الكوميكس] المعروفة بـ: "Western Lassiter».

ومع إلمامه بأسماء كِبار الأدباء وأعمالهم بُحكم مهنته، فضلًا عن معرفة الأجناس الأدبية التي كتبوا فيها معرفة عميقة، لم يقرأ الرجل عملًا واحدًا من أعمالهم، بينما كانت زوجته (التي قضت نحبها قبل سنة تقريبًا) قارئة نهمة، لم تترك كتابًا في المكتبة إلا والتهمته، وبعد رحيلها صارت اليوم المكتبة العتيقة دار قراءة بلا قارئ حقيقي.

قالت شاشا:

ـ أخبرتُه أن ما في جيبي لا يكفي إلا لشراء الكتب زهيدة الثمن، أي: ما يوازي بضع سنتات لكل كتاب، ولم يجد الرجل ضيرًا في ذلك.

ـ وهل وجدتِ كتابًا يليق بذوق كل واحدٍ منهم بسهولة؟

ـ بالطبع، وجدها البائع على الفور. كان يحتفظ بصندوقٍ

كبير جوار صندوق الخزينة، يضمُّ الكتب المطلوبة.

حقيقة الأمر أنَّ هانس احتفظ داخل هذا الصندوق بالكتب الراكدة التي لا سوق لها، فكان يُهديها إلى الزبائن الذين يستحقونها؛ بغرض إخلاء مساحة أكبر لاستقبال مزيد من الكتب الجديدة الرائجة في المكتبة. من المؤكد أن شاشا لم تكن الزبون المثالي بالنسبة إليه، لكنه مع ذلك وجد عناوين قريبة مما تبحث عنه.

- حسنًا، اذهبي إلى صديقنا القارئ بالكتاب الذي سيفرح قلبه.

- وماذا ستفعل أنتَ؟

- سأنتظركِ هنا، وأفكّر قليلًا.

- وفيمَ ستفكِّر؟

تعلّمت شاشا أنَّ استغراق الكبار في التفكير مع عدم البوح بما في صدورهم إنما هو نذير سوء.

قال كارل:

- أفكِّر في أن المرء لو عَجِزَ عن إيقاف صبية عن تنفيذ ما في رأسها، فعليه أن يساعدها في تنفيذ خطتها على خير وجه.

أجابت شاشا:

- عظيم! فكِّر ما شئتَ إذًا، وخذ وقتك.

* * *

أشارت عقارب الساعة إلى التاسعة مساءً عندما رنَّ جرس الهاتف في بيت كارل، وهو ما أزعجه قليلًا؛ بسبب اعتياده الدائم على الهدوء. انتفضَ كارل من مقعده فزِعًا؛ لأنه كان في تلك اللحظة يجول في أدغال إفريقيا، وهو يقرأ الرواية السيرية للكاتبة كارين بليكسين[1] التي قرأها آخر مرة قبل ربع قرن تقريبًا. كانت من دأب كارل معاودة قراءة أي كتاب مضى على قراءته ربع قرن تقريبًا، وفي ذهنه أن يكتشف ما إذا كان في جُعبة المؤلف شيء جديد يقوله للقارئ أو لا. وضع كارل فاتورة مخبز بين الصفحات لتكونَ إشارةً مرجعية لموضع القراءة، ثم نحّى الكتاب جانبًا بعناية، وقبل أن يلتقط سمّاعة الهاتف سوَّى ملابسه، ورفع ياقة قميصه.

ـ معك كولهوف...، مَن المتحدّث؟

ـ هل أتحدث إلى السّيّد كارل كولهوف؟»

ـ نعم، كولهوف على الخط.

ـ هنا دار مونستربليك لرعاية المُسنّين...، السّيّد جوستاف جروبر يودُّ رؤيتكَ.

ـ لكن اليوم هو السبت، وهو لا يستقبل زورًا في هذا اليوم أبدًا.

---

(1) كاتبة وروائية دانماركية، كانت تكتب باسم مستعار، هو: «إسحق دنسن» (المترجم).

- حالته متدهورة للغاية، والأفضل لو سارعتَ بالمجيء لإلقاء نظرة عليه.

هرع كارل إلى الشارع الغارق في ظلام دامس، وأخذ يركض بأنفاسٍ لاهثة، في أثناء الطَّريق سأل نفسه عما إذا كان ينبغي عليه إحضار شيء لصديقه جوستاف، ولكن إذا ما غادَرَنا شخصٌ ما إلى الأبد، فلا جَرَم أنه سيترك الجَمَل بما حَمَل، حتى ما أهديناه إليه توًا. ومع ذلك قرر كارل العروج بمحطة الوقود لشراء باقة زهور تيوليب زاهية، فصاحِبُه جوستاف مُغرم بالزهور؛ لأنها تُذكِّره بمدينة أمستردام المعروفة بالزهور، وطالما كانت الزهور سببًا في إشاعة البهجة في قلبه. صحيح أنَّ حظّ الإنسان من السعادة في الدنيا قليل، لكن ما أجمل أن ننثر قطرات قليلة من السعادة!! لاسيما لو كان أعزّ أصدقائنا في النزع الأخير.

ولمّا وصل كارل إلى دار المسنين لم ينتظر المصعد، ولكنه صعد درجات السُلم وثبًا، لم ينتظر أن يطرق الباب ويُسمح له بالدخول، بل فَتح باب الغرفة وقد وقفت سابينه جروبر وراءه مباشرة، رأى جوستاف راقدًا في سريره، فاقد الحركة، يجاهد ليتنفّس، كانت سابينه تودُّ أن تقضي اللحظات الأخيرة مع أبيها بمفردها، ولذا دفعت كارل إلى خارج الغرفة وهي تقول:

- ليس مسموحًا لك بالزيارة في هذه اللحظة، لا تحق لأحد رؤيته وهو في هذه الحالة، إنه محتاج إلى الراحة التامة.

ثم أغلقت الباب بعد أن خرجت.سألها كارل:

ـ كيف حال غوستاف؟

ـ ليس الوقت مناسبًا البتة للحديث معك الآن عن حالة أبي».

ـ هل في يدي ما يمكن أن أقدِّمه للمساعدة؟

ـ لا...، وماذا في وسعك أن تفعلَ؟

ـ أعني مساعدتكِ أنتِ أيضًا. هل تريدين أن أجلب لكِ طعامًا أو شرابًا؟ هيئتك تدلُّ على إرهاق بالغ وحاجة إلى ما تسدّين به رمقكِ.

ـ سيد كولهوف.. أستطيع أن أتدبَّر أموري دون معونتك.

غادرتْ المكان دون أن تقول المزيد، بينما رفض كارل تَرْكَ رئيسه القديم وصديق الأيام الخوالي بمفرده، حيث رأى في مغادرة المكان خيانةً لعهد الصداقة، وتنصلًا من تقديم يد العون إلى إنسان يصارع الموت. جلس على أحد المقاعد، لكن سرعان ما هبَّ واقفًا على الفور. كان الجلوس بمنزلة استسلام ورفع الراية البيضاء أمام الواقع المرير، وبدلًا من ذلك أخذ يقطع ممرات ردهة التي كانت ناضحة برائحة المطهِّر النفاذة، بدت الممرات متشابهة حد التطابق، كما لو كانت حلقة جهنمية يستحيل الخروج منها.

انشقّت الأرض بغتة عن خزانة كتب قديمة، وكانت المكتبة

الداخلية الملحقة بدار المسنين تضمُّ كومة من المجلدات التي بليت؛ لكثرة ما تداولتها الأيدي، إلى درجة أنها لا تكاد تساوي سنتًا واحدًا في سوق الأغراض المستعملة، مرَّر بصرُه على كعوب الكتب، وجعل يقرأ أسماء المؤلفين، إنه يعرف أعمالهم؛ ولذا رآها وليمة كتب نادرة بحق. في البداية لم يكن يعرف ما الذي يفتش عنه، وكلما طالت فترة التيه في العناوين، اتضحت الصورة أكثر فأكثر.

عثر على رواية (إيميل والمحققون) للكاتب الألماني إيريش كيستنر، ولا بد أن جوستاف قرأها في سنوات يفاعته، امتدتْ يـدُ كارل إلى الكتاب وسَحَبه، ثم جلس على الكرسي المقابل لغرفة جوستاف، وشرع في القراءة. بالرغم من يقينه أن كلمات الرواية لن تخرق الجدران، ولن تبلغ أذني جوستاف، حرصَ على القراءة بصوتٍ مرتفع، كان يعلم علم اليقين أنَّ الكلمات ليست عصا سحرية قادرةً على إبراء جوستاف من مرضه، كما كان يعلم أنه ليس (ميرلين، أو ديدي، أو كيركي)[1]، ولكنه كارل كولهوف، ذلك الشيخ واهن الجسد الذي انحنى عوده،

(1) بالترتيب: مرلين: شخصية أسطورية وردت في أسطورة الملك آرثر، وهو ساحر أبيض جبار؛ وديدي: شخصية خيالية لساحرٍ من مصر القديمة ورد ذكرها في الفصل الرابع من بردية وستكار الفرعونية؛ وكيركي [سيرسي] ساحرة من الأساطير الإغريقية القديمة وابنة ربّة الشمس هيليوس (المترجم).

وتهدَّج صوته بفعل الزمن، وأنه لا يفعل ذلك إلا بسبب افتقاد أعزّ أصدقائه إلى قلبه.

قرأ من الرواية قصة الصبي إيميل تيشباين الذي يسافر وحيدًا على متن قطار، فيسرق منه السّيّد جروندیس مائة وأربعين ماركًا ألمانيًّا، كما قرأ قصة الصبي جوستاف ذي البوق، وقصة بوني هوتشن وتأسيس جهاز المخابرات، وابتكار كلمة السرّ «إيميل»، وغيرها من الأحداث المثيرة في الرواية. لم ينظر كارل إلى عقارب الساعة، فسرقَه الوقت دون أن يشعر، كان يواصل القراءة دون انقطاع كأن حبل حياة جوستاف مربوط بخيط كلمات الرواية، ومتى انقطع الأول انقطع الثاني. ثم مرقت أمامه بغتة ممرضة قاصدة غرفة جوستاف، وفي ذيلها طاقم ممرضات أخريات يرتدين معاطف بيضاء فضفاضة، فبدت هيأتهنّ مثل سرب طيور في أعقابها نسر كاسر.

واصل كارل القراءة بصوتٍ جهوري ولسان لاهث حتى كادت الكلمات تتناثر خارج دفتي الكتاب. قبضت أصابعه بقوة على الكتاب إلى درجة أنها أحدثتْ انبعاجًا في الغلاف الصلب. بعد ذلك خرج سرب الطيور البيضاء من غرفة صديقه بخطوات بطيئة، ورؤوس منكّسة. أغلق كارل الكتاب على مهل، ووضعه برويَّة فوق الأرض جوار باب غرفة جوستاف وغادر المبنى الذي صار خاويًا على عروشه في هذه اللحظة.

*

طالما كان وَقْعُ رنين الجرس النحاسي القديم المعلّق أعلى مدخل مكتبة بوابة المدينة في أذني كارل مرحًا مشرقًا، ولكنه رنَّ رنينًا خافتًا كئيبًا عندما دخل من الباب في اليوم التَّالي لوفاة صديقه، وقد بدت في مدخل المكتبة صورة كبيرة ذات إطار فخم موشاة بشريط أسود يشير إلى الحِداد. وكانت الصورة للراحل جوستاف في أثناء حفل تقاعده وتكليف ابنته سابينه بإدارة شؤون المكتبة. كادت الصورة الكبيرة تختفي وراء باقة زهور أكبر منها استقرت في المكان ذاته، وبدت ابتسامة الراحل شاحبة، كأنها صدى ضعيف في مواجهة حضور ابنته القوي، في حوالي ذلك لاحظ الجميع أن جوستاف لم يعد هو الشخص نفسه، وأنّ مرحلة أفول نجمه حانت، وانزياحه إلى الظل بدأت.

أمام الصورة استقّرت منضدة صغيرة عليها مفرش من قماش ناصع البياض، فوقه سجل العزاء، أخذ كارل يقلّب الصفحات الثقيلة بأصابع مرتعشة، ورأى القلوب المرسومة، وكلمات الحزن والمواساة والافتقاد الرقيقة. شارك عدد كبير من النَّاس ذكرياتهم مع جوستاف، وأشار بعضهم إلى الكتب التي أوصى بها الفقيد وقيمتها بالنسبة إليهم، وعلى مقربة من المنضدة رأى قلم حبر أسودَ لامعًا، وكان كارل يستشعر الكلمات الصادقة المناسبة متى رآها، لكنه في هذه اللحظة لم يعثر على الكلمات المناسبة ليدوّنها في سجل العزاء، وفي حالة جوستاف كان لزامًا عليه أن يعثر على الكلمات المناسبة التي

توفّيه حقَّه؛ لأنَّ كتابة كلمات مصطنعة غير مناسبة في رثاء صديق العُمر جوستاف أشبه بتقديم وصفة طعام رديئة بمعرفة طباخ ماهر.

في حوالي ذلك وقفت سابينه جروبر خلف المنضدة ترتدي فستانًا أسودَ ضيقًا، وعيناها على شاشة الحاسوب تكتب شيئًا، وشعرها منسدل على وجهها. تقدَّم كارل نحوها وقال:

- خالص التعازي في فقيدكم.

خرجت صيغة المخاطبة الرسمية من بين شفتيه بصعوبة بالغة، وقد أجابت سابينه دون أن ترفع وجهها من فوق الشاشة:

- شكرًا لك، يجب أن نتكلم.

- بالطبع، متى توافر الوقت لديك، كلي آذان صاغية، أنا رهن إشارتك فيما تحتاجين.

في هذه المرة رفعت رأسها من فوق شاشة الحاسوب، ولم توجِّه نظرها إليه، ويبدو أنها ركّزتْ على نقطة في منتصف جبين كارل.

- سيد كولهوف، ليس الأمر متعلقًا بأبي، بل متعلق بالمكتبة.

كان عالَم كارل طافحًا بالحزن والمرارة إلى درجة لم تجعله ينتبه إلى نبرة صوت سابينه الهجومية الحادّة، فقال:

ـ أنا طوع أمركِ في أي أمر متصل بالمكتبة أيضًا.

ـ عندما كان أبي على قيد الحياة لم أستطع تنفيذ كثير من الأفكار؛ بسبب رفضه لها، ولا أشكُّ أنك تدرك الآن ضرورة الإسراع بتنفيذ هذه الخطوات؛ للحفاظ على كيان المكتبة من الانهيار قبل فوات الأوان.

بدت صياغة الجملة كما لو أن سابينه كتبتها مسبقًا وتدرّبت على إلقائها مرات عدة.

ـ نعم، بكل تأكيد.

قالها كارل وهو مشتتُّ البال، لا يعرف إلى أين ستمضي الأمور.

ـ سنوقف خدمة تسليم الكتب، وسيكون في مقدور الزبائن شراء الكتب مستقبلًا من مقر المكتبة مباشرة، أو نبلغ الموزِّع الرئيس ليرسلها إليهم من خلال البريد، لهذا أطلب منك شخصيًّا إبلاغ الزبائن بهذا الأمر في جولة اليوم، وإذا تعذَّر وجود أحدهم في بيته، فسنهاتفُ الشخص المعني ونُبلغه.

ـ وهل سبب هذا الرغبة في توفير الأجر الذي أتقاضاه؟ من الآن فصاعدًا لن أتقاضى مالًا مقابل أداء تلك الخدمة.

ـ سيد كولهوف: ليست المسألة متصلة بالأجر فقط، بل بالمصروفات الإضافية التي تتكبدها المكتبة، ولقد شرحتُ لك تفاصيل هذه النقطة من قبل.

ـ لكن الزبائن يرسلون طلبات الكتب إليَّ شخصيًّا، وأنا أتولّى تسجيل البيانات على المنظومة الرقمية للمكتبة.

ـ أنا في حِلٍّ من الدخول في مناقشة الإجراءات الداخلية معك الآن، هذه مكتبتي، وأنا مَن أقرر طريقة الإدارة.

قالتها سابينه وهي تواصل النقر على لوحة المفاتيح، ثم أضافت:

ـ هذا قرار خاضع لاعتبارات تنظيمية وإدارية بحتة، ومن فضلك لا تعطِ المسألة أكبر من حقّها، ربما حان الوقت كي تستثمر أوقات فراغك في ممارسة أنشطة أكثر إمتاعًا.

تسمَّر كارل في مكانه وشُلَّ تفكيره في اللحظات القليلة الأولى، وفي اللحظة التي تنبَّه فيها إلا أنه نسي التنفس، أخذ نفسًا عميقًا، وملأ رئتيه بالهواء. هل ينبغي له إزجاء وقت المساء في ممارسة أنشطة ممتعة حقًّا؟ أيُقال ذلك لرجل ليس أحبَّ إلى قلبه من تسليم الكتب إلى القُرّاء؟

ـ حسنًا، سأدفع ثمن الكتب المُشتراة كزبون عادي، ثم أسلِّمها إلى أصحابها، ومن هنا لن تتكبّد المكتبة أي مصروفات إضافية.

ـ في هذه الحالة سيسقط حقّك في التأمين ضد حوادث السير.

ـ لا بأس، سأجازف، هذه مسؤوليتي الشخصية.

ـ اسمع يا سيد كولهوف: أودُّ تجنب هذا الجدل العقيم.

ـ ولكن...

ـ سيبدو الأمر كأنك تؤدي خدمة رسمية لصالح مكتبتنا، ولو أسأتَ التصرف مع أي عميل، سيلقي ذلك بظلاله على المكتبة، لا جدوى من هذه السفسطة، ورائي أعمال أهم بكثير من هذه المحادثة، أرجو منكم جميعًا العودة إلى أعمالكم.

لم يلاحظ كارل أنّ موظفي المكتبة الثلاثة والتلميذ المتدرّب ليون قد تحلّقوا عن يمينه وشماله. قالت فانيسا أيشيندورف التي درَّبها كارل منذ سنوات، ووقف جوارها لاجتياز الأيام الصعبة الأولى في العمل، وشجّعها على التحلّي بالصبر وعدم الاستسلام:

ـ لم يسبق أن أساء السّيّد كولهوف التصرف مع أي عميل.

بينما أكَّدت يوليا بيرنير التي أقرضها كارل ثلاثين ماركًا لتسوية عَجْز دفاترها المالية في أول يوم التحقت به بالمكتبة:

ـ لم يَشْكُ منه عميل واحد طَوال سنوات عمله المديدة.

ـ لو تعلّمنا شيئًا من كارل، فقد تعلمنا على يديه الالتزام والجدية في خدمة عملاء المكتبة.

كانت هذه الكلمة الأخيرة هي كلمة: يوخين جيسينج الذي تلقَّتْ ابنته تدريبها الصيفي في أحد المخابز بفضل دماثة خلق كارل كولهوف وحلاوة لسانه مع صاحب المخبز، والذي كان

يبتاع منه الكرواساون بالزبدة صباح كل يوم. فاتخذَ كارل صاحبَ المخبز صديقًا بعد المداومة على شراء المخبوزات الطازجة على مدار سبعة وعشرين عامًا، وكان يمنحه عملات معدنية لامعة في كل مرة، فكانت سببًا في انعقاد أواصر صداقة قوية بين الاثنين. أما المتدرّب اليافع ليون، فقد شَعر بضرورة أن يدلي بدلوه، فقال:

ـ بفضل السّيّد كولهوف داومَتْ عائلتي على شراء كتبها من هذه المكتبة طوال سنوات، حتى تلك الكتب التي لا أفضّل قراءتها على الإطلاق.

سُقِطَ في يد سابينه، حيث ارتعشت حدقتا عينيها بعصبية، وخفق خلقها بقوّة، ونقلت القلم من اليسار إلى اليمن في حركة لا إرادية مشوبة بتوتّر، على أن سابينه كانت قد حسمَتْ أمرها بقَطْع كل الخيوط التي تربطها بالماضي، ومحو أي أثر يربطها بتاريخ والدها، حيث أزالت من المكتب كل ما يذكّرها بأبيه، وعلى رأسها صورة والدها جوستاف مع الأديب الشاب وقتذاك، الحائز جائزة نوبل في الأدب لاحقًا، ساكن ضاحية بيهليندورف[1]، وكذلك شهادة التكريم الثقافي من المقاطعة تقديرًا لجهود أبيها على تنظيم أنشطة القراءة في البلدة، بل إنها

(1) الإشارة إلى أديب نوبل الألماني جونتر جراس (1927-2015) (المترجم).

أزالت الصورة الساذجة التي رسمتها لأبيها عندما كانت في روضة الأطفال. أرادت سابينه محو كل ذكرى تربطها بوالدها، وعلى رأسها كارل كولهوف؛ لأنها كانت تعرف يقينًا أنه لولا التقاليد المستقرة في آل جروبر، لسلَّم الأبُ مقاليد الأمور في المكتبة إلى كارل كولهوف. تصفَّحت سابينه جروبر وجوه الموظفين فردًا فردًا، وفهِمتْ أنهم لا يريدون قطع صلِتهم بسيرة الأب جوستاف جروبر، وأنَّ كارل كولهوف هو همزة الوصل بينهم وبين روح الفقيد، ومن ثمّ بدا لسابينه أنه ربما لا يكون هذا هو التوقيت المثالي لِكَسر حلقة الوصل بين الأب الراحل وبينهم، ومع ذلك رأت أنها ربما تكون فرصتها الذهبية لإظهار العين الحمراء وتقليم أظافر الجميع، فقالت بنبرة تهديدٍ حازمة فهِمَها الموظفون جميعهم:

- حسنًا سيبقى كارل كولهوف في المكتبة، فقط حتى إشعار آخر.

اربدَّ وجه كارل، وأخذ يحزم الكتب واجمًا، صحيح أنَّ طي حواف الورق، وتمزيق الشريط اللاصق بغرض لصق الغلاف السوليفان، وصوت خشخشة أغلفة الكتب إذ تحتك ببعضها في حقيبة ظهره، صحيح أنّ كل ذلك مما هدّأ من روعه قليلًا، ولكنه لم يطفئ نار قلبه المتقدة. كل ذلك أدرك كارل أن كلام سابينه هو المسمار الأخير في نعشه، وأنَّ خطأً واحدًا مهما بدا تافهًا أو بسيطًا، فسيؤدي قطعًا إلى إقصائه من المكتبة. غلَّف

الكتب الأخرى التي سيُهديها إلى زبائنه لإدخال السعادة في قلوبهم وفق خُطة شاشا.

فكَّر كارل في نفسه: ترى ما الكتاب الذي سيختاره لنفسه لو طُرِد من المكتبة؟ ليس من شكٍّ في أن حاسوب سابينه جروبر سيوصي بكتاب حول الأنشطة اللائقة برجلٍ في سنِّه، مثل: أنشطة البستنة، والطهو، وحياكة قبعات الكروشيه، والرسم على الحرير، وربما الالتحاق ببرامج تعليم العجائز. في استطاعة كل هذه الأنشطة إدخال السعادة إلى قلب المرء، شريطة ألا يكون قد هَجَر الشيء الوحيد الذي جرى في دمه طَوال عقود، وإلا تحوّلت تلك الأنشطة إلى مجرد بديل عقيم مذاقه مرٌّ مرارة قهوة مصنوعة من حبوب الهندباء في فمّ رجل اعتاد شرب القهوة المصنوعة من حبوب البنّ الطازجة.

ظهرت شاشا، لكن حتى رؤيتها في معطفها الشتوي الأصفر كشمس ساطعة فوق سماء ملبدة بالغيوم، لم تُحسِّن حالته المزاجية. حيَّتْه قائلة:

ـ تبدو حزينًا اليوم.

ـ بل أنا على الحال نفسه.

رجعت شاشا خطوتين إلى الوراء لتدقق النَّظر، وقالت:

ـ عيناك مختلفتان.

ـ ليس لدى المرء إلا عينان اثنتان، وليس في مقدور أحد تغيير عينيه.

ـ هل كنتَ تبكي؟

ـ لا...

ـ ربما كانت أعماقك هي التي تبكي، لا عيناك، ربما كنتَ تبكي بقلبكَ.

ـ وهل ترَيْن دموعَ قلبي؟

ـ نعم.. ولِمَ لا؟

ـ ولِمَ أبدو مختلفًا إذا كنتُ أبكي بقلبي، لا بعيني؟

ـ لأنّ عينيك تشعران بالخجل، فالبكاء وظيفة الأعين، وليس القلوب.

وضع كارل طرف إصبعه أسفل جفنيه ليتحسَّس ما إذا كان جفناه يبثّان حزنًا كما تزعم شاشا، ويحتاجان إلى التنفيس عن كربِها بالبكاء. سألته شاشا: مكتبة سُر مَن قرأ

ـ هل أستطيع أن أطرح سؤالًا ثانيًا؟

ـ وجهُكِ مكشوف في العادة يا شاشا، ولا تطلبين الإذن أبدًا لطرح أي سؤال.

ـ لكني قلِقة هذه المرة، ربما تجد سؤالي سخيفًا.

- وما الذي جدَّ في الأمر، طالما كنتِ تطرحين الأسئلة دون قلق أو انزعاج...، هيا اطرحي سؤالكِ.

- هل عثرتَ على اسم بطلة رواية يليق بي؟

- كلا..، لا يتبادر إلى ذهني أي اسم بطلة روائية تليق بكِ.

- لكني محتاجة إلى اسم بطلة روائية..، ربما كانت عليك قراءة مزيد من الكتب يا كارل.

- يبدو أنني سأنقطع إلى القراءة وحدها في القريب العاجل.

قالها كارل ولم يوضِّح مغزى كلامه، وفي هذه اللحظة جاء الكلب على غير موعده، وفَرَكَ ساقه بساق كارل اليمنى، حيث يحتفظ في جيبه بعلبة السكاكر، إلا أن كارل لم يعطه شيئًا، فهل سيعود مجددًا؟ أحنى كارل جسمه ليمسّد على رأس الحيوان الصَّغير، ولكنه انسلَّ من بين يديه، فاختلَّ توازنه على الفور، وسقط، فارتطمت رأسه بحجارة الرصيف القديم التي لم تزل على حالها صلبة خشنة منذ قرون طويلة، ولم يَلِنْ ملمسها من أثر وطء عربات الخيول أو مسارات الدبابات في سنوات الحرب.

خرَّ كارل على ركبتيه أولًا، ثم هوى بجسمه على الأرض، ومع أن الألم الذي سرى في أطرافه كان مؤلمًا ومريرًا، كان شعوره بخيبة الأمل أمرُّ وأقسى. لم يسبق لِكارل أن سقط على

الأرض في جولات تسليم الكتب قط؛ لأنه كان واثقًا من حذائه المتين، ومن جواربه السميكة وساقيه القويتين. ويبدو أن دوائر الحياة قد بدأت تدور عليه، حيث تعاقبت عليه هجماتها من كل حدب وصوب، وتداعت على رأسه نوائب الدهر كما تتداعى الذئاب المفترسة على شاةٍ جريحة. قالت شاشا وهي تمدُّ يدها إليه:

ـ قُمْ، هيا..، سأساعدكَ في النهوض.

أمسك كارل بيدها، لكنه اتكأ على حجارة الرصيف بدلًا من أن يجرَّ شاشا إليه، ويُفقِدها توازنها، فبادرته بقولها:

ـ دعني أحمل عنك حقيبة الظهر، أستطيع حمل الحقيبتين في آن واحد.

ـ لا.

قالها كارل عندما نهض واقفًا مرة أخرى. آلمته ركبتاه، والتهبت راحتا يديه:

ـ لا يحسن بي الانطلاق في هذه الجولات دون أي حقيبة ظهر تحفظ لي توازني.

أعطَتْه شاشا حقيبة ظهرِه التي انزلقت على أثر سقوطه، وقالت:

ـ ما أثقلها! هل تسلِّمُ الكتب بصرف النَّظر عما إذا كنتَ تحبّها أو لا، أم أنكَ تُسلِّم الكتب المنسجمة مع ذوقكَ فقط؟

ـ تُعجبني أسئلتكِ.

قالها كارل وهو يزيل التراب العالق بملابسه، وأردف:

ـ لكني لا أجد في نفسي القوة اليوم لتسليم كثير من الكتب.

ـ هذا ليس جوابًا عن سؤالي.

أطلق كارل زفرة وقال:

ـ أُسَلِّمُ الكتب التي لا تروقني أيضًا، أو لا تخاطب ذوقي، كما تعلمين لا يوجد كتاب قادر على مخاطبة أذواق الجميع، بل حتى الكتاب الرديء في مقدوره توليد أفكار لامعة، لا ضير في قليل من التفاهة أحيانًا، ولكن على الإنسان أن يأخذ حذره؛ كيلا يخرج الأمر عن السيطرة، فتنتشر هذه النوعية من الكتب، ويذيع صيتها بين النَّاس.

كان كارل رجلًا صادق القول، لا يكذب إلا نادرًا، ولو كذب، فإنه يفعل ذلك على مضض، ولذلك فمتى سأله أحد عن كتاب تافه رديء، أخبره أن طبعاته نفدت للأسف، لكنه كان يشعر بالخجل من نفسه إذ يقول ذلك، وفي إحدى المرات امتنع عن جلب كتاب طلبته السّيّدة إيفي بدعوى نفاد طبعاته؛ لأنه سمع أن قارئةً أصابها الاكتئاب الحاد بعد قراءته.

ـ لديَّ سؤال آخر.

ـ أكررها ثانية: لا أريد الكلام اليوم.

ـ سؤال واحد أخير..، أرجوك..، أرجوك..، أرجوك.

ـ وهل سيضيرِكِ شيئًا لو لم تسألي؟

عـدَّت شاشا هذه الإجابة موافقة ضمنية على طلبها، بل إنها كانت ستطرح سؤالها حتى لو رفَضَ. وفي تلك اللحظة داهمَ الصَّغيرةَ شعورٌ غامض بأن كارل سيغرق في مستنقع الحزن اليوم لو لم تتجاذب معه أطراف الحديث، ورأت في كلامها معه طَوق نجاة لتظلَّ أفكاره وحياته في مأمن من الغرق.

ـ هل سبق أن رفضتَ تسليم كتاب بعينه إلى عميل؟ أو ألغيتَ طلب تسليم كتاب بعينه؟

انزعج كارل بعد هذا السؤال انزعاجًا قوية نسي معه مرارة أحزانه.

ـ نعم، فعلتُ ذلك من باب الدفاع عن النفس، مثلما أنا الآن على وشك لزوم الصمت من باب الدفاع عن النفس أيضًا.

ـ هل كان العميل هو زوج إيفي؟ هل خشيتَ أن يضربكَ؟

ـ ماذا..؟ لا...؛ ولكن أين ذهب الكلب؟ لقد فرَّ القط بعيدًا دون جلبة!!

ـ ولِمَ فعلتَ ذلك يا كارل؟ هيا أخبِرني.

أخذ كارل نفسًا عميقًا، لم يكن في حالة مزاجية تسمح له بالإجابة عن سؤال شاشا، ومع ذلك لم يرغب في إغضابها،

ولم يشأ أن يفقد رفيق دربه الوحيد الآن، واعترف لنفسه أنَّ بقاءه وحيدًا أدهى وأمَرَّ من الردّ عن أسئلة شاشا.

- رفضتُ تسليم الكتب لزبونة اعتادتْ ليَّ كعوب الكتب الجديدة ليًّا عنيفًا حتى يتمزق الغلافان الأمامي والخلفي، وهو ما كان يؤذي مشاعري.

- يا لها من امرأة مريضة!!

كادت شاشا تبصق على الأرض من فرط ازدراء سلوك المرأة، لكنها وجدته سلوكًا منفّرًا.

- قالت المرأة: إن هذا يُسَهِّل عليها الإمساك بالكتاب، ويجعله لا ينفلت من بين يديها، وكانت تسارع بصبر نافد إلى ثني كعب الكتاب بعنفٍ بمجرد فضّ الغلاف، الحقيقة لم أستطع تحمُّل ذلك المشهد. والآن هل يرضيكَ ما رويَتُه؟

خطر ببال شاشا الكتب المرصوصة في حقيبة ظهرها، وقالت:

- أظن أنكَ أحسنتَ التصرف..، هل تريد تناول شيءٍ من الآيس كريم؟

- أهذه بتلك؟

- ليس الأمر على هذا النحو، وإنما قلت ذلك؛ لأن الآيس كريم يُحسِّن مزاجَ الإنسان عمومًا.

ـ لكن المثلجات لن تحلَّ المشكلات جميعها، ولاسيما مشكلتي.

ـ ليس صحيحًا، وإنما تناول المثلجات هو الحلُّ السحري القادر على معالجة مشكلات البشرية كلها، وهذا موطن قوتها.

أصرَّت شاشا أن يتناول كارل مثلجات من متجر Pino's، ونصحته بأن يجرِّب نوعًا اسمه (آيس كريم البطريق)، وهو مُكوّن من كريمة الشوكولاته الداكنة بالبندق، وكان مذاقه رائعًا روعة تفوق الخيال، وربما اكتسب هذا النوع مذاقه الفريد من نَثْر مسحوق السكاكر الملونة الذي اختارته شاشا، ولقد صَدَقَ كلام شاشا، حيث ساعد الآيس كريم في تحسين حالة كارل المزاجية، وبينما كانا يسيران سقطت بضع قطرات على زوج حذائه الأيمن، مما جعل طرف الحذاء يبدو مثل وجه ذي عينين وتعابير هزلية، فأغرق الاثنان في الضحك.

في مساء ذلك اليوم أبلَغَ كارل زبائنه أنّ عليهم من الآن فصاعدًا تسجيل طلبات الكتب الجديدة لديه شخصيًّا، وليس في إدارة المكتبة، ويُفَضَّل إبلاغه في أثناء تسليم الطلبية، أو عبر مكالمة هاتفية، وقال: إنه متاح على مدار اليوم، ومع ذلك اعتقد كارل أن مكمن الخطر الحقيقي هو نجاح سابينه في إقناع الزبائن بالتوقّف عن طلب خدمات إيصال الكتب من كارل، وعندها لن تسمع صاحبة المكتبة اعتراضًا على إقالته، فمن دون وجود زبائن لا ضرورة لوجود كارل.

لم تجلب شاشا هذه المرة كتبًا إلا للزبائن الذين لم تُهدِهم كتبًا قط. أهدَتْ شاشا الدكتور فاوستوس تقويمًا يضمُّ صور أجمل كلاب العالم، وبذل الرجل مجهودًا خرافيًّا ليظهر بمظهر السعيد بهذه الهدية، مع أنه لم يكن سعيدًا في الحقيقة، كما أهدى كارل السّيّد دارسي طبعة نادرة موشّاة بنقوش بارزة من رواية (كبرياء وهوى)، واصفًا إياها بأنها تعبير بسيط عن امتنان المكتبة لوفاء السّيّد دارسي في شراء الكتب حصريًّا منها على مدى سنوات طويلة، إلا أن الأخير ردَّ بأنه تلقّى بالأمس كتابًا رائعًا بمناسبة عيد ميلاد كارل، وأنه وجد الكتاب الذي أهدته شاشا إياه عن فن البستنة أروع مما توقّع، ثم رمق الصَّغيرة بطرف عينه، فامتقع لونها خجلًا، وتمنّت لو انشقت الأرض، وبلعتها بعد أن كُشف سرّها.

لم تطلب السّيّدة إيفي كتبًا هذا اليوم، ومع ذلك مرَّ الاثنان بمنزلها بغرض الاطمئنان عليها. وجدا أنوار المنزل مطفأة، ثم قرعا الجرس، ولم يجب أحدٌ، فوضع كارل كتاب: (خزانة الأدوية الشعرية للدكتور إيريش كستنر)[1] في صندوق البريد، حيث جال بفكرِه أن إيفي في أمسّ الحاجة إلى عون نفسي في

---

(1) مجموعة قصائد غنائية كتبها الأديب الألماني إيريش كستنر سنة 1936، وقد اتخذ الكاتب من نموذج الأدوية وصفاتها وسيلة شعرية لمداواة القُراء، حيث يجد القارئ وصفات لمداواة آلامه الجسدية أو النفسية مبوّبة تبويبًا أبجديًّا من A إلى Z (المترجم).

جوانب شتى من حياتها، وإنْ لم يكن واثقًا ما إذا كانت قوافي كاستنر الشعرية الرائعة ستفي بالغرض أم لا.

ثم انطلقا بعدها إلى بيت **هرقل**، ولمّا جلس الثلاثة إلى طاولة المطبخ سألته شاشا عن شكل الفتى فيرتر (تذكّرَتْ اسم البطل بسهولة)، فما كان ردّ هرقل إلا أنْ قال:

- إنها رواية رسائل عن محامٍ شاب اسمه فيرتر، وقع في غرام الجميلة لوتّه، المخطوبة لرجل آخر.

استولى الذهول على شاشا؛ لأن الشاب استعمل بالضبط كلمات كارل لوصف الرواية، وكأن هرقل حفظها عن ظهر قلب، وقع اختيار كارل على كتاب ذي غلاف أحمر، فيه عصارة روائع الأدب العالمي. أظلم جبين الشاب لمّا فتح الكتاب، وأخذ يتصفّحه ذاهلًا حائرًا، وتلاشت الابتسامة من وجهه. قال كارل:

- من هذه اللحظة فصاعدًا، فلن تحتاج إلى مساعدتي في تلخيص الروايات؛ لأنك ستجد في هذا الكتاب خلاصة شافية وافية على يد كِبار المتخصصين في الأدب.

اختفت الابتسامة الخافتة من فوق شفتي هرقل مجددًا، وذوت كما تذوي شعلة مصباح منير. انتبهتْ شاشا على الفور، فمالتْ نحو كارل ونبَّهته:

- راقب حركة عينيه.

بعدها فتحت شاشا الكتاب والتفتت إلى هرقل، ومرَّتْ بطرف سبابتها على فهرس المحتويات، وقالت:

ـ ستجد هنا جميع أسماء الروايات الكبرى، على سبيل المثال: رواية جزيرة روجِن الشهيرة، هل قرأتَها؟

ـ لا، لمَّا أقرأها بعد.

أشارت إلى رواية أخرى بعنوان خروف عائلة شتاين، ومضت تقول:

ـ ولكن من المؤكد أنك قرأتَ هذه الرواية؟

ـ لسوء حظي لم أطّلع عليها..، ومع ذلك عليكَ أن تواصل الكلام عن الروايات والكتب معي يا سيد كولهوف، القراءة ممتعة بلا ريب، لكنَّي أشعر أن الرواية تدبُّ فيها الروح بمجرد أن ترويها أنتَ على مسامعي.

ـ تسعدني مواصلة حكي القصص والروايات مادامت هذه رغبتكَ.

عندها عاد البِشْر والصفاء من جديد إلى وجه الشاب هرقل الذي أراد معرفة أحداث روايتَي جزيرة روجِن وخروف عائلة شتاين، فجعل كارل يتخيّل ويحكي ويروي بقدر ما يستطيع، مع أنه لم يقرأ أي كتاب من الكتابين لسبب بسيط: أنه لا وجود لروايات بهذه الأسماء من الأساس. بعد انتهاء الزيارة ومغادرة الشقة، زفر كارل زفرة عميقة وقال:

ـ هرقل أُمِّي لا يستطيع القراءة والكتابة.

ـ يا له من مسكين!

ـ ولكن ما هذه الأسماء العجيبة يا شاشا: جزيرة روجِن والخروف وما إلى ذلك؟

ـ سافرتُ السنة الماضية إلى بيت عائلة شتاينر بصحبة أبي، وكانت العائلة ترعى قطيعًا من الخراف والأغنام، رأيتها كائنات وديعة للغاية، ولم تتبادر إلى ذهني فكرة أسرع من هذه..، هل يمكننا تقديم أي نوع من المساعدة إلى هرقل؟

ـ أكيد.

ـ لكني أفكّر أن إهداء الكتب لن ينفعه في شيء.

ـ بالطبع يا شاشا، يجب علينا أن نساعده، ولكن لا ينبغي عليه الخجل؛ لأنه بالقطع يشعر بالخزي من نفسه في هذه اللحظة أكثر من أي وقت مضى، أعلم أن شعور المرء بالخجل من نفسه مؤسف؛ لأنني طالما شعرتُ بالخجل من نفسي.

غشي الصمتُ الاثنين وهما يمشيان، وبدأ تأثير مثلجات البطريق يزول من نفس كارل، فشعر بتعكّرِ المزاج، ثم تساءل في نفسه: هل يكون على الإنسان أن يتناول فوق طاقته من المثلجات أحيانًا ليواصل عيش الحياة؟!

في طريق العودة مرَّا بمنزل القارئ، ومع أنهما لم يحملا كتابًا يهديانه إياه، سألت شاشا:

- ترى كيف سيبدو مخطوط روايته التي أعطاكَ إياها؟ هل يمكنكَ أن تكتب للرواية نهاية سعيدة؟

لم يكن كارل قد قرأ كلمة واحدة من مخطوط العمل، لكنه تنبّه إلى صعوبة تأجيل المسألة أكثر من ذلك.

في منزله أزاح كارل الكرسي الضخم من أمام النافذة الهائلة الممتدة من الأرض حتى سقف الغرفة، حيث تلاشت رغبته في رؤية مدينته الأثيرة هذا اليوم، ولم تكن له رغبة أيضًا في تصفُّح وجوه النَّاس في الشوارع والأزقة، ولا البحث عن الكلاب والقطط فوق الأسطح كما اعتاد. كانت شوارع المدينة تنضح بكثيرٍ من الألم والخوف. أعدَّ العدة للانغماس في القراءة، وعلى رأسها: قدح كبير من شاي الأعشاب، ثم وضَعه فوق مدفأة صغيرة؛ كي يحتفظ بحرارته أطول فترة ممكنة.

دأب كارل على تقسيم القُرّاء إلى ثلاث فئات: الأرانب، والسلاحف، والأسماك، وكان كارل ينتمي إلى فئة الأسماك، فكان مثله في قراءة الكتب مثل سمكة تترك نفسها تنجرف في صفحات الكتاب، فيجذبه التيار على مهل تارة، وبسرعة تارة أخرى. أما القارئ الأرنب، فهو القارئ السريع الذي إذا أقبل على قراءة الكتاب تَصَفحّه سريعًا، لكنه سرعان ما ينسى الذي قرأه بعد بضع صفحات، فلا يجد بُدًا من العودة إلى الصفحات السابقة لتذكَّرها. والقُرّاء السلاحف يسيرون على المنوال ذاته؛

لأنهم يقرأون على مهل شديد إلى درجة أنّ قراءة كتاب واحد تستغرق منهم شهورًا، ذلك أنهم يقرأون صفحة واحدة فقط كل ليلة، ثم يخلدون إلى النوم بعدها، وأحيانًا يعاودون قراءة صفحة الليلة الفائتة؛ لعدم وثوقهم من استيعاب ما قُرِئ الليلة الفائتة.

ومن الوارد أن تتحوّل أنماط القُرّاء الثلاثة في أي لحظة إلى طائر (أبو طيط) الفضولي، فينتقلون إلى قراءة خاتمة الكتاب أولًا، ثم يرجعون إلى قراءة الكتاب من أوله لآخره، لكن كارل رأى أنَّ هذا السلوك أقرب إلى مَنْ يذهب إلى مطعم، فيبدأ في تناول الحلوى أولًا قبل الطبق الرئيس. صحيح أنه يشعر بحلاوة المذاق، لكنَّ التلذذ بالطعام لا يأتي قبل أن يأكل الإنسان الطبق المُملَّح الرئيس. ومع ذلك، وبصرف النَّظر عن فئة الحيوان التي ينتمي إليها القارئ، فما من شكٍّ في أن اللحظة التي كان يفتح فيها كارل كتابًا جديدًا هي لحظة حاسمة، دائمًا ما كانت تبعث القلق في نفسه. تُرى هل سيرقَى العملُ إلى توقّعاته على ضوء العنوان الجذاب والغلاف البرّاق والدعاية المكثفة؟ ربما يفوق محتوى الكتاب كل ذلك ويكسر التوقعات؟ وهل ستنجح لغة الكتاب وأسلوب مؤلفه في مخاطبة روحه والتأثير فيه؟

أمسك كارل مخطوط الرواية وشرع في القراءة، لكنه لم يكد ينهي الجُملة الأولى حتى طَرَق سمعَه صوتُ القارئ الدافئ، وانتابه شعور غامض أن الرواية مُكوَّنة من الكلمات التي يستعذب النَّاس سماعها، وأنَّ كل سطر فيها مكتوب بمِداد الأذن

المرهفة، وليس بقلم الكاتب. ومع احتواء الرواية على كلمات قاسية، لكن القارئ انتقى مفردات ذات جرس موسيقيّ مُبهج.

بطريقة تلقائية بدأ كارل في قراءة مخطوط الرواية بصوت مرتفع، وهو ما لم يسبق أن فعله قط. انغمس في القراءة بكل جوارحه فيده لم تمتد إلى فنجان الشاي مرة واحدة. حقيقة الأمر أنَّ كارل قرأ كتابين في الوقت ذاته دفعة واحدة، فبطل الرواية (الأصم الأبكم) الذي طالما تاقتْ نفسه إلى تعلُّم رقصة التانجو، كتب في السرّ رواية عن قبطان منطاد هواء ساخن، جهَّز منطادًا هائل الحجم إلى درجة أنه استوعب كل ما يحتاج إليه الإنسان في عيشته، بحيث لا يضطر إلى أن تطأ قدماه الأرض مجددًا، وعندما يقطع الأصمّ الأبكم علاقته بمعلِّمة الرقص بعد أن اكتشف كذبها عليها طَوال الوقت، يُفكّر ألا يضِّنَ على قائد المنطاد بالسعادة، فيسمح له بالهبوط ليجتمع شمله بحبّ حياته، فيعثر المحبّ على محبوبه، ويهبطان إلى الفردوس الأرضي لو صحّ التعبير. ربما تَقْبَلُ شاشا هذه النهاية شبه السعيدة. ابتسم كارل عندما فكر فيها، وشعر في هذه اللحظة بمدى افتقاده إليها إلى درجة تفوق افتقاده إلى تسليم الكتب للزبائن.

في اللحظة التي أنهى فيها كارل قراءة مخطوط الرواية غمرته فرحة هائلة، وإنْ خالطها شيء من الحزن، ومبعث حزنه أن الرواية حتى لو انتهت نهايةً سعيدة، وحتى لو اختار كاتبها

الكلمات اللائقة، فصارت أي كلمة زائدة تقويضًا لروعة العمل الفني واكتماله، حتى لو كان ذلك كله، فلا جَرَم أنَّ القارئ سيُمَنِّي نَفسَه بألا ينتهي الكتاب أبدًا، وهذه هي مفارقة القراءة؛ رغبة القارئ في أن ينتهي الكتاب، وألا ينتهي في اللحظة نفسها.

اعتقد كارل أنه سيخبر القارئ بطبيعة الحال بتأثّره البالغ بهذه الرواية، ومع هذا تطرَّق إليه الشك في أنّ الإعراب عن رأيه وحسب لن يفي بالغرض؛ لأنه رأى ضرورة أن يُشعر مؤلّف مخطوط العمل الشعور بمدى جودة روايته، فنبتت في رأسه فكرة تحقّق له مراده.

الفصل الخامس

الكلمات

ما أشد اندهاش كارل من أن مزاج أبطال الروايات يُوَجِّه بوصلة أحوال الطقس!! فمتى اعتدلت أحوالهم المزاجية، اعتدلت أحوال الطقس، وذلك على نقيض مدينة كارل كولهوف التي ضرَبَت عُرْض الحائط بحالته المزاجية، فبينما امتلأ كارل بالحماسة والطاقة وهو يغادر بيته، تلبَّدت سماء المدينة بغيوم رمادية كئيبة، بل حتى قطرات المطر اليسيرة المتساقطة كانت ناضحة بهذه القذارة الكئيبة. اكتفى برفع ياقة معطفه؛ لأن المطر لم يهطل بغزارة تجعله يفرد المظلة، حيث كان ينتظر بضع قطرات أُخَريات؛ كي يشرع المظلّة الواقية، ثم سرعان ما زخّت الأمطار زخًّا فوق رأسه.

في هذه المرة كان هطول الأمطار بغزارة موافقًا لِمزاج الصَّغيرة شاشا؛ لأنه لمّا رآها وجدها تعتمر قبعة صفراء مُزوّدة من طرفها الأمامي بنظارة شمسية تشبه نظارات الطيارين

الشراعيين، وقد أرختها لتغطّي نصف وجهها، فبدت هيئة شاشا كهيئة شمسٍ كاسفة.

ـ ما الذي جرى؟

بدت نبرة صوتها كأنها لسانها سينطلق باللعنات والسباب وهي تقول:

ـ سيمون الأحمق!

سألها كارل بعد أن تذكَّر كلامها عن قدرة المثلجات على تحسين الحالة المزاجية للإنسان؟

ـ ماذا لو تناولنا مثلجات البطريق كالمرة الفائتة؟

ـ لا أريد.

ـ وما رأيكِ لو أضفنا رشّات السكاكر الملوّنة؟

فأجابت شاشا على الفور:

ـ لا بأس، ولكن لنذهب إلى محل المثلجات الآن، ودون إبطاء.

وكانت هذه أول مرة يغيِّر فيها ساعي بريد الكتب خطَّ سيره اليومي منذ زمن بعيد. في هذا اليوم كان متجر بينو يقدِّم الآيس كريم إما بإضافة طبقة من الشوكولاته السائلة، وإما بِذَرِّ مسحوق حلوى الشترويسل Strusel[1]، لكن شاشا أرادت

(1) خليط من الطحين، مُكوَّن من الزبدة والسكر (المترجم).

الإضافتين معًا، أما كارل، فقد اكتفى بِكُرة آيس كريم واحدة؛ كيلا تضطر شاشا إلى تناول الآيس كريم وحدها. انفرجت أسارير وجه الاثنين بعض الشيء؛ لأن أكْل الآيس كريم والوجه العابس لا يجتمعان أبدًا. سألها كارل:

ـ والآن أخبريني: ماذا فعل لكِ سيمون؟

لعَقتْ الصبية كرة الآيس كريم التي سالت قطراتها أسفل القِرطاس، وقالت:

ـ في أثناء فترة الراحة جاءني ودفعني دفعةً قوية ناحية الشجيرات، فُخُدِش ذراعي.

ثم كشفت عن ذراعها، وأضافت:

ـ حتى نزف الدم هنا..، انظر.

بالطبع كانت شاشا تعرف أنها مجرد خدوش خفيفة؛ بسبب الاحتكاك بشجيرة صغيرة، وأن الأمر لم يزد عن كونه دفعة طفيفة، وأنها لم تسقط إلا بسبب ثِقَل حقيبة ظهرها المكتظة بالكتب، وهو ما أفزع سيمون الذي ولّى هاربًا في التو، ولكن لا بأس من تلميع مآسي الحياة لتشويق السامعين. قال كارل:

ـ من المؤكد أن تلك الدفعة القوية قد آلمتكِ للغاية.

ـ نعم، آلمتني بشدة.

ـ هل يجب أن أنفخُ فيها ليزول الالتهاب؟ .... بففف .....

ففففف .... فففف! ذلك من شأنه أن يساعد في شفاء هذا الجرح، إنه جرح حقيقي.

ويبدو أنَّ التأثير العلاجي للنفخ في جروح الأطفال عادة عتيقة اختفت مع اختفاء زهوة وتأثير سانتا كلوز وأرنب عيد الفصح في العصر الحالي. قال كارل:

ـ أعتقد أنَّ الولد سيمون مُعجب بكِ.

ـ ألذلك دَفَعني دفعة قوية؟

لعقت شاشا قرطاس المثلجات بحركة عنيفة لإظهار استيائها من كلام كارل الذي أضاف:

ـ نعم، فالأولاد يقومون باللجوء إلى العنف في هذه السنّ المبكرة؛ لأنهم يجهلون طريقة التعامل المُثلَى مع الفتيات.

ـ لكنهم، مع ذلك، يعرفون كيف يدفعون الفتيات بعنفٍ حتى يسقطنَ.

ـ بالضبط، وهو ما يُطلق عليه في علم السلوك ظاهرة التواصل السلبي، وهي ظاهرة مُثبتة علميًّا.

ـ ولو.....! سيمون ولد أحمق.

ثم قضمتْ قرطاس المثلجات حتى تهشَّم. يعتقد كارل أن كلمتي (أحمق) و(صبي) مترادفتان في رأي جميع الفتيات في سنِّ شاشا، فأجاب موافقًا على رأيها:

ـ كل الأولاد حمقى حتى يبلغوا مبلغ الرجال، ولو عثر حظهم يصيرون رجالًا حمقى..، ما رأيكِ؟ هل نذهب إلى سيمون ونردُّ له الصاع صاعين؟

لم تصدِّق شاشا أذنيها أول الأمر، فنظرت إليه نظرة ذهول، أعقبتها ضحكة واسعة بدت لها نواجذها، وتناثر فُتات قِرطاس الآيس كَريم من فمها. استغرق الأمر بضع لحظات قبل أن تستردَّ أنفاسها من نوبة الضحك، وقالت:

ـ لا، لستُ حمقاء مثله، أريد أن ننطلق الآن لتسليم الكتب.

ومع ذلك راحت شاشا تسبُّ سيمون وهي في طريقها مع كارل إلى الأخت أماريليس، ثم سبحت في أفكارها، وطافت بذهنها ذكرى الأشياء البغيضة التي أثارت استياءها من سيمون مؤخرًا، لاسيما عندما رَسم وجهًا أبله على حافظة أقلامها، وأخفى حقيبتها المدرسة (جوار حقيبته)، ولمّا اختارها في فريق لعبة كرة اليد بالرغم من علمه بمستواها الضعيف في هذه الرياضة. كان يتربّص بها الدوائر ويقف لها بالمرصاد. سألت الصَّغيرة نفسها: ماذا فعلتُ له؟ تذكّرت أنهما كانا يلعبان في روضة الأطفال لعبة الأب والأم والطفل، وكان الطفلُ إما دميةً على شكل أسد من المِخمل، وإما طفلة ذات أذنتين هائلتين في حجمهما.

في هذه المرة طلبت الراهبةُ رواية بوليسية تحبس الأنفاس، وتسيل الدماء من صفحاتها، أما كارل، فقرّر أن يُهديها كتابًا قانونيًّا عن (حقوق المواطن في المسكن والإقامة)، فربما تعثر بين ثنايا الكتاب على ثغرة قانونية تمكّنها من مواصلة العيش داخل الدير، فإن لم تجد، فلا جَرَم أنه سيواصل جلب ما تحتاج إليه من دقيق وشُموع في المرة التَّالية.

انطلق الاثنان بعد ذلك إلى بيت السّيّدة لانجشترومف التي فتحت الباب بمجرد أن قُرِع الجرس.

ـ ها قد وصلتما معًا!

غابت فترة وجيزة، ثم سرعان ما عادت وقد عقصت شعرها الأشعث إلى الوراء، وفي يدها كتاب: (اكتشفْ الفرق بين الصورتين). رفعت الكتاب إلى الأعلى، وهتفت:

ـ وجدتُ الفروق كلها.

فتحت الكتاب، وأشارت إلى الأجزاء المظللة باللون الأحمر قائلةً:

ـ بل عثرتُ على اختلافات في النصوص الصَّغيرة المصاحبة للصور، أنا ممتنة للغاية، لم أحظَ بهذا القدر من المتعة منذ زمن بعيد، ربما تعلمان أنني أفتقد تلامذتي بالمدرسة بشدة، وخصوصًا ضعاف المستوى منهم، ومَن لا يستطيعون القراءة؛ لأنهم الأولى من غيرهم بمزيدٍ من الرعاية.

قدحت الجُملة الأخيرة زناد فكر كارل، اختمرت الفكرة في ذهنه على الفور، ثم التفتَ إلى شاشا قائلًا:

- هل يمكنكِ أن تسدي إليَّ معروفًا؟

- بالطبع.

- ولكن دون الحصول على مزيدٍ من المثلجات في المقابل.

ابتسمت شاشا بخجلٍ، وقالت:

- لقد اشتريتَ لي كرة آيس كريم منذ لحظات، لكن لا ضير لو اشتريتَ لي واحدة إضافية نظير هذه الخدمة.

- اذهبي الآن إلى صديقنا هرقل، وتحقّقي من وجوده في مسكنه، وتأكّدي كذلك إن استطعتِ من بقائه في الشقة، وأنه لن يذهب إلى السوق أو إلى صالة كمال الأجسام في حوالي الساعة التَّالية، ثم ارجعي وأخبريني..، هيا أسرعي!

أومأت شاشا برأسها، وأسلمت ساقيها للرياح. في حوالس ذلك مارست السّيّدة لانجينشتومف عادتها اليومية في اكتشاف الأخطاء اللغوية.

قالت شاشا في نفسها: ما أعظم الرَّكض في سبيل غاية نبيلة، فالغاية النبيلة تحمل قدميك على بساط الريح، فتتسارع دقات قلبك تسارعًا محمودًا غير مؤذٍ. أرادت شاشا الركض مسافة بعيدة، إلا أن بيت هرقل كان على مرمى حجرٍ، فوصلت

في لحظات وقرعَتْ الجرس من دون تفكير. جاءها صوت عبر الهاتف الداخلي:

ـ مرحبًا..، مَن الطارق؟

ـ أنا شاشا، من طرف ساعي بريد الكتب..، أقصد من طرف السّيّد كولهوف.

ـ لكنني لم أطلب كتبًا اليوم.

ـ هل أنتَ في الشقة؟ أعني: هل ستبقى في الشقة؟

ـ نعم، لماذا؟

ـ بمعنى أنك لن تذهب اليوم إلى التسوق، ولن تذهب إلى صالة الألعاب الرياضية؟

ـ شاشا؟

ـ ماذا؟

ـ ما هذه الأسئلة الغريبة؟

ـ أريد إجابة بـ: «نعم أو لا»، ويُحبذ أن تجيبَ بـ «نعم».

ـ حسنًا، لن أذهب إلى أي مكان اليوم.

ـ رائع، شكرًا يا هرقل.

ـ ماذا...؟ هرقل...؟

لم يكد هرقل يُنهي الكلمة الأخيرة حتى اختفت شاشا

عائدةً منزل السّيّدة لانجشترومف. رأت شاشا الأخيرة تهِمُّ بارتداء معطف ثقيل، لكنها أخطأت إدخال ذراعها في كمِّ المعطف؛ بسبب ارتعاش أصابعها. خاطب كارل المرأة العجوز مُشجِّعًا بعد أن ناقش معها كل التفاصيل:

ـ على أي حال منزل الشاب على مسافة شارع واحدٍ من هنا، ولو سارت الحصّة الأولى على ما يُرام، فسيأتي لتلقّي دروسَه على يديك هنا في بيتك، ربما يقلّل هذا من رُهاب مغادرة المنزل، فانظري ماذا تَرَين؟

شخَصَتْ السّيّدة لانجينشرومف ببصرها إلى السماء التي رأتها تزداد اتساعًا، فأصابها شعورٌ بالدوار، لكنها أحسَّت بكفِّ كارل الرقيقة تربِّت على كتفها، لم تكن قد غادرت البيت من زمن بعيد إلى درجة أنها شعرت مثل طفلة صغيرة تخطو خطواتها الأولى لتتعرف عِلى العالم. تساءلت: متى غادرت منزلها آخر مرة؟ صحيح أنها خطّطت أول الأمر للتواري عن الأنظار، والاحتجاب عن رؤية السماء والعالَم أيامًا معدودات، وليس إلى الأبد، ولكن الأيام ما لبثت أن تحوّلت إلى أسابيع، ثم تحولت الأسابيع إلى أشهر وسنين طويلة، وكلما مرَّ عليها الزمن تعاظَمَ خوفها من مغادرة ملاذها الآمن وحصنها الحصين؛ لأن الجدران والأسقف كانت تحميها من شرور العالَم الخارجي، على أنّ ما أخرجها من منزلها هذه المرة إنما هو تلميذٌ جديد في أمَسِّ الحاجة إلى علمها، لاسيما بعد أن أوضح

لها كارل أن مساعَدَتها ستكون نافذة الأمل الوحيدة والأخيرة لمحو أُمِيَّة هذا الشاب اليافع، ومن هنا، فلا سبب أنبل من هذا السبب؛ كي تغادر بيتها.

خَفَّت الارتعاشة التي أصابت ركبتيها قليلًا، وإنْ لم تُزلْ تمامًا، وكانت كف كارل القابضة بقوّة وحنان على كفِّ السّيّدة لانجينشتومف صمام أمانٍ لها، ثم هدأ روعها قليلًا لمّا رأت الصَّغيرة شاشا تقفز أمامها ببراءة وسعادة. لم تكد تمضي بضع لحظات حتى انضمَّ إلى ركابهم القط، وأصدرت مواءً يشبه نباح الكلاب. قرعت شاشا جرس منزل هرقل مرة أخرى الذي أجاب عبر الهاتف الداخلي:

ـ مرحبًا؟ «من هناك؟

ـ أنا شاشا من جديد، ولكن معي السّيّد كولهوف هذه المرة.

قال هرقل ضاحكًا:

ـ لكني لم أطلب كتبًا اليوم.

هنا اقترب كارل بفمِّه من الميكروفون وقال:

ـ جئنا في أمر آخر، لو سمحتَ لنا بالصعود.

ـ حسنًا، تفضلوا بالصعود.

عندما وصل الثلاثة إلى الطابق الذي يسكنه وجدوا هرقل في انتظارهم أمام درجات السُلم. قال كارل:

ـ جزيل الشكر على إتاحة الوقت.

ـ على الرحب والسعة دائمًا سيد كولهوف.

ـ أعرّفكَ أولًا بالسّيّدة....

أُسقِطَ في يده، إذ غاب الاسم عن بال كارل تمامًا، فلطالما ناداها باسمها الروائي «لانجشترومف» إلى درجة أنه نسي اسمها الحقيقي، مع أنه كان يرى الاسم محفورًا دائمًا على اللافتة المجاورة لجرس الباب. قالت السّيّدة لانجشترومف:

ـ اسمي دوروثيا هيلزهايم..، تشرّفنا، وبعض الأصدقاء يطلقون عليَّ السّيّدة لونجشترومف.

بعدها رمقت العجوزُ كارل بنظرةٍ ذات مغزى، وهي النَّظرة التي سرعان ما مرّرها كارل إلى الصَّغيرة شاشا، والتي لاذت بالصمت وبصرها شاخص إلى الأرض. ذهب الجميع إلى المطبخ، فقَدَّم إليهم هرقل بعض المشروبات، وجلس إلى الطاولة وسأل:

ـ كيف يمكنني مساعدتكم؟

بادرته السّيّدة لانجشترومف بالكلام قائلة:

ـ أنا مُعلِّمة في مدرسة ابتدائية.

ما أن سمع هرقل هذه الجُملة حتى عقد حاجبيه، وتَحَفَّز مثل ملاكم متمرّس يستعد لتلقّي ضربة من خصمه.

ـ واحد من تلامذتي أُميّ، لا يعرف القراءة والكتابة.

سَعَل هرقل سعلةً خفيفة ليجلو حنجرته، وأجاب:

ـ لستُ متأكدًا كيف يمكنني مساعدتكِ في هذا الأمر، فمهنتي عاملٌ في موقع تشييد وبناء.

ـ أصل الحكاية أن هذا التلميذ يستخفُّ أسلوبي، مع أنني طورت طريقة ممتازة لأعلّمه القراءة والكتابة، صحيح أنني امرأة عجوز؛ لكن قلبي يفيض شبابًا، ومع ذلك، فهو يراني امرأة عتيقة الطراز وغير مرِحة، ولهذا السبب أحتاج إلى شخص ظريف الطبع، ولطيف الروح، ومن جيل الشباب لينصتَ إلى كلامه، عرفتُ أنه معجب بأبطال أفلام الحركة ذوي العضلات المفتولة، وأخبرتُ السّيّد كولهوف بمشكلتي، فطرأت بباله فكرة طلب المساعدة منك».

ـ حسنًا..، ولكن...

ـ بادئ ذي بدء يجب أن أعرفك بطريقتي في التعليم حتى تستطيع أن تلقّنه إياها، لا يصحّ أن نقذف به إلى المياه من المرة الأولى، لن أخفي عليك أن المسألة شاقة، وأن علينا مراجعة طريقة التعليم بحذافيرها حرفًا بحرف؛ لأنني طورت منهجًا تعليميًّا مخصوصًا لائقًا بحالته.

نظرت السّيّدة لانجشترموف إلى هرقل الذي أخذ يفرك أصابعه بعصبية، ثم استطردت:

ـ سأتفهم موقفك تمامًا لو رفضتَ المساعدة، أعرف أني أباغتك بهذا الطلب الغريب، وأنك مشغول بأعمال كثيرة أخرى، لكني لا أفعل ذلك إلا ابتغاء مصلحة هذا التلميذ الذي أحبّه حبًّا جمًّا، وهو فتى نابه حقًّا، لكنه لم يجد من يعلمه القراءة والكتابة، ولا أريد أن تكون الأمّية حجر عثرة في طريق حياته.

رشفت السّيّدة لانجشترومف رشفة من كأس المياه المعدنية، وكان يحدوها أمل قوي في ألا تكون قد أفرطت في الكلام، أو أوضحت مغزى الزيارة، وعندها قالت شاشا:

ـ وعلى سبيل حث التلميذ وتشجيعه، يمكنك أن تخيط له بدلة على شاكلة بدلات أبطال الأفلام الخارقين، يُطرَّز عليها بخط عريض: (كابتن الأبجدية الخارق، أو رجل الألفباء الخارق)، وسأودُّ شخصيًّا أن أتعلَّم أنا على يديك.

عندها أخذ هرقل نفسًا عميقًا وقال:

ـ سيدتي: أودُّ أن أخبركِ بشيء مهم، هذه أروع فكرة سمعتها في حياتي، ولو رفضتُها، فسأكون إنسانًا أحمق، سأشارك بالطبع، لكن في ذهني أسئلة كثيرة أودّ طرحها؛ كي أؤدي المهمة على خير وجه. أريدكِ أن تعلّميني منهج القراءة والكتابة

وكأنكِ ستعلمين ذلك التلميذ؛ لأنني لو كُلِفتُ بمهمة، فيجب أن أنفذها على خير ما يُرام، أظن أنه ليس ثمة ما هو أروع من مساعدة التلاميذ على تعلُّم حروف الأبجدية.

حاول كارل بصعوبة كتم ضحكة كادت تخرج منه، وحذت شاشا حذوه، أما السّيّدة لانجشترومف، فمدَّت يدها لمصافحة هرقل، ورأت في ذلك تمرينًا من تمارين الياقة البدنية. مال كارل على شاشا بتؤدةٍ وقال:

ـ سأحتاجُ إلى مساعدتك مرة أخرى صباح غدٍ، هل في مقدوركِ الاستئذان من أبيكِ للقدوم؟

ـ بالتأكيد سآتي غدًا، فهو يغادر المنزل قبلي على أي حال، وهذا أمر لا يزعجه.

ـ ربما تتأخرين عن موعد المدرسة قليلًا..، ولكن للأسف ما باليد حيلة.

ـ الحصّتان الأولى والثانية صباح غدٍ تربية بدنية، وأتوقع أن سيمون سيدفعني دفعة قويةً خلالهما على أي حال.

ـ لن يستغرق الأمر وقتًا طويلًا، ولكن إذا أردتِ أن تكوني رياضية محترفة يُحبّذ ألا تفوتكِ دروس التربية البدنية.

ـ لا...، لستُ أريد احتراف الرياضة البدنية.

في حوالي ذلك صبَّ هرقل كأسًا للسيدة لانجشترومف ليشربا معًا نخب تدشين المشروع الجديد، وانخرطا في حديث

ودِّي متواصل، وفي هذه اللحظة مال كارل برأسه على شاشا وسألها مجددًا:

ـ وماذا تودّين أن تصبحي إذًا؟

ـ لا أدري.

ـ أنا شخصيًّا حلُمت أن أكون عمدة البلدة.

ـ لكني لا أتمتع بمهارات التنظيم والإدارة، في السنة الماضية نظّمتْ المدرسة معرضًا خيريًّا لرعاية الحيوانات الأليفة، وكُلّف كل تلميذ بمهمة بعينها، كان دوري إعداد كؤوس الليمونادة للضيوف، عصرتُ الليمون بيدي وصببت العصير في دورق، ثم وضعت الدورق على الطاولة فوق مفرش بلاستيكي، وجواره الكؤوس وما إلى ذلك، لكني كنت الوحيدة التي لم تَسِر الأمور معها على ما يُرام، حيث عمّت الفوضى أرجاء المكان، وتحطّمت الكؤوس، فصرتُ مثار سخرية الجميع واستهزائهم، لن أنظِّم شيئًا آخر في حياتي كلها.

ـ لكنكِ مع ذلك أحسنتِ تنظيم واختيار الكتب التي يحتاجها زبائني.

ـ لم يزد الأمر عن اختيار كتاب لكل قارئ، وقد حصلتُ عليها من تاجر كتب نادرة، وليس في هذا شيء من التنظيم، أريد وظيفة يتولى فيها أحد غيري شؤون التنظيم والإدارة، أريد أن أكون موظّفة مثلكَ.

ـ ولكن أين؟

ـ لا يهم، ما دمتُ موظفة، فسيّان في أي مكان أعمل، لكن بشرط أن تكون وظيفة لا أوزّع فيها كؤوس الليمونادة.

* *

استيقظ كارل قبل رنين جرس المُنبِّه. نظر إلى عقارب الساعة مجددًا؛ لأنه لم يحدث قبل زمن طويل أن بَكَّر بالاستيقاظ قبل موعده بنصف ساعة، لم يواصل نومه، بل قفز من فراشه ممتلئًا بالهمّة والنشاط (وإن كانت قفزة خفيفة تلائم سنّه) ليجهَّز نفسه لهذا اليوم المميز، والمقصود بتجهيز نفسه تخفيف التوتر عن أعصابه، كان قد اتصل ليلة الأمس بإدارة مصنع سيجار Torcedor، الكائن في بيشتيل شتراسه، زاعمًا أنه رئيس تحرير جريدة البلدة، وأنه بصدد إعداد تقرير صحافي عن القارئ الذي يعمل لديهم. وشرب نصف زجاجة نبيذ من نوع (سيلفانير)، حتى يكتسب الجرأة لإجراء مثل هذه المكالمة الهاتفية، مما ترتّب عليه أن اختلجت نبرة صوته، وتلعثم بعض الشيء من أثر الشراب، ولم يُدهش صاحب المصنع من ذلك، ربما ظنًّا منه أنّ عادة الصحفيين معاقرة الشراب وهم يعملون.

أخذ كارل يستفسر عن تاريخ تأسيس المصنع، وموعد وصول القارئ يوميًا، وما إذا كان يُحضر كتبه معه أم أنها تبقى محفوظة في خزانة المصنع، فأخبروه أن الكتاب الذي .يتلو منه القارئ على مسامع العاملات والعاملين يظلَّ محفوظًا في مكتبه،

يبدأ العمل في تمام الثامنة صباحًا، ويأتي القارئ بعد ذلك الموعد بنصف ساعة، وكان موعد قدومه مثاليًا عند العاملين بالمصنع.

أنعم كارل النَّظر إلى وجبة الإفطار طويلًا، فقد شعر كما لو أن شخصًا جاء واستبدلها، مع أنَّ كمية الزبد نفسها فوق شريحة الخبز هي نفسها، وقطعة الجبن الجودا Gouda متوسط القِدَم هي نفسها التي اعتاد شراءها دائمًا، فقد اختلف مذاق الطعام على لسانه مثلما اختلف مذاق فنجان القهوة المصنوع من البنّ الخفيف الذي لم يتغير طعمه منذ طرحه في الأسواق أول مرة. لم يتذكّر أنه استمتع بوجبة فطور شهيّة قبل اليوم قط، فاستلذَّها وطاب له مذاق الفطور كأنه يذوق الجبن والزبدة والخبز للمرة الأولى في حياته، واستبدت به رغبة في إعداد شطيرة ثانية بالرغم من شعوره بالشبع.

وبينما كان يأخذ المعطف من فوق المشجب وقعت عيناه على كومة كتب مكدسة فوق خزانة الملابس في غرفة المعيشة، وكان قد تركها في هذا الركن ليعيدها إلى المكتبة ثانية. كانت مجموعة من كتب الأطفال التي جعل يفتّش فيها عن اسمِ روائي يليق بالصَّغيرة شاشا، لكنه لم يفلح في العثور على اسم يناسبها، طال بحثُه، ولم يجد فتاة في كتب الأطفال تشبهها، تساءل في نفسه قائلًا: هل فات الأوان للحصول على اسم روائي ملائم لها؟ إنه يعرف شاشا اليومَ معرفة وثيقة، ولذا

فالاسم المُستلهَم من الروايات أشبه بالمشدِّ المربوط حول الخصر الذي سرعان ما يتفسَّخُ عندما تشبُّ الشخصية عن الطوق، وتتطور، وتشقُّ مسارها الطبيعي طريقها في الحياة، فليس في مقدور المرء إرجاع فَراشةٍ غادرت شرنقتها دودة قزّ من جديد، ومع ذلك، فقد قرّر كارل مواصلة البحث عن اسم يوائم الصبية تمام الموائمة، بعد أن نضجت وصارت رفيق دربه الآن.

بمجرد أن وطئت قدماه الرصيف المقابل للمنزل، فكَّر في السّيّدة لانجشترومف التي دخلت عالمًا غريبًا منذ الأمس، وتسرّب إلى نفسه شعور بأنه يمر بالتجربة ذاتها، صحيح أن هذه المدينة هي مسقط رأسه، وأنه يعرف أرضها شبرًا شبرًا، وأنه يعرف كل موطئ قدم في مساحتها البالغة كيلومترين مربعين، ومع ذلك لم تكن المدينة هي مدينته التي عهدها طَوال حياته، وإنما هي نسخة أخرى لم يسبق له أن مشي في أرجائها قبل التاسعة صباحًا، ولم يسبق أن تجوّل في شوارعها بعد التاسعة مساءً، لم يكن كارل يعرف قاطنيها، ولا هو يعرف ما الذي يعتمل في صدورهم، ولا طبيعة البشر الذين يمشون في شوارعها، ولم يكن له عهدٌ بأصواتهم، ولا علم له بجلبة المدينة في تلك الأوقات .وبينما كان يشقُّ طريقه صوب مصنع السيجار، بدأ يرى مدينته بعينين جديدتيْن، لكنه توقّف قبل الوصول إلى هدفه بمسافة مائتي متر تقريبًا، وبالتحديد عن

إشارة المرور في ذلك الشارع الطويل المزدحم المكوّن من أربع حارات مرورية الذي كان يعني نهاية حدود عالمه.

لم يضغط على الزرّ المخصص لتوقّف المركبات؛ كي يجتاز الطَّريق، وإنما شخص ببصره باتجاه المصنع الذي تمكّن من رؤيته رؤية واضحة من مكانه، عندها وقفت شاشا ولوَّحت إليه، وراحت تلوِّح مرارًا وتكرارًا كأنما ينبت من كل تلويحة جديدة خيط يشدّه ناحيتها. في النهاية ضغط كارل على الزرّ واجتاز الشارع، قاصدًا المصنع. ها هو ذا قد غادر جزيرته الصَّغيرة؛ لأن جزءًا من الجزيرة قد ابتعد عن اليابسة. أما شاشا، فرآها تثب، وتنقل وزنها من قدمٍ إلى أخرى:

ـ والآن، هلا أخبرتني عن سبب مجيئي إلى هنا؟

قال كارل:

ـ أنتِ كلمة السر للولوج من الباب.

ـ لا أفهم!

ـ من الآن فصاعدًا ستلعبين أنتِ دور ابنة شقيق القاري، وأنك تودّين إدهاشَه بمفاجأة عذبة.

ـ ولِمَ لا تلعب أنتَ دور عمِّه؟

ـ لأن صدَّ صبية صغيرة لطيفة مثلكِ غير وارد، أما صدّ شيخ غريب في مثل سني، فهو وارد جدًّا!

- لكني لم أعد صبية صغيرة!

تلفّتَ كارل يمنة ويَسرة ليتأكّد من أن لم يسمع أحد حديثهما، ثم أخذ يتحقق ما إذا كانت إحدى نوافذ عنابر المصنع مفتوحة أو مواربة قبل أن يتابع حديثه:

- ستذهبين إلى مدير المصنع وتخبرينه أنّ عمّكِ ألّف كتابًا لعُمال المصنع، لكنه لا يجد في نفسه الجرأة ليتلوه على مسامعهم بصوت عالٍ، مع أنه كتاب شائق، وستكون خُطتكِ كالآتي: ستذهبين وتضعين مخطوط روايته على المنصّة، وتأخذين كل الكتب الموجودة هناك، ومن ثم لا يكون أمامه إلا أنْ يقرأ من مخطوط روايته.

- بالطبع ما عدا الجزء الذي تكذب فيه البطلة على البطل الأصمّ.

- أتمنى أحيانًا لو كنتِ أصغر سنًّا وسَلسة القياد!

- حسنًا سأفعل، لكني سأضع بصمتي الشخصية.

- أنا لا أعرف إذا ما كان الـ...

- اسمع: سأخبر مدير المصنع أنه من تقاليد عائلتي الاحتفال بيوم العم الطيب الكريم، وأننا سنُقَدِّم له هدية متواضعة.

- ... في الواقع اقتراح أفضل.

كانت هذه كذلك لحظة فارقة في حياة شاشا، فلم يسبق لها أنْ زارت مكانًا تنضح كل غرفه بعبق الدخان. عند مدخل المصنع وجوار المقاعد الداكنة تراصّتْ مجموعة من صناديق ترطيب السيجار(1)، كانت متفاوتة الأحجام، مشرقة بألوان براقة كأنها درٌّ مكنون. لم ترَ شاشا إلا تلك النقانق البنية غير الشهية في كل ركن من أركان المصنع موضوعةً جنبًا إلى جنب مع خزائن العرض الزجاجية وقواطع السيجار الفاخرة، والقدّاحات الثمينة البراقة.

كانت العنابر حارّة ورائحتها عبقة بالدخان، والإضاءة خافتة، حيث لم يكن يتسلل إلا ضوء خافت عبر شقوق مصاريع النوافذ، وثمة موسيقى أجنبية يتناهى صوتُها من مكان بعيد. داهم شاشا شعور غامضٌ بأن كارل يدفعها إلى الأمام دفعًا هادئًا لطيفًا، ثم توقفت فجأةً وقد استولى عليها الذهول من هذا الجوّ الغامض، في هذه اللحظة دخلت امرأة ذات شعر أسود داكن، وبَشرة لونها في لون الشوكولاته بالحليب، وشرعت تتكلّم لغة غريبة، بدا لِشاشا أنّ أصوات تلك اللغة تحتوي حرف R أكثر مما تحمله أي لغة أخرى تعرفها. أما المرأة، فكانت السّيّدة (مرسيدس ريمشنايدير)، وهي نصف كوبية، نصف ألمانية، وكان

(1) Humidor: صناديق خشبية أنيقة الصنع ذات رطوبة ثابتة، وهي مصنعة خصيصًا لتخزين السيجار؛ لأن تخزينه في درجة رطوبة محددة ضروري للحفاظ على سلامته ونكهته (المترجم).

مصنع السيجار هو مزيج من حُلم عذبٍ وكابوس مُقيم في حياتها.

في أيامنا هذه تؤثر شريحة واسعة من البشر أن تعيش حياة سليمة، بدلًا من أن تعيش حياة مليئة بالمتع والملذات، وذلك على خلاف السّيّدة (مرسيدس ريمشنايدير) التي كانت تضع ملذات الحياة فوق كل شيء، وقد آمنت إيمانًا راسخًا بتلك الفكرة، ولم يزعجها أن تبدو واضحة للجميع، فرأتْ أنَّ ارتداء الفساتين المكشوفة أو الضيقة ينبغي ألا يقتصر على النحيفات وحسب. شرعت شاشا في حكي قصّتها على السّيّدة ريمشنايدير دون أن تتطلع إلى وجه صاحبة المصنع، بل كلّمتها وهي منكّسة الرأس إلى أرض المصنع المصنوعة من ألواح خشبية عريضة. ولمّا أنهت حكايتها مسّدت مرسيدس ريمنشنايدر برفق على شَعْر شاشا الداكن، وهي تقول:

ـ يا لها من فكرة رائعة، حسنًا..، تعالَي معي.

وبعد بضع خطوات استدارت السّيّدة وسألت شاشا:

ـ ولكن ألا يُفترض أن تكوني في المدرسة الآن؟

ـ الحصّتان الأولى والثانية اليوم بلا دروس؛ بسبب مرض السّيّدة بروكنر، أظن أنها حامل.

كانت شاشا تعرف أنَّ حبك التفاصيل يُضفي على الكذبة مصداقية أقوى. أزاحت مرسيدس ريمنشنايدر ستارة ثقيلة ذات

لون أحمر قان، فكشفت عن غرفة واسعة تضمُّ نحو عشرين طاولة يجلس إليها عدد غفير من النساء والرجال، سرعان ما رفعوا الرؤوس بطريقة ودّية لتحيّة رب العمل.

أمام كل عامل وعاملة استقرّ لوح خشبي ضخم يُلَفُّ فوقه السيجار، وصناديق من الورق المقوّى فيها أوراق التبغ، هذا فضلًا عن مجموعة من السكاكين لقطع السيجار، ومقصات صغيرة، وفواصل مُحددة لرصِّ السيجار داخلها بعد اللفّ ولوازم أخرى، لكن أهم ما في الأمر كانت الأيدي الماهرة، فعلى رأس أولويات عُمال لفّ السيجار الكوبي أن تكون السيجار ناعمة ومرنة، ويجب أن يتمتّع عامل لفّ السيجار بـ: الدُّربة، والمهارة، والبصر الثاقب؛ لأنه متى تمَّ لفَّ أوراق السيجار لفًّا وفق الأصول والقواعد المرعية، فسيجد الدخان طريقه لاحقًا عبر الأوراق، ولا يُكتَم داخلها.

في صدر الغرفة استقرَّ المكتب الذي يقف وراءه القارئ ليتلو على العُمال قراءة جديدة، وعلى حين غفلة من الحاضرين تسللت شاشا إلى المكتب، ووضعت مخطوط رواية القارئ غير المنشورة فوق المكتب، دسَّتْ في حقيبة ظهرها رواية روبنسون كروزو، ثم عادت مسرعةً إلى كارل الذي قال:

ـ علينا أن نغادر الآن.

ـ لكني أريد الانتظار حتى أسمعه وهو يقرأ.

ـ لا، بل علينا الآن الذهاب إلى المدرسة.

فقالت مرسيدس ريمنشنايدر:

ـ لكني ظننتُ أنّ الحصتين الأولى والثانية اليوم بلا دروس كما قالت شاشا، فابتسم كارل بشفتين مزمومتين وقال:

ـ صحيح، لكن الطَّريق إلى المدرسة طويل، كما أنني لم أعد أطيق الوقوف طويلًا على قدمَي.

جاءت مالكة المصنع من الخلف، ووضعت يديها بحنوٍّ على كتفَي شاشا مُخاطِبةً كارل:

ـ دع حفيدتكَ تستمتع بوقتها، سيأتي القارئ في أي لحظة، ويا حبذا لو اختبأتِ في الجانب الآخر، وإلا رآكِ القارئ، وكُشِفَت المفاجأة.

غادر كارل وشاشا، واتجها إلى الجانب الآخر من الردهة، ووقفا في الظل، وعندها دخل القارئ وحيّا الجميع ملوّحا بيديه من دون أن ينبس بكلمة، كان يُطوّق عنقه بوشاح أحمر، ويرتدي ملابس ثقيلة، ويبدو أنَّه كان يحاول صدّ أي هجمات برد محتملة باستعدادٍ استباقي. همست شاشا وهي تراقب الموقف بأعصاب مشدودة:

ـ سيذهب الآن إلى المنصة.

ـ صه.

قالها كارل الذي تسرّب إليه التوتّر، وإن أخفاه في نفسه ولم يُبدِه. وصل القارئ إلى منصّة القراءة، وتسمَّر في مكانه هنيهة لمّا وقعت عينه على مخطوط الرواية، ثم تلفّت حوله باحثًا عن كارل؛ لأنه الشخص الوحيد الذي أعطاه المخطوط، فلم يجد له أثرًا في أي مكان. عاد إلى المكتب مجددًا ورفع المخطوط ونظر أسفله، ثم نظر إلى الأرض حوله، مفتشًا ببصره عن رواية روبنسون كروزو التي اختفت تمامًا، فلم يصدّق عينيه، وعندها جاءته صاحبة المصنع وسألته:

ـ هل كل شيء على ما يُرام؟

ـ نعم، لقد اختفى كتابي. هل جاء أحد إلى هنا وأخذه؟

ثم توجَّه بالسؤال إلى العُمال:

ـ هل الكتاب في حوذة أحدكم؟

تطلّعت أنظار الجميع إلى السّيّدة مرسيدس ريمنشنايدر التي هزت رأسها هزّة خفيفة لا تكاد تُرى:

ـ ولكني أرى شيئًا ما فوق مكتبكَ!!

تلعثم القارئ:

ـ نعم، لا.. ولكن....!!

ـ هذا كان الكتاب... قد اختفى، ففي مقدروك أن تقرأ شيئًا مما بين يديك، فالجميع في انتظاركَ، بل إنك لو قرأتَ دليل

الهاتف، لأنصتَ الجميع إليك بذهول واستسلام، فصوتكَ العذب يأسر الآذان.

كان القارئ هو نقطة ضعف السّيّدة صاحبة المصنع، وكان صوتُه أشدّ ما يستهويها، بل كان بودّها أن تأخذه بعد انتهاء ساعات العمل إلى منزلها كل يوم، وتُجلسه على كرسي مخصوص ليقرأ لها روايات وقصصًا. سبحت مرسيدس ريمنشنايدر في أفكارها، وتخيّلتَ أنَّ هذا الصوت الدافئ الرخيم جاءها ليقرأ عليها الأدب المكشوف على أضواء الشموع، وهما يجرعان كأسًا كبيرًا من النبيذ الأحمر.

شدَّتْ مرسيدس على يد **القارئ**، واستنهضت شجاعته لقراءة مخطوط الرواية التي تشوّقت إلى معرفة أحداثها، فربما تدور أحداثها عن امرأة نصف كوبية، نصف ألمانية. قال القارئ:

ـ لكن المخطوط ليس مُخصصًا للقراءة على الجمهور.

ـ اقرأ لي..، من فضلك.

نظر إليها القارئ نظرة استعطاف لعلها تغض النَّظر عن هذا الطلب؛ لأن قراءة دليل هاتف أو قراءة الملصقات الدعائية المكتوبة فوق علب السجائر أهون عليه من قراءة سطر واحدٍ من مخطوط روايته على السامعين، إلا أنّها تجاهلت نظراته وذهبت إلى مكتبها، وهي تؤرجح ساقيها انتظارًا لتسمع منه.

مرَّر القارئ أنامله على صفحة الغلاف كما لو أنه يريد

إيقاظ المخطوط من سباته العميق بهزّة رقيقة، ثم شرع قائلًا:

ـ تبدأ رقصة التانجو بـ.....

بدا الأمر ظاهريًّا كأنما نطق القارئ بثلاث كلمات فقط؛ إلا أنَّه لم يفهم أحد غمغمته المبهمة بالرغم من براعته النادرة في الإلقاء، ثم ما لبث صوته أن خَفَتَ كما لو كان مغزولًا من خيوط غير مرئية، ثم شرع في قراءة الجُمل الأولى من الرواية بتؤدةٍ، متكئًا على مخارج الألفاظ ليتحقق من تناغمها وتناسقها. حبس كارل وشاشا أنفاسهما وانتابهما شعور بالغ بالحرج؛ لأنهما ورَّطا هذا الشاب الدمث في موقفٍ لا يُحسد عليه، ومع كل كلمة تخرج من فمه دون لعثمة، ومع كل عبارة تُلفظ دون أن يتثاءب أحد أو يضحك، ازدادت ثقة القارئ بنفسه، ومع رسوخ الثقة وُلِدت لذّة النص، ولذة النُطق بالكلمات، وهكذا تهلّلت أسارير القارئ، وهو ما لاحظه كارل وشاشا بوضوح، مثلما لاحظا أمارات الغبطة على وجه السّيّدة مرسيدس ريمنشنايدر وهي جالسة في غرفة مكتبها.

أخذت كلماتُه بمجامع قلوب العمال الذين تركوا ما في أيديهم، وألقوا السمع بإعجاب، إذ أحسوا أن هذه المرة مختلفة عن المرات السابقة. كان الأمر أشبه بالعرض الأول لحدث عالمي تطمع إليه الأعين. قال كارل متأثرًا:

ـ لقد أسديتِ إليَّ معروفًا لا يُنسى، فلولا هذه الخطوة لتداعت أحلام هذا المؤلّف الشاب.

غادر كارل وشاشا المكان بهدوء، إذ لم يرغبا تعكير صفو القارئ، ولا إفساد هذه اللحظة السعيدة في حياته. عصفت أمواج الفرحة بقلب كارل وجسده إلى درجة نَسِي معها أنَّ جسده المُسنّ المكدود لم يعد في استطاعته تحمّل هذا القَدْر من السعادة، ولمّا وصل الاثنان ساحة ميدان مونستربلاتس، ودَّع كارل الصَّغيرةَ شاشا وداعًا حارًّا، وسرعان ما ركضت الصبية إلى المدرسة.

واحتفالًا بهذه المناسبة السعيدة قرر كارل شراء زجاجة نبيذ من متجر Würzburger Stein الشهير، وعندما رجع إلى بيته شرب كأسًا من النبيذ، ثم شرع في قراءة روايته المفضلة (القارئة العجيبة)[1]، وهو كتاب صغير الحجم لروائي عظيم الشأن، اعتاد أن يقرأه مرة واحدة كل عام، ويتطلّع إلى قراءته كل مرة كأنما يقرأه للمرة الأولى في حياته.

ومع أنَّ هذه اللحظة كانت واحدة من أروع لحظات حياته، فقد تعلَّم أن من طبع الحياة ألا تُنعم على الإنسان بجرعةٍ وافرة من السعادة دفعةً واحدة، وكأنما تحرص ألا يفرط المرء في الثقة بنفسه، فعندما ذهب في المساء إلى مكتبة بوابة المدينة، طلبته سابينه جروبر إلى مكتبها لإجراء محادثة على انفراد، دخل

(1) المقصود رواية (The Uncommon Reader) للكاتب البريطاني المعاصر آلان بينيت، وللرواية ترجمة عربية (المترجم).

كارل المكتب وجلس، إلا أنها بقيت واقفة. أراد كارل أن يشاركها تجربته السعيدة صباح اليوم، فقال:

- عندي خبر مُبهج.

أراد أن يقُصَّ عليها ما وقع صباح اليوم، إذ خطر بباله أنها ستفرح بلا ريب إذا علمت كيف نجحت مكتبتها في إشاعة البهجة والأمل في قلوب الآخرين، إلا أن سابينه تجاهلت كلامه، وقالت:

- قبل أن تسمع هذا من أي شخص آخر ستُقام الجنازة في محيط العائلة فقط، أقصد سيكون الحضور مقصورًا على أقارب الدرجة الأولى نزولًا على رغبة أبي، لذلك أرجو الانتظار حتى الانتهاء من مراسم الدفن الرسمية، كما أننا لا نريد منك أن تبعث بأكاليل زهور إلى الضريح.

هبَّ كارل واقفًا وقال:

- لكن المدينة بأسرها تريد إلقاء تحية الوداع الأخيرة على جثمان جوستاف، أنا واثق أن محيط المقبرة سيغصُّ بالمشيّعين، فوالدكِ كان موضع محبة الجميع..، حسنًا ليس جميعهم بطبيعة الحال، فلكل إنسان مُحبّوه ومُبغِضوه، لكن أغلبهم.....

- كانت هذه رغبة أبي شخصيًّا.

- لا أصدق كلمة مما تقولين».

- هل تتهمني بالكذب؟

هزَّ رأسه نافيًا:

ـ بالقطع لا أقصد ذلك، بل أقصد أنكِ أسأتِ تفسير كلام أبيك.

ـ لكن نبرتكَ تقول عكس ذلك، على أي حال انتهت المحادثة.. واحفظْ لسانكَ.

تركته سابينه جروبر وغادرت المكتب دون كلمة. في هذه اللحظة انتاب كارل شعور بالوحدة والوحشة لم يشعر بمثلهما سابقًا، ثمَّ تضاعف شعوره بالوحدة عندما أخذ طريقه عبر ساحة مونستربلاتس المزدحم بالمارّة، حيث من المفترض أن يقابل شاشا. انتظرها فترة طويلة، ثم راح يبحث عنها في الميدان، وهَتَفَ باسمها، ولمّا شعر باليأس من العثور عليها قرّر المشي بمفرده، واتته الفكرة بأن يمرَّ بمنازل الزبائن الذين تعرفهم شاشا، فربما وجدها أمام باب بيت السّيّد دارسي أو إيفي أو القارئ؛ بل إنه دلف إلى الزقاق الكئيب المظلم الذي طالما جَفِلَ منه؛ لكنه لم يجد أثرًا لها في أي مكان، وتنبّه إلى أن الكلب لم يأتِ هذا اليوم، فآخِر مرة لم يمنحه طعامًا، فكان هذا جزاؤه! عاد أدراجه إلى ميدان مونستربلاتس، ولم يجد شاشا أيضًا.

مِن النَّاس من يُعجِزه الحُزن عن تناول لقمة واحدة، أما كارل، فقد أعجزه الحزن عن قراءة كلمة واحدة، كان يأكل ما يقيم أَوَدَه وحسب، فيضع لقيمات في فمه بطريقة آلية جامدة، لكنه فشل في قراءة سطر واحد من أي كتاب. حاول مرات عدة

أن يسبح بأفكاره في عالم آخر، وأن يصرف انتباهه عما هو فيه، لكنه لم يفلح، وبقي عالقًا في اللحظة الآنية.

منذ أن فتح عينيه على عالم الكلمات، ومنذ أن تعلَّم حروف الأبجدية، لا يذكر أنه مرَّ عليه يوم واحد من دون قراءة، إلا أن القراءة كانت كيانًا مستقل الإرادة، لا يمكن إرغامه على فعل ما لا تريد.

عندما وصل كارل المكتبة مساء ذلك اليوم، لمح سابينه جروبر عبر الواجهة الزجاجية، لمحها تخاطب رجلًا يرتدي بزّة عمل زرقاء، يشيح بيده بطريقة عنيفة. حاولت سابينه تهدئة الرجل، لكنها لم تنجح، بل على العكس تأزّم الموقف، وازدادت حدة التوتّر بين الاثنين، واحتدمَ غضبه، فهاج وماج، وأحسَّ كارل أنَّ ألواح النوافذ الزجاجية ترتجُّ بعنف.

نادرًا ما كانت تشهد مكتبات البلدة براكين الغضب والانفعالات هاته، ربما يجد القُرّاء آلافًا مؤلفة من هذه المواقف على صفحات الروايات، ولكن ليس في أروقة المكتبات. ولمّا همَّ الرجل بالانصراف أراد أن يصفق الباب وراءه، لكن باب المكتبة أبَى، وأغلِق بلطف كما هو الحال دائمًا. تعجب كارل ودخل إلى المكتبة، وعندها دعته سابينه جروبر إلى مكتبها من خلال قرع الجرس قرعًا متواصلًا عنيفًا لا ينقطع، ولمّا دخل إلى غرفة مكتبها لم ترفع بصرها إليه، ولم تُبدِ أي اكتراث لوجوده، بل لم تدعه إلى الجلوس، ولم تمنحه فرصة التقاط

الأنفاس. ما أن صار الاثنان على انفراد، قالت سابينه جملة مقتضبة من كلمتين، لكن وقعها أقوى وأشد إيلامًا من أي رواية درامية. اختلجت نبرة صوتها، وقالت بنبرة حانقة:

ـ أنت مطرود!

ـ مطرود؟ كيف؟

ـ أنا في حِلٍّ من تقديم أي شروح أو مبرر».

قالتها وهي واقفة خلف مكتبها كأنها تحتمي بدرعٍ واقٍ، فبادر كارل بالسؤال:

ـ بدءًا من متى؟

ومع أنه كان يتحسّب لهذه اللحظة ويتوقعها ويخشاها، لم يدر بخلده أن تباغته بهذه السرعة، وشَعُر كأن كابوسًا ثقيلًا يجثم على صدره. قالت سابينه:

ـ بأثر فوري، سأبلغ زبائنكَ هاتفيًا على الفور.

أهكذا بعد انقضاء كل هذه السنوات يُرغم على مغادرة المكان مطرودًا دون أن يكون له الحق في قول كلمة واحدة؟ مثله كمثل رواية انتهت أحداثها بغتة في منتصف الجُملة، مستحيل.

ـ أرجو منكِ أن تدعيني أبلغ الزبائن بنفسي.

لاذت سابينه بالصمت، فتابع كارل:

ـ لن أتسبب في مزيدٍ من المشكلات، وسأبلغ جميع الزملاء أنني صاحب القرار، ولو أردتِ أيضًا، سأخبرهم أني استقلتُ من المكتبة طواعيةً ومن دون أي إكراه.

لم تجب سابينه، بل أومأتْ برأسها وأشارت إلى الباب. وكانت هذه اللحظة هي فصل الختام في حكاية ساعي بريد الكتب كارل كولهوف.

❊

لو علِمْتَ أنك ستؤدي مهمة للمرة الأخيرة في حياتك، فما من شك في أنك ستحرص أشدّ الحرص على إنجازها بدقة وعناية لتخرج على الوجه الأكمل، ولذا لم يسبق لكارل أن طوى حوافَّ ورق التغليف بهذه الدرجة من الدقة والعناية، كان يُجهِّز الكتاب الأخير للسيدة إيفي. لفَّ الكتاب بعناية كأمَّ تلفُّ قماط طفلها الرضيع، وبينما كان يحمل الكتاب بين أنامله، فكَّر في خفّة الكتاب التي لا تُحتمل، مع أن حياة إنسان كاملة رُوِيت فيه، لكن وزنه لم يتجاوز مئات الغرامات وحسب. ولما وضع الكتاب في حقيبة ظهره، ارتعدت فرائصه، فكَّر في نفسه: يا له من رجل هَرِم أحمق! كان يعلم يقينًا أنَّ عمله في المكتبة سينتهي في يوم من الأيام، ومع هذا تعلّق بأهداب أملٍ واهٍ يقول له: إن ذلك الأمر لن يحدث أبدًا، وكان يعلم أن الموت سيدركه في يوم من الأيام، ومع ذلك لم يستوعب عقلُه فكرة الموت قط، ومن ثمّ كان من المنطقي تمامًا أن يهمل ترويض

نفسه على فكرة الانفصال عن المكتبة ومواجهة الموت، وهكذا انفرط عقد الأيام من بين يديه دون أن يحتاط لساعة الرحيل. وهذا أمر الحياة، فما أكثر الأشياء التي تحتاج منا إلى مزيدٍ من الوقت، وربما تحتاج إلى آلاف السنين؛ كي نروّض أنفسنا على قبولها والتسليم بها.

أجال كارل بصره في أرجاء الغرفة المزدحمة الخالية من النوافذ، كانت أركانها مكدّسة بنشرات دور النشر، ومرتجعات الكتب التي في انتظار إعادتها إلى الناشر، والمواد الترويجية للإصدارات الجديدة. طالما وجد في المكتب الخلفي كهفًا محفوفًا بالدفء والأمان. خرج كارل من الباب الخلفي للمكتبة. انتظر شاشا في المكان المعلوم مرة أخرى، لكنها لم تظهر. لم يلبث هذه المرة طويلًا، ثم استحسن فكرة عدم وجود شاشا هذا اليوم، فوجودها كان سيزيد الموقف حرجًا؛ لأنها لم تكن ستسمح له بأن ينفرد بنفسه، وإنما كانت سترغمه على أن أحزانه من قلبه كمن يطرد ضيفًا ثقيلًا غير مرغوب فيه.

أراد كارل أن تكون جولته الأخيرة لتسليم الكتب جولةً عادية لا تختلف عن جولاته اليومية طوال السنوات الماضية، أرادها أن تكون جولة خالية من عواطف الحزن والكآبة، جولة روتينية عادية تشبه روتين الحياة اليومية الذي كان يثير الهدوء والراحة في نفسه. لم يمشِ كارل مشيةً أسرع ولا أبطأ من مشيته المعتادة، ولم يتردد وهو يضغط زر الجرس للمرة

الأخيرة. كان السّيّد دارسي هو المحطة الأولى في جولة كارل الأخيرة، وهو ما أثلج صدره لعلمِه أن السّيّد دراسي سيَقبل فكرة الوداع الأخير قبولًا رزينًا هادئًا لائقًا بطباع نبيل إنكليزي مثله. فاضت عيناه بالدموع وإن لم يلحظ ذلك للوهلة الأولى، ولو وضعنا المسألة تحت مجهر التحليل الدقيق، لوجدنا أن الدموع الصادرة عن انفعالٍ أو عاطفة مختلفة تمام الاختلاف عن الدموع التي تفيض بتأثير الرياح، أو في أثناء تقطيع شرائح البصل، أو عندما تحاول العين من خلالها منع جفاف الحدقة، أو تحميها من تسلل الأجسام الغريبة المُهيِّجة، ومع ذلك، فنحن نعلم أن البكاء ظاهرة إنسانية محضة، لا وجود له في عالم الحيوان، فالبكاء مقصور على بني البشر، أيًّا ما كان عِرقهم وأيًّا ما كان لسانهم. الإنسان مخلوق باكٍ. وإذا نظرنا إلى الأمر من هذه الزاوية، لوجدنا أن كارل لم يكن كبقية البشر على مدار سنوات طويلة، والسبب بسيط، أنه نسي كيف يبكي المرء. استحوذت هذه الأفكار على ذهن كارل، عندما فتح السّيّد دارسي الباب الثقيل.

- سيد كولهوف! هل كل شيء على ما يُرام؟ أراكَ تبكي؟

- حقًّا؟

جفف كارل دموعه ونظر إلى أطراف أصابعه المُبلّلة مدهوشًا.

- صحيح.

ـ هل مَسَّ عينيك سوء؟

كان السّيّد دارسي يؤمل أن ينطق كارل بكلمة «نعم»، والسبب افتقاره إلى خبرة مواساة الآخرين وكفكفة دموعهم، ولتجنّب الخوض في مزيد من التفاصيل قال كارل:

ـ أعاني من التهاب في القنوات الدمعية.

بعدها أخرج من حقيبته الكتاب الذي جلبه للسيد دارسي وسلَّمه إليه بيدٍ مرتعشة، فقال دارسي:

ـ لقد أوليتَ اليوم عناية فائقة لتغليف الكتاب.

ـ كانت روحي المعنوية مرتفعة اليوم.

ـ كل يوم أراكَ فيه وأتلقّى فيه منك كتابًا جديدًا هو يوم مشرق جميل؛ لأنني حين أفتح الكتاب أشعر كأنني أقابل صديقًا جيدًا.

ثم تلفت السّيّد دارسي حوله سأل:

ـ لماذا لا أرى شاشا معك اليوم؟ هل تبرَّمتْ المرة السابقة من طول مشاهدة ساعة الزهور، فقررت ألا تعود مجددًا؟

لم يُرد كارل الاسترسال في هذا الأمر، فسأل دارسي:

ـ هل أعجبتكَ النسخة التي جلبتُها لك من رواية كبرياء وهوى؟

ـ نعم، وهي رواية ممتازة من طراز أدبي رفيع، أعدتُ

قراءتها ثلاث مرات، وانغمستُ فيها بكل جوارحي خلال الأيام القليلة الماضية..، أتعرف لماذا؟

ـ أعتقدُ لبراعة أسلوبها.

ـ هذه نقطة جوهرية دون شك، ولكن أشد ما أسر انتباهي هو أني وجدتُ نفسي في إحدى شخوص الرواية.

ـ حقًّا؟

ـ نعم، وجدت نفسي في شخصية تشارلز بينجلي، أعلم أنني أكبر منه، لكن فيما عدا ذلك، فبيننا قواسم مشتركة كثيرة، من المؤكد أنك كنت على علم بذلك وأنت توصي بالرواية؟

ابتسم كارل[1] ابتسامةً مشوبة بالإرهاق قائلًا:

ـ شتّان ما بين ما يعرفه الإنسان، وما يظن أنه يعرفه.

ـ ما رأيك في الجلوس قليلًا؟ يمكننا أن نتكلّم عن الرواية بشيء من التفصيل.

تنبّه السّيّد دارسي إلى أن هذه المحادثة جرتْ وهما

---

(1) المفارقة أن كارل كولهوف أطلق على الرجل اسم شخصية «دارسي»، بينما رأى الرجلُ نفسَه في شخصية بطل آخر من الرواية، وهو السيد بينجلي، وهو نبيل استأجر المنزل المجاور لبيت عائلة بينيت، ومن هنا كانت دواعي تلك الابتسامة (المترجم).

واقفان لدى الباب، ففتح الباب على مصراعيه بقوة ودعا كارل للدخول، إلا أن كارل أجاب:

- الوقت ضيّق اليوم لسوء حظي، ولا بد لي من المرور بعدد كبير من الزبائن، من دواعي سروري أن نتكلّم عما قريب.

ناجى كارل نفسه قائلًا: «هذا لو فكَّرت استضافة بائع كتب متقاعد والحديث إليه». ثم خاطب السّيّد دارسي قائلًا بعد أن أخذ نفسًا عميقًا:

- عندي شيء أخير يجب أن أبلغكَ به.

- خيرًا.

جفَّ حلق كارل، وجفَّت دماء قلبه، بل جفَّ عالمه كله. فقال دارسي:

- هل ترغب في كأس من الشراب؟

- في المستقبل..، في المستقبل سـ....

نطق كارل بأول كلمة، وأغلق عينيه كأنه سيقفز قفزةً في الفراغ، وكأنما شُلَّ لسانه، وتصلّبتْ أحباله الصوتية، وكل خلايا جسده. رَفَض الجسد الامتثال إلى أوامر العاطفة، ولم يقوَ كارل على أن يخبر الرجلَ بالحقيقة. رفع الراية البيضاء، وهرب ليلوذ بالكذب.

ـ أعني أنني في المستقبل سأتوافر على الوقت اللازم لنتكلّم، مَن يعلم كم من الوقت بقي لدينا.

ـ هل أنت مريض يا سيد كولهوف؟

أطال كارل النَّظر إلى وجه السّيّد دارسي، ثم قال:

ـ إنها أمراض الشيخوخة، والآن لا بد لي من الانصراف، أراك على خير قريبًا.

ربَّت السّيّد دارسي على كتف كارل للمرة الأولى في حياته، وقال:

ـ وأنا أيضًا أتمنى رؤيتكَ على خير قريبًا.

شعُر دارسي أن أحوال كارل لم تكن على ما يُرام، وإنْ لم يعرف سببًا محددًا، لكنه لم يكن ليدسّ أنفه فيما لا يعنيه، ويلحّ على الآخرين للبوح بما في صدورهم، فترك كارل لائذًا بصمته، وأعطاه اسم الكتاب التَّالي فوق قصاصة من الورق. غادر كارل المكان مُنكَّس الرأس، كما لو كانت رأسه تئنن تحت ثِقَل غراب أسود هائل. وتخيَّل أنه يخاطب شاشا:

ـ يا لي من رجل مهزوز ضعيف، أتصرّف كما لو كان بمقدوري الهروب من الحقيقة، لكن الحقيقة كلبُ صيدٍ مُدرّب، سيقتفي أثري، ويعثر عليَّ ولو بعد حين.

ظهر الكلب حول المنعطف ونبح تحيةً لكارل، هل أرادت الحياة أن تبعث له رسالة؟

ـ مرحبًا..، أين كنتَ؟

مسَّد كارل بيده على رأس الحيوان الصَّغير، وقال:

ـ أنتَ عندي خير من الحقيقة.

ثم دسَّ يده في جيب سرواله مفتشًا عن شيء يُعطيه إياه، لكنه لم يجد ما يعطيه.

ـ للأسف لا أحمل اليوم طعامًا جافًا، فكّرتُ أنك لن تعود مجددًا.

على أنّ الكلب أقعى جواره ولم يغادر. داهم كارل شعور مباغت أنه لا يعيش في مدينة كبيرة تضمّ ألوف السكان، بل في قرية صغيرة لا يعرف أحد سواه بشأنها، اسمها قرية القُرّاء، وهي قرية لا تتراص فيها البيوت جوار بعضها البعض كباقي القرى، وإنما تأخذ شكل مفاتيح آلة الأكورديون، تتباعد عن بعضها عند بدء العزف وعمل المنفاخ الذي يولِّد الهواء، ثم ما تلبث المفاتيح أن تجتمع جوار بعضها البعض من جديد. وعلى المنوال نفسه مضت حياة كارل؛ ففي أثناء جولة تسليم الكتاب تتباعد المسافات بين البيوت وساكنيها، ولكن مهما طالَت المسافة أو قصرت، كان يرى أن البيوت كلها منتمية إلى بعضها

في لُحمة واحدة، مع أن سكان قرية القُراء أنفسهم لا يعلمون شيئًا عن الرابطة الخفية بينهم، أما كارل، فهو الوحيد الذي يرى هذه الصِّلة الخفية ويحسّ بها.

ثمَّ تكرر المشهد بحذافيره من زبائن كارل الآخرين، وعلى رأسهم السّيّدة إيفي التي عاد جرس بيتها للعمل مجددًا، وخلا وجهها من أي علامات تنبئ عن تعرضّها للضرب، لكنها طبقة من الضباب غشيتْ عينيها مثل سماء ملبّدة بالغيوم، وتكرر مع السّيّدة لانجشترومف، ومع د. فاوستوس الذي علّقَ تقويم الكلاب الذي أهدته شاشا إياه في غرفته، وتكرر مع الشاب مفتول العضلات هرقل الذي استظهر أمام كارل بحماسةٍ حروف الهجاء من A إلى D في المطبخ، وكان سعيدًا سعادة عجيبة كأن الحضارة البشرية اكتشفتْ لتوّها حروف الهجاء، كما تكرر مع الراهبة الأخت أماريليس التي قالت: إن روايات السفاحين صارت النوع الأدبي المفضّل لديها، وخصوصًا لو كانوا من الكاثوليك الذين يَقتلون وفق تقاليد الكتاب المقدّس، وتكرر أيضًا مع القارئ الذي أعرب لِكارل عن جزيل شكره، فأهداه نسخة مُجلدة تجليدًا رائعًا من رواية التانجو الصامت، وهي الرواية التي لاقت استحسان صاحبة المصنع، فدعتْ القارئ إلى زيارة منزلها يوم السبت المقبل ليعيدَ عليها قراءة الفصل الأول الممتاز بما فيه من مشاهد ساخنة.

في أنظار الجميع لم يكن هذا إلا يومًا عاديًّا من الأيام

التي يمرُّ فيها كارل بمنازل الزبائن لتسليم الكتب، أما في نظره، فكان هذا اليوم هو صدى الأيام الخوالي، ولمّا رجع إلى بيته أمسك الخوف بتلابيبه، وكأن يدًا عملاقة تقبض جسمه ولا تريد إفلاتَـه، محاوِلةً أن تسلبه أدنى مثقال شعور بالسعادة في قلبه.

الفصل السادس

اقتفاء الأثر

بدأ كارل في شراء الكتب من حُرِّ ماله، مع أنه لم يكن يُحصِّل ثمنها عند التسليم؛ لأن الزبائن كانوا يحوّلون المال إلى حساب المكتبة، ولابد أنّ الأمر سيستمرُّ على هذا النحو، ولن يكتشف أحد الحقيقة إلا في ختام السنة المالية، عندما يُعد المراجع الضريبي للمكتبة القوائم المالية ويُكتشف الأمر، وفي سبيل شراء ما يكفيه من كتب وتلبية طلبات زبائنه لم يجد كارل بُدًّا من بيع مكتبته الشخصية، وكلما مضى يوم جديد، اختفى كتاب جديد، وغادر صديق قديم عاش مع كارل سنوات أو عقودًا طويلة على رفوف المكتبة.

لم يجد كارل في نفسه الشجاعة الكافية للذهاب إلى متجر هانس، صاحب متجر الكتب القديمة لبيع كتبه، فاستعان بالتلميذ المتدرّب ليون الذي كان يقابله أمام مكتبة بوابة المدينة بعد أن تُغلق أبوابها، باع كارل كنوز مكتبته بثمنٍ بخس، وكان ثمن شراء كتاب واحد جديد يكلّفه بيع عشرين كتابًا قديمًا، المفارقة

أنَّ طلبات الزبائن زادت؛ ظنًّا منهم أنَّ ذلك يُهوِّن أحزان كارل.

تابع كارل جنازة صديقه العُمر جوستاف من بعيد. كان عدد الحضور محدودًا، فلم يزد عن ثلاثة أفراد فقط رافقوا بائع الكتب الراحل حتى مثواه الأخير، لبث كارل منتظرًا حتى غادر الجميع، ثم اتّجه إلى زيارة المقبرة، ووضع عند الضريح مجلدات قديمة من روايات مغامرات كارل ماي، إذ طاف بخياله أنَّ أبطال الروايات الشجعان سيسهرون على رعايته.

آمن كارل كولهوف أن الورق مصنوع من مواد عضوية هي ورق الشجر، وأن البشر مصنوعون من مواد عضوية هي تراب الأرض، ومن ثَمَّ، فالكتب والبشر من أصل واحد، وهذا ما دفعه لمواصلة إهداء الكتب إلى زبائنه القدامى، فترتّب على ذلك انكماش عدد الكتب من رفوف المكتبة يومًا وراء الآخر.

أهدى كارل السّيّد دارسي الأعمال الكاملة للكاتبة جين أوستن، بينما أهدى إيفي روايات محورها الزوجات اللاتي هجرن أزواجهنَّ، ثم أمَدَّها بمزيد من الروايات عن نساء قتلنَ أزواجهنَّ باستخدام السمّ في الأغلب الأعم. صحيح أن كارل لم يقصد تحريضها على ارتكاب مثل هذه الجريمة، وإنما أراد فقط أن يبيّن لها أن هذا هو مصيرها المتحتم لو لم تترك زوجها الذي يؤذيها. وفي يوم قالت له إيفي:

ـ من فضلك لا تجلب لي مثل هذه الروايات، فحياتي تسير على ما يُرام.

وكان زوجها قد عثر على هذه الروايات، وقرأ كلمة الغلاف، فغلى الدم في عروقه، وأطاح بالروايات بعيدًا، بما فيها روايات إيفي المفضلة.

ـ لقد جاءت هذه الروايات بأثر عكسي تمامًا، وتركت انطباعًا سلبيًّا عند زوجي.

في هذا اليوم لاحَظَ كارل خلوّ الردهة من زهور أو نباتات، حيث لا أثر لزهورٍ مقطوفة أو نباتات مزروعة في أصص، اختفى أثر أي شيء يدلُّ على الحياة في منزلها، كما أن إيفي سارعت بإغلاق الباب وراءها .أدرك كارل أن ثمة نارًا تحت الرماد، وأن كلامها محض أكاذيب، وإنْ لم تكن أكاذيب مزوّقة ومُغلّفة بغلاف جذاب كالكتب التي أهداها إياها.

بعد إغلاق الباب وقف كارل بمفرده مفتقدًا ثرثرة شاشا التي كانت تشجّعه وتشدّ أزره، كانت ثرثرتها تذكّره بصوت الطاحونة المُقامة فوق جدول صغير يتلألأ تحت أشعة الشمس، ولهذا تخيّلها تحادثه وتخيّل نفسه يحادثها، وتخيّلها تقول:

ـ إيفي تكذب، لم تُولِّد الروايات انطباعًا سلبيًّا البتة.

ـ أعلم ياشاشا، لكنها لا تكذب علينا، بل تكذب على نفسها.

تخيَّل شاشا تستحثُّ خُطاه، وسمعها تقول له:

ـ أسْرِعْ في مشيك، وإلا فسدتْ الكتب.

وعندما وصلا إلى متجر المثلجات قالت له بنبرةٍ حازمة:

ـ لن نشتري آيس كريم اليوم، أنتَ في حاجة إلى النقود لشراء مزيدٍ من الكتب، فالكتب سلعة معمّرة، ومؤونة تدوم فترة أطول.

ومع ذلك أدرك كارل أنَّ الأمور لن تستقيم طويلًا على هذا النحو، وأنه في حاجة إلى رؤية شاشا الحقيقية، إلا أنها لم تخبره باسم عائلتها، ولم تعطه رقم هاتف المنزل، ولم تبلغه بعنوان مسكنها، فكيف السبيل للوصول إليها؟

عقد العزم على الذهاب إلى الساحة التي تضمُّ مدارس المدينة بأسرها، وأن يشحذ بصره جيدًا، وأن يستعلم من التلاميذ الذين في سنّها عن صبية صغيرة ذات شعر داكن مجعد. من المؤكد أن من يرى شاشا لن ينسى وجهها أبدًا. كان قد تسلّق جبل إيفرست وغاص في خندق ماريانا[1]، وسافر عبر سهوب كردستان، وأجرى أبحاثًا في القطب الجنوبي الجليدي. مكّنته الكتب والروايات من تجربة كل هذا، وهي التجربة التي ضنَّ عليه بها نظام المدارس الألمانية. غاصت قدماه في فوضى عارمة وجلبة لا حدود لها، إذ يخطو إلى ساحة المدرسة.

أعاد له المشهد ذكريات الطفولة، في فجر أيامه الأولى عثر

---

(1) هي أعمق نقطة في سطح الكرة الأرضية، وتقع غرب المحيط الهادي (المترجم).

كارل على عشّ نمل في الغابة القريبة من بيته، وواظب على العودة إليه كل يوم على مدار أسابيع؛ بغرض مراقبة أسراب النمل، صحيح أنه رأى حركة سريعة محمومة، لكن أسراب النمل كانت تمشي وفق نظام داخلي منضبط، على عكس مدرسة سانت ليونارد التي كانت تمثيلًا صارخًا لنظرية الفوضى العارمة في ساحة المدرسة. في الطَّريق إلى المدخل اصطدم بالأطفال الراكضين، أو بالأحرى تكرّر دهس كارل على أيديهم، ومع ذلك كان هرج الأطفال ومرجهم أدهى وأمَرّ، ولو قارن ذلك بالقراءة، فالقراءة نشاط قوامُه الصمت والسكينة.

حتى عندما قرأ كارل صفحات طويلة عن استعانة القائد العسكري «(هانيبال) بالأفيال المحاربة لاجتياز جبال الألب سنة 218 قبل الميلاد، لم يسمع صوت أبواق مُدوّية تصم السمع وترجّ زجاج نافذة غرفة المعيشة، وحتى عندما قرأ كتابًا عن اختراق دبابات القائد النازي (روميل) خط ماجينو الفرنسي قُرب موبيج، لم يكن يُسمع إلا صوت أنفاس كارل؛ لأن القارئ يسمع بعينيه، وليس بأذنيه.

عندما وصل كارل إلى برِّ الأمان ووصل المبنى الرئيس اتكأ بظهره على الحائط وتنفس الصعداء، ثم سأل عن مكتب شؤون الطُّلاب للاستعلام عن شاشا، فأُبلِغَ أنه غير مُصرِّح لهم بتقديم أي بيانات للغرباء، فقرر أن يسأل الأطفال.

رنَّ الجرس مُعلنًا انتهاء الاستراحة، فتدفّق التلاميذ أمام

عيني كارل تدفقًا هادرًا يشبه العاصفة، لكنه لمح صبيًّا في سنِّ شاشا تقريبًا يمشي بخطوات بطيئة، فأوقفه ليتحدث إليه.

ـ هل تعرف شاشا؟

أجاب الصبي:

ـ ما هذا الاسم العجيب؟

ـ ظننتُه اسمًا من الأسماء الرائجة اليوم، تمامًا كما اعتدنا في الماضي أسماء من قبيل: إيدلترود أو جيرترود.

ـ لا ....، لا أحد هنا في المدرسة يحمل هذا الاسم العجيب، يجب عليَّ الانصراف للحاق بحصّة الجغرافيا.

كان الصبي قد نسي أداء تكليفاته المدرسية اليوم، لكنه لم يخبر الرجل الغريب بهذا.

قياسًا على ما ذكرته شاشا عن سنّها، فقد رجَّحَ كارل أنها في الصف الأخير من المرحلة الابتدائية، أو الصف الأول من المرحلة الإعدادية، على خريطة المدينة التي حملها في حقيبته رَسَمَ كارل علامات تُعيِّن بدقة المدارس التي سيتفقدها واحدة تلو الأخرى، وجُملتها سبع مدارس، أولها مدرسة سانت ليونارد التي زارها لتوّه، ومع ذلك خشي أن تخونه حواسُّه الواهنة أو أعصابه المرهقة، فلا تعينه على إتمام هذه المهمة.

في الأيام القليلة التَّالية لم يقصد مكتب شؤون الطلاب، بل تحدّث إلى التلاميذ والتلميذات الواقفين والواقفات في الساحة

في أثناء فترات الراحة مباشرة، سأل الكبار والصغار على حدٍّ سواء، وأخبر الجميع باسم شاشا، وَوَصف لهم هيئتها بأدقّ تفاصيل ممكنة. كانت هذه المدرسة هي المدرسة السادسة التي يزورها للاستفسار عن شاشا، ولم تبقَ له في الختام إلا زيارة المدرسة الأخيرة، وكان اسمها مدرسة بستالوزي للدراسة المتكاملة، وبينما وقف مستفسرًا من ثلاث تلميذات عن الصبية ظَهَر مشرف الاستراحة، وكان معلّمًا فارع الطول يرتدي سترة من طراز Goretex الواقية من المطر، ومزوّدة بسحّاب مرفوع إلى أعلى عنقه. قالَ المدرس:

ـ هل لي أن أسأل عمَّن تبحث عنه هنا؟

ـ أبحث عن تلميذة اسمها شاشا، عمرها تسع سنوات، وشعرها أسود مجعـ..."

اعترضَ كلامَه المُعلّمُ:

ـ ليست عندنا تلميذة اسمها شاشا، أرجو منك مغادرة أرض المدرسة على الفور، وعدم التحدث إلى طلّابنا مجددًا، وإلا، فسنتصل بالشرطة في الحال.

ـ ولكن...

ـ ومَن شاشا؟ من المؤكد أنها ليست حفيدتكَ، وإلا، علِمتَ إلى أي مدرسة تكون!

ـ شاشا هي...»

أمسك كارل عن الكلام لوهلة وزاغت عيناه، ثم سرعان ما قَبَض المعلّم على ذراعه، وسأله:

ـ هل أنت على ما يُرام؟ هل تريد مني الاتصال بقريب ليأتي ويأخذك؟

ـ نعم، أقصد لا.. لا..، أشكرك، سأعود إلى بيتي.

ـ خيرًا ستفعل!

قالها المعلّم وهو يربّت برفقٍ على ظهره، فشعر كارل كأنه حصان عجوز مريض يُربِّت صاحبُه على ظهره وهو يسوقه ليطلق عليه رصاصة الرحمة.

ولما كانت المدرسة السابعة مناط أمله الأخير، قرَّر كارل المرور ببيوت زبائنه للبحث عن شاشا، ولأنه لم يعد يطيق فكرة عدم وجودها تخيّلها تمشي جواره وهي ترتدي سترتها الشتوية الصفراء التي تَصوَّرها لامعة اليوم كأنما ترتدي حُلة جديدة، تخيّل حقيبتها الصَّغيرة منتفخة، لكنها تتأرجح إلى الأعلى والأسفل، وكأن قاع الحقيبة مصنوع من المطاط المَرن. سمح كارل لِشاشا أن تتكلّم وتثرثر كيفما تشاء، ولم يُجب عنها إلا في عقله.

بدأ جولته بالذهاب إلى بيت السّيّد دارسي؛ لأنه نقطة انطلاق جولاتهم دائمًا. تخيّل شاشا تقول:

ـ أحبُّ دارسي حبًّا جمًّا، وأحبّ حديقة منزله على وجه الخصوص.

ـ ولماذا لزمتِ الصمت إذًا عندما أرانا دارسي ساعة الزهور؟

قالت شاشا بنبرةٍ رقيقة:

ـ يا لك من عجوز أحمق! لأنني سبحت في خيالي بعد كلامه عن القارئة الجالسة على الكرسي الرائع في الحديقة، أشعل كلامُه حماستي، فأردتُ أن أهديه كتابًا، وأحظى بفرصة الجلوس على هذا الكرسي. مكتبة سُر مَن قرأ

ولمّا مرَّ بمنزل السّيّدة لانجشتروموف تخيّل شاشا تقول:

ـ هذا هو مكاني الأثير.

ـ مكانكِ الأثير مع معلِّمة؟

ـ لكنها تركت التدريس الرسمي، لن ترى المعلّمين القُساة إلا في المدارس، عندما يكون الأطفال تحت رحمتهم.

ـ كلامك في غاية القسوة.

ـ لكنها الحقيقة، يبدو أنك نسيتَ بشاعة المدرسة منذ أمد بعيد، أما السّيّدة لانجشتروموف، فقد صارت لطيفة ورقيقة، صارت أقرب إلى تنين عاجز عن نفث النار وحرق من أمامه، يمكنني القدوم إليها لأداء تكليفاتي المدرسية.

- تقصدين دون أن يحرقكَ أحدهم بلسانه السليط.

- بالضبط يا كارل...، الآن فهمتَ قصدي.

ولمّا وصل الاثنان إلى بيت هرقل، تأكَّد لِشاشا أنها في المكان المثالي، تخيّلها تقول:

- وأي مكان خير من الوجود جوار رجل يافِع قوي يحيمك؟ وعلى هذا، فهو مضياف يقدِّم إليك مشروبًا لذيذًا في كل زيارة.

- شاشا: منذ متى وأنتِ تستعملين كلمة «رجل يافع» بدلًا من كلمة «شاب"؟

لاحظ كارل أنه كان يتحدث إلى نفسه في بعض الأحيان، لكنه سرعان ما كان يعود إلى مسار الحكاية المتخيّلة في ذهنه.

- رجل يافع أو شاب، سيّان يا كارل، سأبدأ في استعمال مفرداتك القديمة حتى تفهمني.

- جزيل الشكر يا شاشا، لفتة طيّبة منكِ.

لا بد أنها ذهبت إلى د. فاوستوس أيضًا؛ لأنها أرادت إلقاء نظرة على ألبوم الكلاب الذي أهدته إياه، لاسيما صورة الكلاب المولودة في شهر سبتمبر، من المؤكد أنها ذهبت إلى القارئ ليقرأ عليها النصوص المدرسية التي تدرسها حاليًّا. ولمّا وصَلَا إلى دير الأخت أماريليس، صارت شاشا على يقين أن الدير هو

مكانها الأثير؛ لأنها طالما أرادت أن تترهبنَ وتلزم العيش في الدير، وهو ما رآه كارل غريبًا بعض الشيء.

توجَّه كارل بسؤاله إلى الجميع:

ـ هل رأى أحدكم شاشا؟ هل مرَّت بكم؟

لكن لم يرها أحد، لم تزر أيًّا منهم في الأيام الأخيرة، فاستولى القلق على الجميع، لم يكن كارل هو الوحيد الذي تعلَّقَ قلبه بهذه الصبية الجميلة، بل تعلّقت أفئدة الجميع بها. أرجأ كارل بيت إيفي ليكون المحطة الأخيرة، أو ربما شاشا هي التي اتخذت بيت إيفي محطةً أخيرة، إلا أن كارل لم يقدر على الجزم بذلك. بدا الأمر كأنه يقرأ رواية شارفت فصولها على الانتهاء، والقلق ينهش قلبه أن تخيّبَ أملَه خاتمةُ الرواية. تخيّل كارل أن شاشا تسأله:

ـ ولِمَ بيت إيفي تحديدًا؟ فالحزن يخيّم على حياتها، وزوجها يثير الرعب في نفسي.

ـ لكنكِ صبية شجاعة ورقيقة القلب، وليس من شكٍّ في أنكِ تريدين مساعدتها.

ـ وأنتَ كذلك رقيق القلب، لِمَ لا تساعدها إذًا؟

أجاب كارل وهو يدفع قبعته المرنة إلى الأمام لإخفاء وجهه:

ـ لأنني عشتُ والخوف ملء جوانحي، ولهذا تركت أيام

حياتي تمرّ متشابهة، الأشياء الصَّغيرة فقط هي التي يطرأ عليها التغير، والفتور والتبلّد من طبع الخائفين من الحياة.

ـ لكني لست شيئًا صغيرًا.

ـ من المؤكد أنكِ لست شيئًا صغيرًا..، والآن اقرعي الجرس من فضلك.

ترفع شاشا إصبع الخنصر إلى صدرها وتقول:

ـ ألا تجرؤ على قرع الجرس أيضًا؟

ـ فقط اقرعي الجرس.

استغرق الأمر بعض الوقت حتى جاءت إيفي (لم تكن واقفة خلف الباب هذه المرة، بل جاءت من القبو)، لم تبدُ في أفضل حالاتها، وارتسمت حول عينيها دوائر زرقاء، وكانت بشرة وجهها في لون الدم.

ـ سيد كولهوف؟ ما الذي جرى؟ لم أعتد منكِ المجيء في مثل هذه الساعة!

ـ هل رأيتِ شاشا؟

ـ لماذا؟ هل هي مفقودة؟

ـ نعم..، أقصد..، أنا أفتقد....

في تلك اللحظة استغرق كارل في تأمّل معنى سؤالها. هل

كارل يفتقد وجودها في حياته أم أن شاشا ذاتها صارت في عداد المفقودين؟ هل اختفت؟ هل وقع لها مكروه؟

- سيدة إيفي: هل قرأتِ خبرًا في الصحيفة المحلية أم سمعتِ نبأ اختفائها في إذاعة المدينة؟

هزّت إيفي رأسها نافيةً وسألته:

- أليست في منزلها؟"

تنامى شعور الخوف في قلب كارل مثل كرة ثلج يزداد حجمها.

- لا أعرف؛ لأننا اعتدنا أن نلتقي دائمًا في ساحة ميدان مونستربلاتس.

- لا تقلق، ستكون بخير، ربما سافرت مع أقرانها في رحلة مدرسية.

- لو سافرتْ لأخبرتني، فشاشا ليست من الفتيات المستهترات، شاشا محل ثقة، وإذا وعدَتْ أوفَتْ.

ربتّت إيفي على كفِّه بلطفٍ، وقالت:

- سيد كولهوف: كما كان بودّي أن أساعدكَ، ولكني مكتوفة الأيدي كما تعلم..، اعذرني.

لم تزد إيفي عن ذلك، ثم سرعان ما أغلقت باب المنزل.

وكانت هذه هي الكلمة الأخيرة التي لم يعقبها كلام آخر، إذ صمتت شاشا بدايةً من هذه اللحظة، ولم يجد كارل في نفسه رغبةً لتسليم أي كتب هذا المساء.

❋ ❋

كان إلغاء خطّ سير الليلة بمنزلة إزالة لَبِنَة صغيرة من لبنات الجدار المنيع الذي يكوِّن حياة كارل. لبث طوال الليل يتقلّب في فراشه، ولم يغفل إلا سويعات في وقتٍ متأخر، فلم يسمع صوت المُنبّه القديم في الصباح، ولما استيقظ اعترته الدهشة حين رأى الساعة، فقفز من فراشه على الفور، وارتدى ملابسه، وقصد المدرسة السابعة دون أن يتناول فطوره أو يحلق ذقنه، فلا بد أن شاشا هناك في ذلك الوقت.

توتّرت أعصابه على خلفية زيارة المدارس في الأيام السابقة، فحاول أن يطمئن نفسه من خلال إحاطة نفسه بأكبر عددٍ من الكتب الموجودة في حقائب التلاميذ أو على الطاولات، حتى وإن كانت كتبًا مدرسية لا تثير الطمأنينة في نفس أي أحد، ولمّا قُرِع جرس الاستراحة الأولى في فناء مدرسة كارل أورف، وتَدفَّق التلاميذ إلى الفناء، لزم كارل الوقوف جوار أبواب الخروج مباشرةً، وأخذ يهتف باسم شاشا المرة تلو الأخرى، وكلما رأى معطفًا أصفر اللون أو لمح شعرًا داكنًا مجعدًا لفتاة في سنّها كانت تأخذه رجفة، ويصرخ بأعلى صوته، فيشرئب عنقه وينادي عليها. اكتمل خروج الأطفال إلى

فناء المدرسة، فشرع كارل في الاستعلام من بعضهم عن شاشا، ومضى يلومهم على إخفاء الحقيقة عنه:

ـ لا بد أن شاشا هنا! أخبروني أين أجدها؟ هل ما تزال في الفصل؟ هل هي مريضة؟ لا بد أنكم تعرفون!

لم يكن لدى التلاميذ أدنى فكرة عن صبية اسمها شاشا، لكنهم كانوا يعرفون كيف يهربون من كارل. في هذه المرة طرده مشرف الصيانة في المدرسة، بعد أن وصل حاملًا معه مقشّة، فبدا مثل مقاتل متمرّس على فنون القتال الآسيوية، فلم يستطع كارل إكمال جولته، ومن ثم قصد أقرب متجر، وقف هنيهة أمام رفّ زجاجات النبيذ، ثم سحب زجاجة نبيذ إيطالي رخيص الثمن من صندوق في الرف السفلي، لم يمرّر أصابعه كالعادة على المنحنى الأنيق للزجاجة، بل على زواياها الحادّة وحواف الورق، وحالما وصل إلى الرصيف المقابل أزال الغلاف، وأخذ يعبُّ في جوفه من الزجاجة.

في طريق العودة اجتاز كارل سياج مدرسة سانت ليونارد، وأحسّ في ضحك الأطفال وصخبهم نوعًا من السخرية والاستهزاء به، فأشاح وجهه بعيدًا. من زاوية عينه لمحَ شيئًا أصفر مارقًا، لكنه لم يدقق النَّظر. ثم صاحت صبيّة:

ـ أعيدوا إليَّ كتابي.

فأعاد كارل النَّظر إلى الصبية متعاطفًا، كما لو أنه قلِق على

مصيرها، رأى الفتاة واقفة على مسافة ليست بعيدة، ولكن من دون معطفها الشتوي الأصفر، ولمّا فكّر قليلًا انتبه إلى أنه لم يكن صوت شاشا، بل صوت صبي أصهب واقف على مسافة قريبة، إذ يحاول يائسًا الوصول إلى كتابه المدرسي الذي يحمله طالب فارع الطول، وكلمّا همَّ الصبي بالوثبِ لأخذ الكتاب، رفع الطالب ذراعه إلى الأعلى. تخيّل كارل أنه يقرأ شفتي شاشا وهي تقول:

ـ ها هو ذا صديقي ساعي بريد الكتب.

ثم انشقّت الأرض عن شاشا، فرآها تهرع إليه حيث يقف أمام البوابة، وتسأله:

ـ أكنتَ تبحث عني؟

رقص قلبه فرحًا كأنما دانت الدنيا له بعد طول نفورها، ابتهج لرؤيتها ابتهاجًا قويًّا اضطربت معه نبضات قلبه.

ـ نعم، كان القلق ينهش قلبي خوفًا عليكِ، والآن وجدتكِ.

عانَقَته شاشا من وراء السياج وقالت:

ـ افتقدتكَ بشدّة يا كارل.

ـ وأنا كذلك.

ـ لكني افتقدتكَ بقدر ما بين الأرض والقمر من مسافة.

ـ هذا اسم رواية!

ـ صحيح، ولكني صادقة فيما أقول.

ـ سألت عنكِ هنا بالأمس، ولم يعرفك أحد.

ـ هل سألتَ عن شاشا؟

ـ نعم.. بالطبع.

ابتسمت الصبية وقالت:

ـ لا يوجد أحد اسمه شاشا هنا.

ـ ولكن...؟

أشارت بإصبعها إلى نفسها:

ـ اسمي شارلوته، أما شاشا، فاسمي عندما أخرج معكَ، طالما رغبتُ في أن يناديني أصدقائي بهذا الاسم، لكنهم لم يفعلوا، وأنا من ابتكرت الاسم بنفسي.

لم تكذب الصبية، لكنها لم تقل إلا نصف الحقيقة، فقد ابتكرَتْ شارلوته اسم بطلة خارقة، حيث اعتاد الأولاد من الصف (باء) التباهي بشخصيتين خارقتين، وهما: كابتن أمريكا (Captain America)، والرجل الحديدي (Iron Man)، فأرادت محاكاة الأولاد وابتكار شخصية خارقة تحلّق في سماء المدينة، وعليها عباءة حمراء فضفاضة، وأشعة ليزر الصفراء تنبعث من عينيها، وأطلقت على تلك الشخصية اسم شاشا.

حقيقة الأمر، إن ملامح شاشا كانت نسخة من ملامح أمّها

الراحلة بحسب الصورة ذات الإطار الأسود المعلّقة أعلى خزانة الملابس في الردهة، واعتادت شاشا أن تقطف زهور الأقحوان النابتة بين الحجارة في طريق عودتها من المدرسة إلى المنزل. انحنى كارل، وقال:

ـ من دواعي سروري أن أراكَ آنسة شارلوته، ويشرّفني أن أسميكِ شاشا.

ـ لا مانع عندي.

ألقى كارل بزجاجة النبيذ في سلة المهملات وسألها:

ـ ولكن لماذا لم تأتِ كعادتك إلى ساحة مونستربلاتس؟

ـ لم تسر الأمور كما يُرام.

لم تكذب شاشا هنا أيضًا، لكنها لم تُصرِّح بالحقيقة كاملةً، فما جرى هو أن مديرة المدرسة السّيّدة ديسيلبيك هاتفَتْ والد شاشا في المنزل بعد غيابها عن المدرسة مدة ساعتين نتيجة زيارة مصنع السيجار. اعترفت شاشا لأبيها بالحقيقة كاملةً، فمنعها الأب من الخروج مع كارل وتسليم الكتب من جديد، ولم تفلح دموعها ولا توسّلاتها في إقناعه بالعدول عن رأيه، ولم تُجدِي رسائلها المذيّلة بالقلوب الملوّنة باللون الأحمر نفعًا، ولا وجبات الفطور في السرير مع شرائح الخبز المحمّص المقطوعة على هيئة شجرة عيد الميلاد باستخدام سكّين قطع

كعك عيد الميلاد، ولا حتى وجبة العشاء التي أضافت إليها الحساء المطبوخ بعناية.

ومع أن شاشا تعشق الثرثرة عشقًا يعادل عشقها لأكل الشوكولاته لزمت الصمت، ولم تبحْ لِكارل بكل هذا؛ ولأن لحظة الصمت كانت فُرصة أدعى لكي يواصل كارل الاستفسار عن سبب غيابها، فوجَّهت دفة الحديث إلى مسار آخر.

ـ أقدِّم لك صديقتي جولي، أعزّ صديقاتي إلى قلبي، وهي تعرفكَ وتقول: إن عنقك غريب كعنق جدّها.

أضاف كارل إلى كلامها:

ـ أسمِّيها عنق الديك الرومي، وهو لا ينمو للإنسان إلا حينما يطعن في السنِّ، ومن هنا لا يمكنكِ الانتفاع به في هذه السنّ الصَّغيرة.

ـ الانتفاع به؟ كيف؟

ـ لن تفهمي ذلك إلا حينما تبلغين سنّي.

كان كارل ثَمِلًا بسعادة عثوره على شاشا كأنه احتسى زجاجة نبيذ كاملة، ففرد ذراعيه كما لو كانا جناحيْن، وأخذ يقرقر مُقلدًا صوت الديك الرومي، فأطلقت شاشا ضحكة صاخبة، ثم التفت بوجهها يَمنة ويسرة بملامح مليئة بالتوتر، لتتأكّد ما إذا كان أحد من أقرانها قد رأى ما حدث، فلمحت الصبي الأصهب ينظر إليها شذرًا. سألها كارل:

ـ أهذا هو سيمون؟ الولد الذي يضايقكِ دائمًا!

أومأت شاشا بتردد وقالت:

ـ من فضلك، لا تذهب إليه.

ـ بالطبع لن أذهب، سأتعامل مع الأمر بأسلوبي الخاص، لكل شيخ طريقة.

ـ بمساعدة الكتب؟

ـ بالطبع، ولكن هل تعرفين عنوانه؟ بعد أن رأيت سيمون، عرفتُ الكتاب الملائم لحالته.

ـ ولكن من فضلك، لا تضعه في موقف مُحرج.

قُرع جرس المدرسة معلنًا انتهاء الاستراحة.

ـ للأسف لا بد أن أعود إلى الفصل الآن.

ـ هل ترغبين في جولة جديدة لتسليم الكتب؟

زمَّـت شاشا شفتيها قائلةً:

ـ مؤكّد.

ـ مساء اليوم؟

أومأت شاشا رأسها ببطء دون أن تنبس بكلمة، ثم ركضت عبر فناء المدرسة باتجاه الباب الأمامي الذي كان مطليًّا بطلاء أحمر مُقشّر في أماكن كثيرة، لتغيب داخل مبنى الفصول.

في طريق العودة مرَّ كارل بمتجرٍ صغير يبيع زهور الحرير[1]، فقرر الدخول، سأل البائعة عن أنواع الحرير المستوردة من بلاد جزيرة الكنز، أو الغرب المتوحش، أو من منطقة نهر المسيسيبي حيث يعيش هاكلبيري فين[2]. لم تفهم البائعة مغزى كلامه، وأخبرته أن ما يراه من أنواع التيوليب والخشخاش والقرنفل هي الأصناف الوحيدة المتاحة الآن.

أخذ كارل زهرة من كل نوع، وشكَّل باقة متنوعة الألوان، غلّفت البائعة الزهور بعناية لمّا أخبرها كارل أنه سيضعها فوق مقبرة صديق حميم. استولى الذهول على البائعة، وأخبرته أنَّ هذه الزهور الاصطناعية غير مُخصصة لهذا الغرض، وأنَّ أوراق زهور الحرير تتلف أسرع من تلف أوراق الزهور الطبيعية، فأجاب كارل:

ـ لا بأس، كل غرضي أن أثير الضحكَ في قلب صديق قديم، وأُدخِلَ على قلبه السرور.

طالما رأى جوستاف أنواعًا عدة من الورق المُزيّن بكلمات مطبوعة، لكنه لم يرَ ورقًا على هيئة أوراق زهور قط. قصد كارل مقبرةَ صديقه، وبمجرد أن دخل وأغلق البوابة حتى رأى

---

(1) نوع من الزهور الاصطناعية المصنوعة من الحرير أو نسيج الحرير الرقيق، وقد ظهرت أول مرة في الصين قبل آلاف السنين (المترجم).
(2) اسم رواية للكاتب الأمريكي مارك توين (المترجم).

سابينه جروبر واقفةً أمام ضريح أبيها، فابتعد واستدار يمينًا للجلوس على المقعد المصنوع من حديد الزهر. فوق هذا المقعد بالتحديد أرته شاشا الألبوم الذي دوَّنت فيه أفكارها العظيمة عن ضرورة اختيار الكتاب الذي يجعل الإنسان سعيدًا، كان المقعد قريبًا من قبر جوستاف، لا يكاد تفصل بينهما سوى شجرة كثيفة الفروع، وارفة الظلال، ولا يمكنك اختراق فروعها ورؤية ما وراءها إلا من خلال زاوية بعينها. جثت سابينه على ركبتيها أمام الضريح الذي استقرَّ فوقه صليب خشبي بسيط جرى تثبيته بصفة مؤقتة، وأصاخ كارل السمع:

- انظر يا أبتِي: هذا هو شكل الضريح في المستقبل، سيكون شاهد القبر مصممًا على هيئة كتاب مفتوح فيه سطور موجزة عن حياتك الحافلة.

أزاحت سابينه خصلة من شعرها خلف أذنها بحركة متوترة:

- أطرح عليك الآن اقتراحًا جميلًا أعرف أنك ستوبخّني بشأن ترتيبات الجنازة ومراسم الدفن.

طَوَتْ سابينه جروبر مسوّدة تصميم الضريح ودسّتها في جيب سترتها، وأضافت:

- ومع ذلك أظن أني أحسنتُ صنعًا، لا أنكر أني افتقدتُ الأصدقاء والأحبة في الجنازة؛ بسبب اقتصار مراسم الدفن على بضعة أفراد فقط، ولم يكن يخفى عليَّ أن ذلك يُحزنكَ؛ لأنك

طالما كنتُ محبًّا للناس، ومُحبًّا لوجود أكبر عددٍ منهم جوارك، أعتذر منك يا أبي. هل تسمعني؟

لمحت سابينه عشبة ضارة اخترقت تربة المقبرة، فنزعتها بقوة، ثم تابعَت مُسترسِلةً في حديثها:

- أبي: تمرُّ عليَّ أحيان لا أكاد أطيق فيها نفسي، ولعلي لست الوحيدة التي يراودها هذا الشعور، لكني أبذل قصارى جهدي لوضع الأمور في نصابها؛ كي أكون موضع فخركَ واعتزازك، لكني أعلم أنني مهما بذلتُ من جهد، ومهما اجتهدتُ في عملي، فلن تفخر بي أبدًا، أعلم ذلك. كانت أمامي فرصة لإثبات جدارتي، وكانت أمامك فرصة لتُثبت إيمانكَ بقدراتي، وأهدر كلانا الفرصة. أعتقد أنني لم أُوهَب مواهبك الفطرية الفريدة في إدارة المكتبة مثلك، في استطاعتي أن أكدَّ وأكدح في عملي ما شئتُ، لكن هيهات أن أبلغ براعتك، أو أن أبلغ براعة صديقك العزيز كارل كولهوف الذي يراني حتى هذه اللحظة فتاة صغيرة لا تحسن التصرف، أتعلم أنه ذهب ذات مرة إلى مُعلّمة اللغة الألمانية وشكا من حصولي على درجة (ج)، مع أنني أستحق درجة (أ)؟ وقد ذاع الخبر حتى بلغ زميلاتي في الفصل، فأوقعني ذلك في موقف لا أُحسَد عليه. كان يتصرف كأنه أبي، كان يتصرف كأنكَ غير موجود، ربما نبع سلوكه من سلامة طوية ونيّة حَسَنة، بل من المؤكد أنه تصرَّف بحُسن نيّة، لكني لم أطلب منه ذلك قط، لستُ في حاجة إلى

كارل، أستطيع تدبير شؤوني من دون معونته، أبي: من فضلك توقّف عن رسم تلك الابتسامة القاتمة الطافحة بالمرارة وخيبة الأمل، ألا تستطيع أن تفيض عليَّ شيئًا من دفء المشاعر حتى وأنتَ في قبرك؟ ألا تستطيع أن تبدي تفهّمكَ لرأيي وموقفي ولو مرة واحدة؟ للأسف طالما فشلتَ في أن تشملني بهذا المشاعر في حياتك!!

رفعت سابينه رأسها وشخصت ببصرها إلى السماء داكنة الزرقة، وزفرتْ زفرة هائلة، ثم استطردت:

ـ وهل تذكر كيف كان الغضب يتطاير من عينيكَ عندما أُسوِّدُ الصفحات الأخيرة الفارغة من كتبكَ؟ اعتدتُ رسم صورٍ طفولية تصف عنوان كل رواية، أظن أنني أحسنتُ الرسم على الصفحة الأخيرة من رواية (قط وفأر) لجونتر جراس، لكنك استشطتَ غضبًا حينذاك؛ لأنني أفسدت روايتكَ المفضلة...، يا إله السماوات! كنتُ طفلة صغيرة! لم أستطع قط منافسة حب الكتاب الذي استحوذ على قلبكَ. والآن..، لماذا رحلتَ قبل أن أخبرك بكل هذا؟ لماذا؟

بعدها نهضت سابينه من ركوعها أمام القبر، ورفعت سحّاب سترتها.

ـ أتعلم أشدّ ما يُحزنني؟ إنني أحب الكتب، بل إن حبّها يجري في دمي، ومع ذلك لم تفلح الكتب في إدخال السعادة

إلى قلبي مثلما فعلَتْ معك، كانت الكتب أحبّ إليكَ مني، ولا أستطيع أن أسامحك على ذلك أبدًا.

تردّدت سابينه هنيهةً قبل أن تلمس الصليب الخشبي لمسة خفيفة وتنصرف. انتظر كارل قليلًا حتى غادرت سابينه جروبر محيط المقبرة، ثم نهض من مقعده ليضع باقة الزهور المصنوعة من الحرير على ضريح صديق الأيام الخوالي، وما من شك في أنه كان محتاجًا إلى مزيدٍ من الوقت ليستوعب، ويحلّل ما قالته سابينه للتو. كان جوستاف مهموم الخاطر بفكرة أن ابنته لا تملك من المهارة والأدوات ما يُمكّنها من تولي زمام الأمور في المكتبة، ولهذا لم يُطلق يدها في الإدارة مؤملًا أن تتفّهم الابنة ذلك فيما بعد. وبعد أن أدرك أنه أساء التقدير وأخطأ الظن كان الأوان قد فات على استدراك الخطأ وإعادة الأمور بينهما إلى نصابها، وكأن فصول رواية علاقة الأب بالابنة قد انتهت، ولا مزيد يُقال.

في فترة ما بعد الظهر أكبَّ كارل على إفراغ مزيد من رفوف المكتبة لبيعها. ها هو ذا صار قاب قوسين أو أدنى من النهاية، وسرعان ما سيعيش وحيدًا من دون كتب تؤنس وحدته. في البداية شمل كل كتاب بنظرةٍ عميقة، وشعر بمدى قُربه من قلبه، وها قد جاءت اللحظة التي رُصَّت فيها كتبه العزيزة داخل صناديق بنيّة اللون تمهيدًا لبيعها، وسيأتي الشاب المتدرب ليون عما قريب ليأخذها إلى متجر الكتب القديمة، وسيستثمر كارل

حصيلة بيعها في مواصلة جولات تسليم الكتب.

في ذلك المساء وصل كارل إلى ساحة ميدان مونستربلاتس في موعده بالدقيقة والثانية، وأجال بصره في أرجاء المكان باحثًا عن شاشا، وعندما وصلتْ الصَّغيرة رآها تلهث، وإنْ بدا مزاجها معتدلًا، كان والدها قد ضرب موعدًا لزميل بالعمل، وأخبرها أنه سيتأخّر، لكنه أعدَّ لها وجبة عشاء ساخنة مكوّنة من: الفطائر، والبازلاء، والجزر، وكثيرٍ من الصلصلة، هذا فضلًا عن هدية مكافأةً لها على الامتثال لأوامر أبيها والتوقّف عن رؤية كارل. أما هدية الأب، فكانت رقعة شطرنج، إذ أراد والدها تعليمها قواعد اللعبة، وهو ما ضاقت به شاشا؛ لأنها سبق أن أخبرت والدها بوضوح أن المدرسة نظَّمتْ السنة الماضية مجموعة عمل لتعليم لعبة الشطرنج، ووجدتها لعبة سخيفة. وأخذت تفكَّر أن الهدية التي تحملها الآن لِكارل في حقيبة ظهرها خير من هدية أبيها لها.

ـ تفضّل..، هذه لأجلك.

كانت عبارة عن ورقة مقاس A4 مطوّية على شكل أسطوانة، ومربوطة بشريط أحمر جميل.

ـ هل يجب أن أفتحه على الفور؟

ـ أكيد، أودَّ رؤية الفرحة على وجهكَ.

حلَّ كارل الشريط بعناية، وفتح الورقة، وقبل أن يشرع في

فحص محتوى الورقة عن كثب، بادرت شاشا بشرح الصورة المرسومة بأقلام الرصاص الملونة.

- ها أنتَ ذا واقف في منتصف الدائرة مثل دودة الكتب، وجوارك الكلب، وجميع أصدقائكَ حولك..، هل تعرّفت على جميع من في الصورة؟"

قال كارل مشيرًا إلى دودة تقف أمام منزل مهيب:

- هذا هو دارسي، وهذه إيفي (دودة الزهور)، وهذا الشاب هرقل (دودة كمال الأجسام)، وهذا هو القارئ (دودة السيجار)، وهذا فالدكتور فاوستوس (صاحب النظارة العملاقة)، وهذا الأخت أماريليس (ترتدي زيّ الراهبة)، وهذه السّيّدة لانجشترومف وفي يدها عصا التدريس، ويقف خلفها هرقل، هذا لطيف منكِ يا شاشا.

- هل أعجبتكَ الصورة؟

- بكل تأكيد، وكيف لا؟ هل يمكنني أن أعانقكِ؟

- لا داعي للسؤال، أنا لا أسأل أبدًا حين أعانق مَن أحبّ.

صحيح أنّ العناق دليل على المحبّة الصافية، حتى وإن لم يعرف كارل من البداية أن يضع ذراعيه، أما شاشا، فكانت تجيد العناق كما كانت تجيد الرقص، بيت القصيد عندها أن يتقن الإنسان كل شيء يحبّه. قال كارل:

- كما تعلمين، فإنَّ ديدان الكتاب مخلوقات شديدة الندرة،

وعادةً ما تكون مفرطة الخجل، والأنواع المعرّضة للانقراض تنبغي حمايتها بشكل عاجل.

ـ لا تقلق، سأحميك.

ـ لي عندكِ طلب آخر.

ـ تفضّل!

ـ لقد نسيتِ رسم أهمّ شخص في الصورة.

انفصلت شاشا عنه وسألت:

ـ ومَن نسيتُ؟»

ضحك كارل:

ـ نسيتِ أن ترسمي نفسكِ!

لوَّحت بيدها في إشارة على عدم الاكتراث:

ـ لا أهمية لوجودي على الإطلاق.

ـ بل أنتِ أهمُّ إنسان في الصورة.

ـ ترُى لو تسابقنا الآن مَن سيصل إلى فيلا السّيّد دارسي أولًا؟

قالتها شاشا ولمّا تركض بعد، وإنما تأهبَّت للركض وهي تنظر إلى كارل ضاحكةً، ثم أضافت:

ـ سنركض من باب اللعب واللهو فقط، أعرف أنكَ خاسر لا محالة.

انطلق كارل راكضًا. بالطبع لم تكن لديه فرصة ليسبقها، فوصل بيت السّيّد دارسي لاهثًا، ولم تمنحه شاشا وقتًا لالتقاط الأنفاس، وسارعت بقرع الجرس. فتح السّيّد دارسي بسرعة وهو مشرق الجبين وقال:

ـ مَن لا يستمتع بقراءة الرواية الجيدة سواءً أكان رجلًا نبيلًا أم سيدة راقية، فلا بد أنه أحمق لا عقل له..، هذا هو اقتباس اليوم الذي جاء على لسان شخصية تيلني من دير نورثانجر.

أشار إليهما بالدخول.

ـ لديَّ شيء لأريكما إياه، وخصوصًا أنتِ يا شاشا.

هرول السّيّد دارسي عبر الردهة الطويلة، متجهًا إلى غرفة المعيشة الكبيرة التي تمتد خلف نافذتها ساعة الزهور. وبالطبع تنبّه كارل وشاشا إلى التغيّر الذي طرأ على منزل السّيّد دراسي، لم يعد يعيش بمفرده، بعد أن أنشأ رفَّ كتب رُصَّت فوقه روايات جين أوستن، وهكذا صار الرجل في رفقة البطلات القارئات، كما ودَّ طوال حياته: فاني برايس، وآن إليوت، وكاثرين مورلاند، وإلينور وماريان داشوود، وبالطبع إيما وودهاوس، وإليزابيث بينيت[1]. مع أنه لم تكن في استطاعته

(1) الأسماء الواردة هي أسماء بطلات روايات الكاتبة جين أوستن، وكنَّ جميعهن سيدات قارئات شغوفات (المترجم).

رؤيتهنَّ، وهن يقرأنَ الروايات، لكنه حظي على الأقل بفرصة أن يقرأ عنهنَّ.

وكما أنَّ اشتعال حطب المدفأة يدلُّ على برودة الطقس في الخارج دلَّتْ قلة الكتب في بيته على خواء حياته داخل هذا البيت، ومع ذلك، فقد أسبغت عليه الروايات مزيجًا من الشعور بالسعادة والحزن في آن واحد.

ـ تفضّل حضرتك بالجلوس.

ثم تنبّه دارسي إلى أنه استعمل ضمير مخاطبة الغرباء، فأضاف:

ـ بل اجلسْ... نحن على معرفةٍ وثيقة منذ فترة طويلة، وأظن أن الوقت قد حان لرفع الكُلفة بيننا؟ أليس كذلك يا صديقي؟ ربما أكون الأصغر سنًّا، لكن لا أريد لأي فوارق طبقية بغيضة أن تعكِّر صفو مودتنا، تعلّمتُ هذا على يد العزيزة جين [أوستن]..نادِني باسمي الأول كريستيان.

قالها الرجل بعد أن مدَّ يده إلى كارل، فقال كارل وهو يمدُّ يده بالمصافحة:

ـ بالطبع...، نادِني كارل.

ـ تفضّلا بالجلوس.

قالها بنبرة أكثر حميمية هذه المرة، وبدت على ملامحه الحماسة لبدء محادثة ودودة مع الاثنين.

- راودتني الليلة الماضية فكرة تأسيس نادٍ صغير للقراءة يجتذب هُواة القراءة لمطالعة كتابٍ ومناقشته كما دَرَج النَّاس أن يفعلوا في العصور الغابرة، عندما كانوا يتحلَّقون حول النار، فيقصّون الحكايات على بعضهم، ربما كان جامع النَّاس في العصر الحجري هو التماس الدفء، أما القصص، فكانت سبيلهم إلى التحضّر والتمدن..، ما رأيكما؟ هل ينبغي الإعلان عن النادي؟ تتسع مساحة منزلي لاستقبال القُراء، وفي فصل الصيف يمكننا الجلوس في حديقة المنزل بعد توقّف المطر بالطبع.

ما أشد شعور شاشا بالزهو!! لأن السّيّد دارسي لم يُسقِطها من حساباته لمّا سأل: «ما رأيكما؟»، وشعرتُ أنها كبرت عشر سنوات دفعة واحدة، ومع ذلك كانت تضيق ذرعًا بفكرة مناقشة الكتب مع الآخرين، بعد أن شبعت من مناقشة الكتب في حصّة اللغة الألمانية.

أما كارل، فلم يكن من المتحمسين لفكرة أندية القراءة؛ لأنها تشعره بالقلق، علاوة على ذلك، فكارل معروف بأنه ساعي بريد الكتب الجوّال، وليس جليس الكتب، ولكن إلى متى سيكون في استطاعته أن يواصل نشاطه؟ في تلك اللحظة أدرك أنَّه لم يبقَ أمامه إلا عدد قليل من الجولات لتسليم الكتب، وأنه لن يستطيع مستقبلًا المرور بالزبائن خاوي الوفاض من الكتب، فتسليم الكتب هو محور حياته وأساس وجوده، ومن

دون الكتب لا وجود لمخلوق اسمه «كارل كولهوف». لم يطِق ذهنه تحمّل هذه الفكرة، فنهض متأهبًا للمغادرة.

ـ بكل أسف، يجب علينا الانصراف والمضيّ لتسليم الكتب.

وأضاف:

ـ لن يسعفنا الوقت، ويجب علينا المضي قدمًا.

ـ ولكنك لم تخبرني برأيك شخصيًّا يا كارل في فكرتي؟

ـ بالتأكيد يجب على حضرتك...، أقصد يجب عليكَ أن تشرع على الفور في تنفيذها.

وأكَّدت شاشا:

ـ هذا أمر مُحتَّم..، سأذيع الخبر في كل مكان، لا تقلق..، لن تحتاج إلى إعلان.

أما كارل، فقد مشى مسرعًا إلى باب المنزل.

ـ من فضلك يا كارل: أرجو منكَ أن تجلب لي كتاب الروايات غير المكتملة لِجين أوستن في المرة القادمة، أقصد كتاب (السّيّدة سوزان، وآل واتسون وساندِيتون)[1]، نفدت طبعات الكتاب، ولم أوفّق في الحصول عليه.

---

(1) تشكّل الأعمال الثلاثة المذكورة معًا رواية واحدة غير مكتملة، ولم تُنشر في حياة أوستن، وهي تصف مراحل التطوّر النفسي للكاتبة الإنكليزية الكبيرة (المترجم).

كان السّيّد دارسي يخطّط ليبدأ نادي القراءة بمطالعة هذا العمل الكلاسيكي المهم، لم يسمع العبارة إلا شاشا؛ لأن كارل مشى بعيدًا، فقالت شاشا:

ـ سندبّر لك نسخة من الكتاب.

وبعدما لحقت الصبية بكارل سألته:

ـ لِمَ هربتَ؟

ـ لدينا كثير من الكتب لنُسلِّمه اليوم.

ـ أنت اليوم غريب الأطوار، بل أغرب من أي وقت مضى!

أجاب كارل:

ـ في المشي شفاء من غرابة الأطوار.

افتعلت شاشا الضحك، لا لشيء إلا لتبديد سحابة التوتر التي غيّمَتْ على نفس كارل، كانت قادرة على الضحك والبكاء بحسب ما تُمليه الظروف، إلا أن الضحك كان يُشعرها بالتحسّن أكثر من البكاء، ومع كل خطوة يخطوها كارل كان ينقر بطرف مظلته على حجارة الرصيف، بعد أن جاش صدره غيظًا؛ بسبب عجزه عن تغيير حالته البائسة، ولم يرَ سبيلًا لوقف نهاية مسيرة سنواته الطويلة في عالم الكتب. انضمَّ الكلب إلى الركب، فطرب قلب شاشا فرحًا، وأرادت الوثب عاليًا، ثم أخرجت من جيب معطفها قطعة طعام مجفف على شكل فأر صغير اشترته

خصيصًا لتلقمه إياه. أخبرتها البائعة في متجر الحيوانات الأليفة أنَّ القطط تتلهف شوقًا لمثل هذا النوع من الطعام المجفف.

ـ هل سنمرُّ بمنزل الدكتور فاوستوس اليوم؟

ـ لكنه لم يطلب شيئًا! لِمَ تقولين ذلك؟

ـ علينا المرور به على أي حال، وعلى الفور.

ـ لكن مسارنا اليوم مختلف و...

ـ أعلم، ولكن تجب علينا زيارته..، أرجوك..، أرجوك..، أرجوك....

ـ ها أنتِ تستعملين ورقة الضغط التي لا يمكنني رفضها أبدًا.

ـ بالضبط. إذًا هل سترفع الراية البيضاء أمام طلبي؟

وبالفعل لم يملك كارل إلا الرضوخ لرغبة الصبية، ولم تمر بضع دقائق حتى قرع كارل جرس باب منزل د. فاوستوس، ولمّا فُتح البابَ فركَ الرجل عينيه، وكأنه يحاول الإفاقة من حُلم، ولعله ظنّ الضيفين سيختفيان حالما يفرك عينيه.

ـ حللتما أهلًا..، ونزلتما سهلًا.

قالها د. فاوستوس الذي كان مغرمًا باستعمال عبارات الترحيب العتيقة التي عفَّ عليها الزمن، ثم سأل:

ـ أي ريح طيبة أتت بكما إلى بيتي؟

عندها نَظَر كارل إلى شاشا مترقبًا جوابها، فقالت شاشا:

ـ نحن في حاجة إلى مساعدتكم، هذا القط محتاج إلى مأوى مدة أسبوع واحد فقط.

ـ وما السبب؟

ظنَّت شاشا للوهلة الأولى أن د. فاوستوس سيُرحِّب على الفور متحمسًا ويعانق القط، حتى إنّها تخيّلته في ذهنها يعانق القط معانقةً حميمة، وأن القط يموء بفرحة عارمة. وعلى حين غرّة طاف برأسها ما جرى لها مع سيمون في المدرسة.

ـ هذا القط يتعرّض للمطاردة والهجوم من قطط الشوارع، وهو قط وديع مُسالم، لكنه يتعرّض لما يُسمى اليوم (التنمّر).

ثم أعطت القط قطعة الغذاء المجفف.

ـ أترى كيف يحبُّ الكلب الطعام المجفف؟

ـ كلب!!

ـ عفوًا، أقصد القط..، سأجلب لك صندوق النظافة الشخصية الخاص به غدًا، وحتى ذلك الحين يمكنك فرش الجرائد القديمة لقضاء حاجته..، هذا بحسب كلام البائعة في متجر الحيوانات الأليفة.

ـ لا أفهم لماذا أتيتِ بهذا المخلوق إلى منزلي؟ لا خبرة لي برعاية الحيوانات الأليفة على الإطلاق.

ـ لأنك الوحيد من بين زبائن كارل الذي يعيش بعيدًا عن مناطق نفوذ قطط الشوارع، ومن ثم سيكون القط المسكين في مأمن وهو في بيتكَ.

غمغم د.فاوستوس. ربما تخيف هذه الغمغمة بعض النَّاس، أما شاشا، فقد عرفت أنها حسمت المعركة لصالحها.

ـ ما رأيكَ في ليلةٍ واحدة لتجربة المسألة؟ أو ربما ليلتين؟

ـ لا بأس.

ـ رائع، جزيل الشكر، ولا تعجَبْ لو أصدر القط أصواتًا غريبة، هذا طبيعي، والآن علينا الانصراف على وجه السرعة..، وداعًا.

جذبتْ شاشا كارل من طرف قميصه جذبةً قوية كاد يتعثّر لها، وساوره شعور أنهما لِصَّان متمرسان يسرقان الكُحل من العين، فسأل كارل:

ـ هل تظنّين خطتكِ ستنجح؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

هزَّت شاشا كتفيها وقالت:

ـ لا أعرف! ربما، وإن لم تنجح الخطة، فيكفي أني بذلت جهدي لأدخل شيئًا من السعادة على قلبه، إن لم ينجح كلب صغير في إسعاده، فلن ينجح شيء أبدًا.

ـ لكنه قط!

ـ بالضبط، هذا ما أعنيه.

ثم ألفيا نفسيهما أمام منزل إيفي الذي تعالى منه صوت صراخ حاد أفزَعَ سرب حمَام مصطفٍ على سطح المنزل، فما لبث أن طار الحمَام مذعورًا، وسرعان ما خلع كارل حقيبة ظهره، وأخرج منها كتاب إيفي، وأسرع بخطوات حازمة إلى باب المنزل. وفي كل مرة يهمُّ بقرع الباب، تدوّي صرخة جديدة، فيجفل كارل متراجعًا. كان الصراخ حادًّا عالي النبرة، من النوع الذي يُسمع بعد وخزة ألم ممض، كان صُراخًا لا يحمل أملًا في إنهاء الألم. ثم نظر واجمًا إلى شاشا، وقال:

ـ في بعض الأحيان لا تكفي الكتب وحدها لصِّد الأذى، ولا تكفي صفحات الروايات لإبراء الجراح، علينا البحث الآن عن هاتف عمومي لإجراء مكالمة.

ـ لا نحتاج إلى هاتف.

أعطته شاشا هاتفها الجوال وفتحته، وقالت:

ـ انقر على الزر الأخضر.

لم يدر كارل ماذا يفعل، فأخذت الكتاب من يده وتولّت المهمة، وأعطته الهاتف من جديد. هاتَفَ كارل الشرطة، وأبلغ قسم النجدة بالعنوان، وبعد شيءٍ من التردد والمماطلة أبلغ شرطة النجدة باسمه أيضًا، ولما أبلغوه بقدوم سيارة الشرطة على الفور، أعاد الهاتف إلى شاشا.

ـ وسيلتي الوحيدة لإغلاق الخط هي إعادة السمّاعة إلى موضعها في الكابينة.

ـ أي سمّاعة؟ لقد أغلقتَ الخط بالفعل.

نظر كارل حوله، كان يفتش عن بقعة آمنة تمكّنه من رؤية منزل إيفي من حيث لا يراه أحد، فلمح حاوية قمامة معدنية كبيرة أمام صالون تجميل الأظافر، وذهب مع شاشا للاختباء وراءها. وقفت شاشا على أطراف أصابع قدميها، واشرأب عنقها لتتطلّع إلى ما يجري من وراء الحاوية باردة الملمس. استغرق الأمر عشر دقائق حتى جاءت دورية الشرطة، وتوقفت أمام منزل إيفي. انخلع قلب شاشا في تلك اللحظة، وتجمّدت أطرافها من فرط الخوف. هبط ضابطا شرطة من سيارة الدورية الشرطية، وقرعا باب المنزل. سرعان ما فُتح الباب، ووقفت إيفي في صحبة زوجها الذي وضع يديه الاثنتين على كتفيها، وبالتحديد قُرب عنقها، وهو يضغط عليه ضغطًا خفيفًا يكاد يُرى.

ـ نعتذر على الإزعاج، لكنا تلقّينا مكالمة هاتفية تفيد بسماع صوت صراخ حاد منبعث من المنزل.

نظر ضابط الشرطة إلى إيفي، واستطرد:

ـ صراخ امرأة مستغيثة، وافترَضَ المتّصل أنكِ تتعرضين للضرب، أو أن ثمة امرأة أخرى في المنزل.

قال زوج إيفي ضاحكًا:

ـ لا ريب أن المسألة راجعة إلى سوء فهم، صوت التلفاز كان مرتفعًا للغاية.

سأل ضابط الشرطة إيفي:

ـ هل هذا الكلام صحيح؟

ـ نعم

قالتها إيفي وعلى وجهها ابتسامة، بينما قال زوجها:

ـ أخبري ضابط الشرطة يا حبيبتي أنني لا أستطيع أن أضربكِ أبدًا.

ـ أبدًا..

قالتها إيفي بعد ابتسامة خفيفة. تفرَّس ضابط الشرطة ملامحها قليلًا، ثم سألها:

ـ هل تودّين الحديث معي على انفراد؟

ـ لا....، لا تريد زوجتي ذلك، ليس لدينا ما نخفيه، وهذه سمة الزيجات السعيدة، أؤكد لك أن زواجنا ناجح.

طَبَعَ الزوجُ قُبلة طويلة على خدّها، ارتعدت إيفي وتراجعت خطوة؛ لأنه قبّلها على الخدِّ الذي صُفِعت عليه قبل دقائق، فسألها ضابط الشرطة:

ـ هل يؤلمكِ خدّكِ؟

أجابت إيفي مبتسمة:

ـ أعاني من ألم أسنان حاد.

رمقها ضابط بنظرة طويلة اخترقت عينيها، وعقد زوج إيفي ذراعيه أمام صدره، وقال:

ـ نقدِّر مجيئكَ، ونقدِّر أن الشرطة تنظر بعين الاهتمام إلى مثل هذه البلاغات، لكنه مجرد بلاغ كاذب ليس إلا، في المرة التَّالية لو تلقيتَ مكالمة هاتفية بالمضمون نفسه، فاعلم أنني نسيت صوت جهاز التلفاز مرتفعًا، مما سيوفّر عليكَ مشقة المجيء إلى هنا..، أليس هكذا يا حبيبتي؟

ابتسمت إيفي قائلة:

ـ نعم، هناك بالتأكيد نساء أخريات في أَمَسِّ الحاجة إلى مساعدتكم.

ـ والآن حبيبتي..، ما رأيك في أن نواصل مشاهدة الفيلم حتى النهاية؟ ما من شكّ في أن نهاية الفيلم ستكون رائعة، وبالطبع سأخفض صوت التلفاز.

خرج كارل من وراء الحاوية، لم يكن يريد ذلك، خفق قلبه بقوّة، وراحت ساقاه ترتعشان من فرط التأثّر، لكن إرادة عقله كانت أقوى من إرادة جسده، فصاح:

ـ كلاهما يكذبان، كان يضربها..، لقد سمعتُ ذلك، لم يكن الصراخ صادرًا من التلفاز.

وهنا انتبه زوج إيفي إلى وجوده وقال:

- حسنًا..، ها أنت ذا يا بائع الكتب الأخرق! خمّنت ذلك بطبيعة الحال..، من هذه اللحظة فصاعدًا لن تطلبي من هذا المخبول مزيدًا من الكتب يا حبيبتي، وإلا ستمتدُّ يدي إليه ويذوق ما يستحق.

ثم أطلق ضحكة صاخبة، ثم ضحكت إيفي أيضًا، مع أن خروج الضحكة كبّدها ألمًا اهتزَّ له جسدها كله، نظر الشرطيان إلى كارل، لم يريا فيه ذلك الرجل صادق الكلمة، ذا الضمير الحي، وإنما رأياه شيخًا مسنًّا، رثّ الثياب، ذا نظرات زائغة تشي بعقل مضطرب، ولم يكن سلوكه صادرًا إلا عن عجز عن التأقلّم من الحياة. قال ضابط الشرطة:

- في المرة القادمة، احرصي على التأكّد من أن لم يترك أحدٌ صوت التلفاز مرتفعًا، ومع أننا نفضّل معالجة الأمور قبل تفاقمها، فلسنا مخَوَّلَيْن باتخاذ أي إجراء إلا بعد إبلاغ ضحية العنف المنزلي بنفسها.

لم تكن العبارة السابقة مُوَجَّهة إلى كارل، بل إلى إيفي، لكن الزوج أغلق بوابة المنزل الأمامية بإحكام، وبعدها بثوانٍ أسدَلَ ستائر النوافذ المواجهة للشارع .

لم ينبس كارل بكلمة في أثناء الطَّريق إلى دير الأخت أماريليس، بينما لم تكُفّ شاشا عن طرح الأفكار والمقترحات

لإخراج إيفي من أزمتها، بداية من اقتحام المنزل عُنوة، ووصولًا إلى الاستعانة بمُحقق سرِّي خاص (أو الاستعانة بعصابة من الفتيات اللواتي ينجزن المهام الخاصة).

ولمّا وصلا إلى الدير رأت الراهبةُ كارل محزونًا كاسف البال، فسألته إن كان قد تعرّض لمكروه. في هذه اللحظة انهارت أعصابه، وتحطّمت القشرة الصلبة التي يخفي تحتها انفعالاته ومشاعره، فقصَّ عليها ما جرى، وتحدّث بحُرقة شديدة عن إيفي، وعن خوفه عليها، وعن فشله في تقديم يد العون إليها، ولم يكف عن الحديث حتى ربّتت الأخت أماريليس على ساعده بلطف وهي تقول:

ـ لا تقلق، ستمضي الأمور على ما يُرام.

ـ لا..، لن يسير شيء على ما يُرام.

سوَّت الأخت أماريليس زيّها الكَنَسي تأهبًا للخروج، وقالت:

ـ سأزورها في بيتها.

ـ لا...، لا ينبغي عليك فعل ذلك، لو غادرتِ الدير، فلن تستطيعي العودة إليه أبدًا!

ـ ماذا؟ هل ترى أحدًا يراقبني؟ طالما أهمّني هذا الأمر طَوال الوقت.

ـ ولكن...!!

ـ دون اعتراض منك: ترى أي راهبة سأكون إذًا لو خشيتُ مواجهة الشر، ولذتُ بجدران سميكة والخوف ملء ضلوعي؟ أليس من الأجدر بي أن أخرجَ للأخذ بيد إنسانٍ في أمسّ الحاجة إلى المساعدة؟

سألتها شاشا:

ـ وماذا في مقدروك أن تفعلي، الشرطة نفسها عجزت عن فعل أي شيء!!

غابت الأخت أماريلس في إحدى غرف الدير، وعادت وهي تحمل نسخة من الكتاب المقدس، وقالت:

ـ إنّ كلمة «الله» هي الأقوى.

رأتْ نظرات الشك تطل من أعين كارل وشاشا، فأضافت:

ـ فإن لم تكن كلمة الحق دامغة، فيمكننا أن نقذف بكلمة «الله» في وجه الغاشم.

رمقتهما بنظرة واثقة، وخرجت إلى الشارع بعد أن أوصدت باب الدير خلفها، وفي أثناء خروجها من الدير لامستْ الراهبة حجارة السور ملامسة رقيقة حانية، كأنما تمسّد على شعر حيوانها الأليف، إذ تتركه بمفرده في المنزل، ثم زفرت زفرة قصيرة، ونظرت إلى كارل قائلة:

ـ خذني إلى بيتها.

انطلقت شاشا لتركض، فسبقتهم ببضع خطوات، ثم هتفت:

ـ ليس البيت بعيدًا، إنه على بُعد خطوات.

لم يتطرّق أي شكٍّ إلى شاشا في أن الأمور ستمضي على خير وجه، فالأخت أماريليس راهبة، أو بالأحرى هي قديسة مثلها كمثل القديس مارتن أو سانتا كلوز، بمعنى أنها في نهاية المطاف امرأة خارقة، صحيح أنَّ شاشا لم تكن تعرف ماهية القوى الخارقة التي تتمتع بها الراهبة؛ لكن من المؤكد أن عينيها لا تبثّان أشعة ليزر قاتلة، كما أنها لا تستطيع الطيران مثل أبطال أفلام الرسوم المتحركة، لكنها بالقطع مختلفة عن البشر العاديين، ولئن عجز البشر العاديون عن مساعدة إيفي المسكينة، فلا ريب أن امرأة وُهِبَت قوى سماوية خارقة هي الوحيدة القادرة على إنقاذها.

في أثناء الطَّريق لم تتوقف الأخت أماريليس قليلًا لالتقاط أنفاسها، واستحثَّت الخطا باتجاه المنزل الذي أرته إياها شاشا وقرعتْ الباب بيدها. لم تقرع الراهبةُ الجرس؛ لأنها شعرتُ أن طَرْق الباب بيدها سيكون له وَقْع أقوى.

ـ مَن الطارق؟

جاءها صوت ذكوري أجشّ.

ـ اسمي الأخت ماريا هيلدجارد، راهبة في دير البينديكتين في سانت ألبان.

ـ على حد علمي لم يعد الدير قائمًا اليوم.

ـ ما دمتُ أنا موجودة، فالدير موجود.

ـ آه.. عرفتكِ، أنتِ الراهبة المخبولة... لا نريد التبرّع بشيء.

ـ لم آتِ لجمع تبرعات.

ـ ولسنا في حاجة إلى شراء شيء من منتجات الدير.

ـ ولم آت أيضًا لأبيعكما شيئًا.

ـ لسنا في حاجة إلى شيء.

ـ الجميع محتاج إلى الله.

ـ اغربي عن وجهنا!

ـ لا...، لن أتزحزح عن مكاني قيد أنملة، وسأبقى ليعرف جيرانكَ أن راهبة تقف ببابكَ، وأنك تمنعها من الدخول.

زمجر الرجل بصوت حاد:

ـ هل مسَّ الجنون النَّاس كلهم اليوم؟ إيفي: اذهبي وانظري ما تريد تلك المرأة، ولكن أسرعي، فلم نحسم أمورنا معًا، ولمَّا أسوِّ حسابي معك بشأن حكاية بائع الكتب المعتوه بعد!

عدلت إيفي ملابسها لتبدو في أبهى صورة، ومشّطت شعرها، ووضعت شيئًا من مساحيق التجميل على وجهها، ثم

انتعلت حذاءها الأبيض باهظ الثمن ذا الكعب المرتفع، فبدت كأنها تتأهبّ للذهاب إلى حفل راقص، ثم رسمت ابتسامة صفراء على شفتيها على مضضٍ، تلك الابتسامة التي اعتادت التدرّب على رسمها كل صباح في مرآة الحمام، ولم تزل تواصل التدرّب حتى تؤلمها وجنتاها. ولما فرغت من كل ذلك فتحت الباب، إذ ذاك لم يقع نظرها على راهبة، بل على امرأة طال سجنها فترة طويلة، أو امرأة حبست نفسها بنفسها في سجن من اختيارها، ولم تطأ قدماها خارج السجن إلا اليوم. تملّكهما شعور بأنهما يعرفان كل شيء عن بعضهما من الوهلة الأولى، قالت الأخت أماريليس وهي تمدُّ يدها إلى إيفي:

ـ هيا.. تعالَي.. لقد آن الأوان.

لم تُفكِّر إيفي لحظة واحدة، فغادرت المنزل في التوّ واللحظة، وأغلقت الباب وراءها، هكذا بكل بساطة ودون أدنى مقاومة. وكان هذا أروع ما في هجران الماضي، كان أمرًا سهلًا هينًا إلى درجة لم تخطر لها على بال، لم تنظر إيفي إلى عواقب الأمور، ولم تشغل ذهنها بالتفكير في المشاجرات، ولم تخشَ ما قد يمسّها من أذى جسدي، رأتْ في مغادرة البيت لعبة يسيرة مثل لعب الأطفال، لم يكن عليها إلا أن تتخذ خطوة واحدة خارج عتبة المنزل، وما أنْ خَطَت الخطوة الأولى حتى وجدت خارج رابطة الزواج تمامًا، وليست خارج البيت وحسب.

فعلتها إيفي. وهوَّن عليها الأمر أن الأخت أماريليس أمسكت يدها بطريقة أمومية حنون، ثم سرعان ما انضمَّ إليهما كل من: كارل وشاشا، هرولَت إيفي، ورأسها يلتفتُ إلى الوراء بين الفينة والأخرى بنظرات مليئة بالفزع، لكنها لاحظت أن باب المنزل لم يزل مغلقًا، فاطمأن قلبها، ولمّا انعطفوا إلى أحد الشوارع الجانبية، تنفست إيفي الصعداء، وانتبهت إلى تسارع نبضات قلبها، وفي هذه اللحظة افترَّ ثغرها عن ابتسامة عذبة، ابتسامة حقيقية، ولاحظت للمرة الأولى أنها استخدمت عضلات وجه مختلفة عن عضلات الوجه التي اعتادت أن تستعملها.

بكلمات لينة ونبرة رقيقة أخبرتها الأخت أماريليس أنهما سيقصدان الدير الآن، فهناك ستكون في مأمن من أي أذى أو تهديد، وستجد الراحة والطمأنينة. وليس عليها أن تكون تقية ورعة الإيمان، بحسبها أنَّ الله في عونها.

قَطعوا شارعيْن آخرين، فظهر الدير، لكنهم وجدوا شريطًا أحمرَ وآخر أبيض يطوِّق محيط الدير، بينما وُضعت يافطة كُتب عليها (منطقة عمل)، ووجدوا عاملًا يبدّل قفل البوابة الرئيسة للدير، وما أن رأى العاملُ الراهبةَ حتى حيّاها بإيماءةٍ من رأسه، وقال:

- اعذريني، لكن أؤدي عملي.

سألته الراهبة بصوت هادئ:

ـ ومن أين علمتَ أنني غادرتُ الدير؟

أشار العامل إلى كاميرا مراقبة مثبّتة في إحدى زوايا البناية المقابلة، كانت إدارة الأبرشية قد دفعت له مبلغًا طائلًا ليراقبها، ثم يبلغ الإدارة بمجرد مغادرة الأخت الدير، وفي ساعات الليل استعان العاملُ بطالب جامعي، ودفع له مقابلًا ماديًّا لمراقبة الدير ليلًا، إلا أنّ الطالب الكسول اكتفى بمراقبة الساعة الأولى والساعة الأخيرة، ونام بقية الوقت. سألت الأخت أماريليس:

ـ وماذا عن أغراضي الشخصية؟ ملابسي، والزهور التي رعيتها، يجب أن تُسقى بعناية، وإلا ذبلت.

ـ يمكنكِ التواصل مع إدارة الأبرشية، سأذهب إليهم الآن لتسليم مفتاح البوابة الجديد، على حد علمي ستبدأ مرحلة الهدم والإنشاءات الجديدة في أقرب وقت ممكن، من المفترض أن تُشيِّد وحدات سكنية فاخرة على أرض الدير، أنا في غاية الأسف..، هذه هي الحقيقة..، ولكن اعذريني، ما باليد حيلة.

ـ ولكن، في مقدوركَ السماح لي بالدخول إلى الدير مجددًا.

هزَّ العامل رأسه وقال:

ـ لو دخلتِ إلى الدير، فقد يكون مصيرك البقاء فيه إلى الأبد، والآن يجب على الانصراف..، أتمنى لكِ ليلة سعيـ...

لم يكمل العاملُ العبارة، ثم غادر المكان، وابتلعه زحام

الشارع في لمح البصر. تبادل كارل وشاشا وإيفي والأخت أماريليس نظرات الدهشة والذهول، فقالت الراهبة بنبرة حازمة:

ـ لا بأس، سنقصد أحد الفنادق. ليس الدير مجرد مبنى من حجر، بل الدير هو مجموع البشر المؤمنين بقوّته، سنكوِّن ديرًا في الغرفة رقم 27 مثلًا، أو أي مكان آخر ننتقل إليه.

أرادت الراهبة أن تمضي قدمًا؛ لأنها شعرتْ أن الوقوف لا يختلف عن الحبس في سجن جديد، وكان هذا هو الشعور الذي انتاب إيفي أيضًا. قالت الراهبة:

ـ لعل ما حدث يكون في صالحنا؛ لأنّ أول مكان سيخطر ببال زوجكِ هو البحث عنكِ داخل الدير البينيدكتي، ولن يدور بخلده البحث عنك في أقرب فندق، شاءت العناية الإلهية ألا أستطيع العودة إلى الدار؛ كيلا يعثر علينا زوجكِ.

كان لسان الراهبة يلهج بذِكر العناية الإلهية، فآمنتْ وصدَّقت. لقد مارست مجاهدة روحية شاقة لترويض نفسها على الإيمان، ولم يكن الأمر سهلًا كما يعتقد كثير من النَّاس، فالإيمان يتطلّب مداومةً ومجاهدة كل يوم، فالحياة الدنيوية تُبعد النَّاس عن طريق الإيمان.

في أثناء سيرهما تشابكت أيدي الأخت أماريليس وإيفي، وتشابكت أصابعهما، كما لو كانتا طفلتين في طريقهما إلى المدرسة صباحًا، أحبَّت إيفي هذه السمَاحَة التي كانت على

طرف النقيض مما جرى للتو من زوجها، وبضدّها تتميز الأشياء.

على يسار الطَّريق لاحت فيلا السّيّد دارسي، كان الظلام الدامس يغشى الغرف المطلّة على الشارع كلها، اللهم إلا غرفة واحدة ينبعث ضوء واهن من داخلها. قال كارل:

- انتظروا من فضلكم، ربما تكون هذه هي الفرصة الأخيرة.

رمق شاشا بنظرة يعرف كلاهما مغزاها، فرفعت الصبية إشارة الإبهام دليلًا على بدء تنفيذ الخطة. لم يفصلهم عن بوابة البيت إلا بضع خطوات، ومع ذلك اغتنم كارل المسافة القصيرة لتحضير الكلمات المناسبة التي من شأنها حثُّ السّيّد دارسي على اتخاذ قرارٍ باستضافة المرأتين في بيته، وقد أولى كارل عناية فائقة لاختيار كل كلمة، وصياغة كل جُملة، وحداه أمل بأن يُكلل مسعاه بالنجاح؛ نظرًا إلى أن السّيّد دارسي ما يزال أعزب بلا عائلة، مما سيُسهِّل عليه المهمة.

عندما فُتح الباب خَلَع كارل قبعته على سبيل إبداء آيات الاحترام والتضرّع، وكان جلد رأسه لامعًا؛ بسبب أشعة الشمس المتوهجة والهواء النقي. بدأ حديثه قائلًا:

- السّيّد فون هوهينيش..أعتذر منكم بشدّة، ولكني جلبتُ معي أفراد نادي القراءة وسوف...

قاطعت شاشا كلامه، وقالت:

ـ وسوف تعيشان معكَ من الآن فصاعدًا؛ كي تُظلّهما بجناحكَ بعد أن فقدا المأوى..، لديك غرف كافية، فالصديقتان لطيفتان للغاية.

لم يتردّد السّيّد دارسي لحظةً واحدة، فسارع بفتح الباب على مصراعيه، داعيًا الجميع إلى الدخول بحفاوة، جلسوا في غرفة المعيشة برهةً، وحاول السّيّد دارسي طهو وجبة خفيفة لضيوفه، لكنه فشل في إعداد البيض والبطاطس المقلية، وحمد الله أنَّ جهاز كشف الحريق يعمل.

ضمَّت الفيلا عددًا هائلًا من غرف الضيوف، فإنَّ الضيفتين حارتا في المفاضلة بينهما، ثم استقرَّ الرأي في النهاية على اختيار غرفتين متجاورتين ومطلّتين على الحديقة، وهو ما أوحى للأخت أماريليس بفكرة أنَّ الحديقة مكان مثالي لزراعة البطاطس والفجل.

❋

في ساحة ميدان مونستربلاتس عانق كارل شاشا عناقًا حارًّا طويلًا على سبيل الوداع، واتفقا على ضرورة أن يلتقيا في اليوم التَّالي، لكن شاشا لم تظهر في الموعد، ومع ذلك لم يقلق كارل، فهي لم تزل طفلة على أي حال، والأطفال متقلبو المزاج بطبعهم، وعليه أن يتركها تفعل ما يحلو لها، وأن يبدي تفهمًا لسلوكها، لكنه حزن لعدم رؤيتها؛ لأنه قد جلَبَ معه كتابًا لتهديه شاشا إلى زميلها المتنمّر سيمون، لكن غدًا لناظره قريب.

ومن أجل الخروج من دوامة الجولات اليومية الرتيبة قرّر كارل ألا يبدأ بزيارة السّيّد دارسي اليوم، وإرجاء الزيارة إلى منتصف النهار. قادته قدماه إلى الزقاق المظلم الذي طالما خشيه طوال حياته، واستحسنَ فكرة أن يسلك دروبًا جديدة مختلفة عن الدروب التي أَلِف السير فيها الأيام الماضية. ربما أرادت الحياة أن تبعث له برسالة مفاداها: إنَّ في الدروب الجديدة حياة جديدة، وإنَّ حياته ربما تتغيّر إلى الأفضل لو سلك الطَّريق الذي طالما فَزِع منه.

ملأ كارل رئتيه بالهواء النقي، وقال في نفسه: إن الأمور ستسير على ما يُرام، حتى وإنْ لم يعرف إلى ذلك سبيلًا، لاسيما بعد أن أفرغ الرفَّ الأخير في مكتبته، ولم يعد في حوزته كتابٌ واحدٌ يبيعه. فبالأمس انتهى من تعبئة آخر مجموعة كتب في صندوق النقل راضيًا سعيدًا؛ كأن شيئًا لم يكن. ومع ذلك حداه أمل غامض في أنه سيعثر على مخرج من هذا المأزق.

لم تؤمن إيفي في أول أزمتها بوجود مخرج، ولم تؤمن الأخت أماريليس بوجود مخرج، ناهيك عن هرقل، ومع ذلك، كان يعلم أنه إذا ضاق الأمر اتسع، وانبلجت بارقة أمل، وهكذا لم يفقد الأمل في صلاح الأحوال. بدا الطَّريق أمام عينيه مُظلمًا وضيّقًا. إنه طريق عتيق يفتح ذراعيه لرجل عتيق، ارتسمت هذه الصورة في ذهن كارل، فابتسم، وأيًّا ما كان الأمر، ففي نهاية

النفق المُظلم سيبزغ النور بلا ريب، ربما كان من الأفضل لو اصطحب معه الكلب الذي يستمتع بوقته في الأرجح في بيت د. فاوستوس. شعور غريب أن تطأ قدما إنسان زقاقًا لم تصله من قبل، لاسيما في مدينة يحفظ دروبها عن ظهر قلب، وكأنه يكتشف غرفة سرية في بيت قديم.

أجال كارل النَّظر في الأنحاء كافة كأنه سائح، وخطف بصره كل إفريز نافذة، وكل أنبوب تصريف مياه الأمطار، وبدت الأشياء كلها جذّابة رائعة في عينيه بالرغم من الضوء الواهن، وشعر كأنه يَهَبُ نفسه اليوم لهذا الزقاق، ثم سمع فجأة وقع خطوات آتية من الخلف، التفتَ كارل إلى الوراء، فرأى شخصًا يخرج من الظل، دنا منه الرجل بسرعة. كان مديد القامة وعريض المنكبين، سرعان ما تعرّف كارل إليه، لقد كان عين الرجل الذي انفجر غضبًا في المكتبة أمام سابينه جروبر يوم أن طردته من العمل، رأى نفسه واقفًا أمام الرجل وجهًا لوجه، دفعه الرجل دفعةً قوية في كتفه صائحًا:

- إياك والاقتراب من ابنتي مجددًا..، هل تسمعني؟

لم يفهم كارل مَن المقصودة، وسأل مرتبكًا:

- أتقصد إيفي؟

- لا تتظاهر بالبلاهة! أنتَ تعرف بالضبط من أقصد، شارلوته ابنتي..، وقت ابنتي لأبيها فقط!

عاودَ الرجلُ دفع كارل، فتعثّرت قدما الأخير، وتراجع خطوتين إلى الوراء.

ـ إنها تساعدني وحسب.

ـ ينبغي عليها ألا تساعدك، بل ينبغي أن تكون في بيتها لتنجز تكليفاتها المدرسة بدلًا من التسّكع في شوارع المدينة مع شيخ رث الثياب مثلك، أو تذهب معه إلى مصنع سيجار، استحِ يا رجل..، إنها طفلة، أحذركَ للمرة الأخيرة: اترك ابنتي وشأنها، أظنّ أنك تفهم كلامي جيدًا.

ثمَّ دفع كارل مرة ثالثة دفعة أشدَّ قوة في صدره. لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يجرِّب فيها كارل مذاق العنف، فقد قرأ عن جاك السفاح وهو ينفذ جرائمه الدموية البشعة في إيست إند بلندن، وقرأ عن معارك في دلتا ميكونج في طائرة من طراز Bell UH-1 Iroquois، وقاتَلَ جانب جيش سارومان أورك[1]، وجنبًا إلى جنب في معركة غابة تويتوبورج[2]، وحارب فيها لصالح أرمينيوس ضد قوات بوبليوس كوينكتيليوس فاروس، بل

---

(1) الإشارة إلى شخصية خيالية جاءت في رواية «سيّد الخواتم» للكاتب البريطاني تولكين والمعارك التي خاضها البطل (المترجم).

(2) معركة غابة تويتوبورج أو معركة فاروس (بالألمانية Varusschlacht) وقعت في سنة تسعة ميلادية بين الجيش الروماني بقيادة الجنرال فاروس وتحالف القبائل الجرمانية بقيادة أرمينيوس (المترجم).

إنه رأى القنبلة الذرية، المسمّاة بـ (الرجل البدين Fat Man)[1]، وهي تسقط على مدينة ناجازاكي، وشهد كيف هزم التريسولاريون[2] تقريبًا كل الأسطول البشري المشترك بطائرةٍ واحدة من دون طيار.

كان العنف في نظر كارل ظاهرةً قرأ عنها وحسب، ولم يخبرها خبرة عملية حيّة، لم يتعلَّم كارل أن يرد الصاع صاعين، وكانت الكتب هي إجابته عن كل شيء، بما في ذلك مظاهر العنف والقسوة في الحياة.

ـ بالمناسبة، معي رواية مناسبة لك، وهي رواية ممتازة.

قالها كارل، ثم خلع حقيبة ظهره، وحلَّ الرباط ودسَّ يده لإخراج الكتاب، فكَّر أن يعطي والد شاشا الكتاب الذي اختاره لسيمون، وكانت أحداث الرواية تدور عن فتاة مثيرة للإعجاب، وعنيدة ومفعمة بروح المغامرة. دار برأس كارل أن الرواية ستحثّ والدها على أن يفطن لشخصية ابنته المتميّزة، وأنه خليق به ألا يحبسها بين أربعة جدران، كان الكتاب ملفوفًا بورق تغليف مزيّن برسوم ديناصورات.

---

(1) الاسم الرمزي للقنبلة الذرية التي ألقيت على مدينة ناجازاكي اليابانية سنة 1945 (المترجم).

(2) الإشارة إلى معركة جاء ذكرها في رواية الغابة المظلمة، هي رواية خيال علمي حققت نجاحًا كبيرًا من تأليف الكاتب الصيني ليو تسي شين (المترجم).

ـ لِمَ تطارد ابنتي في المدرسة؟ هل تظنّ أنني لا أعلم شيئًا».

ثم دفع كارل دفعة رابعة أقوى وأقسى، كاد توزان الأخير يختلُّ لها. سارع كارل بوضع الكتاب في جيب معطف الأب المشتعل غضبًا.

ـ ماذا فعلتَ لتوّكَ؟ هل وكزتني؟ هل وكَزتني أيها الوغد الهَرِم؟

كان الأب الثائر يتنفس بصعوبة، وعيناه مشتعلتان غضبًا كجمرتين حمراويْن. وخُيِّل لكارل أن الدموع ستفيض من عينَي الأب، لم يفهم كارل أنه واقف أمام أب يائس بائس، يرتعد خوفًا من فقدان ابنته، أو ربما يشعر أنه فقدها بالفعل، لم يكن الأب يصرخ غضبًا في وجه كارل وحسب، وإنما يصرخ في وجه العالَم اللعين بأسره الذي سَمَحَ بحدوث هذا. ذكَّرته هيئة الأب بشخصية كارل مور في مسرحية شيللر[1]، وهو رجل نبيل، من أصول عريقة تضطرّه الظروف إلى أن يكون مجرمًا وقاطع طريق، في هذه اللحظة امتلأ كارل ذعرًا من الأب.

ـ لو رأيتكَ مع ابنتي مرة ثانية، سأقتلكَ..، هل فهمتني؟

---

(1) الإشارة إلى مسرحية «اللصوص»، للكاتب الألماني الكلاسيكي فريدريش شيللر، وقد ترجمها للعربية د. عبد الرحمن بدوي (المترجم).

ـ افهمني..، ولكن...

أراد كارل أن يشرح للأب الأفعال الجليلة التي أنجزتها ابنته، وأن ذكاءها يفوق ذكاء مكتبة جامعية كاملة، وأنها بارعة في رسم دودة الكتب، ورسم القطط التي تقلِّد عواء الكلاب، وأنها استطاعت الارتجال ببراعة في مصنع السيجار، وأنها ركضت إلى قلب الفيلا، ولم يفلح أحد في الإمساك بها، إلا أن الأب لم يمنحه الفرصة لكل ذلك، إذ سدَّد لكمة قوية إلى صدر كارل.

كانت هذه هي الضربة القاضية؛ لأنها كانت مختلفة عن الضربات السابقة، حيث مادت به الأرض، فلم تعد السماء فوق رأسه، ولا الأرض تحت قدميه، وشَعر كأن حجارة الرصيف تركل ظهره مثل كرة فولاذٍ ثقيلة، ثم اصطدمت رأسه بالأرض. أظلم كل شيء من حوله، حتى الضوء الواهن المنبعث من الزقاق انطفأ.

الفصل السابع
رحلة في آخر الليل

في بعض جولاته - لاسيما في فصل الصيف - وحينما يلتهب الطقس إلى درجة تجعل الحصى يلمع من شدّة الحرارة، كان كارل يشعر بالعطش بمجرد التنفّس، فيلتقط بعض حصيات من الأرض ويمتصّها، وكان اختياره يقع على الحصى الدقيق المستدير الذي يستقرّ برشاقة فوق لسانه، وفي الوقت ذاته كان ينتقيه كبيرًا بما يكفي؛ كيلا يبتلعه بطريق الخطأ، حصى من النوع المثالي الذي يجمعه المرء في راحة يده، ويرمي به فوق سطح بحيرة، ثمان مرات على الأقل. كان كارل يجدها في الساحات الأمامية المليئة بالحصى، واعتاد أن يغسلها جيدًا في نافورة مياه الشرب العذبة الوحيدة في المدينة قبل أن يضعها في فمه، وما أشد اندهاشه من اختلاف مذاق الحصى في كل مرة!! لكنه ظنّ أن مذاق عبوات المياه المعدنية مختلف أيضًا، مع أن النبع واحد.

أحسَّ كارل بمرار مذاق الحصاة في فمه وهو مسجى على

الأرض، حرَّك لسانه ليدفع الحصاة جانبًا، لكن دُهش لمّا قفزت الحصاة قفزة في الفراغ. اختفت الحصاة، ولا أثر لها. هل ابتلعها؟ ربما ابتلعها في أثناء تعثّره، لكنه لمَّا يمشِ بعد، ولم يزل راقدًا فوق الأرض، أم أن الأمر غير ذلك؟ تناهى إلى سمعه صوت آلة تنبيه صادر عن سيارة؟ أثمة شاحنة تريد الرجوع إلى الخلف وعليه النهوض لإفساح الطَّريق لها؟ فتح كارل عينيه، فوقع بصره على جدارين مطليين باللون الأصفر اللامع، بينما طُلي الجداران الآخران باللون الأبيض القابل للتنظيف بسهولة. جوار رأسه مباشرة استقرّ جهاز طبي يُصدر صوتًا منتظمًا هادئًا.

لم يرَ مريضًا آخر على السرير المجاور، إذ كان سطح السرير مغطى بغطاء من البلاستيك الشفاف الذي يشبه الغطاء المُغلِّف للشطائر الجاهزة في الحفلات، ولكن بكل أسف لم يكن ثمة حفل في الغرفة.

حاول كارل النهوض بالاتكاء على ذراعه، لكنه انتبه إلى أنّ ذراعه اليمنى مُغطاة بجبيرة، وساقه اليسرى بجبيرة مماثلة، وشَعر بنبضات تسري في أعصاب رأسه، وكأن ذهنه يسعى جاهدًا إلى استيعاب الموقف وفهم ما الذي يدور حوله. لمح بابين في الغرفة: الأول يؤدي إلى الردهة في الخارج، والثاني يفضي إلى دورة المياه. هذا علاوة على تلفاز مُعلّق في إحدى زوايا الغرفة. لبث كارل يتفكّر فيما حوله برهة من الوقت، مدَّ يده إلى

الخزانة الجرارة جوار سريره، واستطاع فتح الدرج، فوجد جهاز التحكّم عن بُعد، ونسخة من الكتاب المقدس (ترجمة مارتن لوتر).

تذكّر أنه كان يحاول أن يعطي أحدهم كتابًا...، ثم سرعان ما استيقظت ذاكرته مجددًا. من المؤكد أن والد شاشا سيأتي قريبًا ويعتذر عما بدر منه، وأن شاشا ستأتي كذلك وتُهديه كتابًا، على أمل ألا تكون نسخة أخرى من الكتاب المقدس بترجمة لوتر. فُتح باب الغرفة، ودخلت ممرضة ترتدي زيًّا أخضر، ولما رأت أنّ كارل استيقظ، ابتسمت ابتسامة خفيفة، وقالت:

ـ خبر جيّد أن أراك مستيقظًا يا سيد كولهوف..أنا الممرضة تانيا.

ـ من أين عرفتِ اسمي؟

ـ الاسم مُدوّن في بطاقة هويّتكَ، وهي في المحفظة.

ثم أشارت إلى سترة كارل الخضراء المُعلقّة فوق المشجب.

ـ علاوة على ذلك، فأنا أعرفكَ من المكتبة، وبفضلك تعرّفت إلى روايات هاري بوتر.

ثم استرسلت الممرضة في حديثها، وحكَت أنها تعرّفت إلى صديقها الأول في المكتبة، ثم اتّضح أنه شاب عابث

وأحمق، غادر حياتها، بينما بقيت روايات هاري بوتر معها حتى اليوم. سألها كارل:

ـ ما الذي حدث؟

ـ تعرّضتَ لحادث سقوط مؤسف، أسفَرَ عن كسر بسيط في الذراع، وكسر مضاعف في عظمة الساق، هذا فضلًا عن حدوث ارتجاج في المخ، ولكنك معذور ولا لوم عليك، فحوادث التعثّر طبيعية لرجل في سنّكَ.

ـ لكني لم أتعثـ..

ما أن بدأ كارل الكلام حتى أمسك لسانه بغتة؛ لأنه لو رَوَى الحقيقة، فسيتحمّل والد شاشا المسؤولية القانونية، وربما يفقد وظيفته؛ بسبب فعلته.

ـ وكيف نُقِلتُ إلى هنا؟

ابتسمت الممرضة، وبدأت تحكي:

ـ هذه قصة غريبة، وليست غرابتها في أن سيارة الطوارئ هي التي نقلتكَ إلى المستشفى، ولكن في كيفية العثور عليك.

ـ كيف؟ لا أفهم.

ـ ارفع رأسكَ يا سيد كارل فوق الوسادة.

قالتها الممرضة بعد رفعت الوسادة قليلًا، وتابعت:

ـ سَمِعَت امرأة تقطن في سكان زقاق فيلهلم تل جاسّه كلبًا

ينبح نباحًا متواصلًا، فخرجت إلى الشارع لترى الأمر، فرأتكَ مستلقيًا على الأرض، لكنها لم ترَ كلبًا جواركَ.

ـ نعم.. رأتْ قطًّا..

قالها كارل وكاد يجهش بالبكاء. ويبدو أنه بعد أن تعلَّم البكاء، صار عاجزًا عن إيقاف دموعه.

سألته الممرضة:

ـ وكيف عرفتَ ذلك؟

ـ طاف بذهني صديق حميم، صديق يُحبّني لشخصي، وليس لأنني أطعِمُه.

هزَّتَ الممرضة رأسها، وخمّنت أن سبب هذيانه إصابته بارتجاج في المخ. عبر نافذة الغرفة أرسل كارل تحية صامتة إلى القط المصاب بانفصام في الشخصية، مع أنّ هذا الانفصام أنقذَه من الموت المحقق. ثقل جفناه، وسرعان ما غطَّ في نوم عميق.

لم يطرأ أي تغيّر على الحجرة بعد استيقاظه، اللهم إلا طلوع شمس يوم جديد، وأحسَّ كارل أن ساقيه تستحثانه على مغادرة الفراش والانطلاق، صحيح أنهما لن تنطلقا انطلاق خيل السباق، لكنهما أرادا أن يأخذا طريقهما عبر شوارع البلدة كما اعتادا على مرّ السنين.

دارت عيناه في أركان الغرفة مفتشًا عن حذائه القديم البالي الذي كان بمنزلة أداة استشعار تحذِّره من أي نُقْرَة أو حُفرة في الطَّريق، وكان يعرف بفضله اسم الشوارع التي يمشي فيها، حتى وإنْ مشي مُغمض العينين. لمح كارل زوجي الحذاء في الناحية الأخرى من الغرفة، لمحهما مربوطين داخل حقيبة بلاستيكية، وكان الأمر محتاجًا منه بعض الجهد كيما يستطيع انتعال الحذاء.

اشتعلت رأسه بالأفكار، قال في نفسه: لو سأله سائل عمّا جرى له وأين وقع له الحادث، فسيجيبه على الفور: إنها مسألة بسيطة، وإن الأمر لا يعدو كونه مجرد حادث سَيْر بسيط. عندما فُتح الباب أخذه الذهول، إذ رأى ممرضة أخرى، وعليها الزيّ الأخضر نفسه.

ـ مرحبًا سيد كولهوف، اسمي: الممرضة «رافينا».

حاول النهوض مجددًا، وقال:

ـ لو استطعتِ مساعدتي في ارتداء الحذاء، فستتخلصين من رؤية وجهي إلى الأبد..، ما رأيكِ؟

ضحكت الممرضة، وقالت:

ـ أخبَرَتني تانيا عن خفّة ظلِك، وروحك المحبّة للدعابة، لكن أظن أن عليك البقاء معنا بعض الوقت.

حاول كارل تحريك ساقيه والهبوط من السرير، فأحسَّ بوخزة ألم قوية كأنَّما صعقه تيار كهربي، فأطلقَ آهةً قوية.

ـ لا تتحرك من فضلك، الزم الهدوء في فراشك حتى تتعافى، وأبقِ رأسكَ مرفوعة فوق الوسادة.

ـ ولكن عليكم إبلاغ المكتبة بالحادث، حتى يتسنّى لكل من سأل عني الحصول على معلومة.

ـ تولّت زميلتي تانيا مهمة إبلاغ المكتبة بالأمس، حيث أخبَرَتهم أنَّك طريح الفراش في المستشفى، لكن لم يمسَّك سوء بالغ؛ كيلا يصاب أحد الذعر.

فكَّر كارل في احتمال أن يكون القلق قد ساور زبائنه، فذهبوا للاستفسار عن سبب غيابه، وأنهم سيأتون لزيارته قريبًا.

ـ هل في المستشفى كتب؟ أي نوع من الكتب؟

أشارت الممرضة إلى الدرج، وهمَّتْ بأن تخبره بوجود نسخة من الكتاب المقدس، فقاطعها كارل على الفور قائلًا:

ـ لا أريد شيئًا ثقيل الوزن، بل أريد كتابًا خفيفًا أستطيع حملَه بيدي اليسرى.

ـ للأسف ليس في المستشفى مكتبة عامة للمرضى، ولكن لو شئتَ جلبتُ لك مجلة من مكتب الاستقبال.

ـ ألا توجد رواية جزيرة الكنـز لستيفنسون، أو روايات كارل ماي؟

رأى كارل أنَّ ما استمتع بقراءاته صديقه الراحل جوستاف في فراشه، سيستمتع به أيضًا.

ـ أظن أنَّ لدينا بضعة أعداد من سلسلة (جون سينكلر: طارد الأشباح)[1]، فكبير الأطباء لدينا هو الوحيد المغرم بقراءتها، فضلًا عن بضع نسخ من كتب الأطفال الهزلية.

قال كارل:

ـ أودّ الحصول على نسخة منها.

ثم تذكر أنه لم يبق لديه مال.

ـ معذرة، لا أودّ الحصول عليها الآن.

طاف برأسه أنَّ شاشا ستأتي حتمًا عما قريب حاملةً إليه كتابًا، أو ألبومَ صور الكلاب، وحتى لو جلبتْ له صورة «(دودة الكتب) مرة أخرى، فسيجد مكانًا لائقًا ليعلّقها، لكن لم يأتِ أحدٌ لزيارته، لا شاشا ولا زبائن المكتبة، لم يطرق باب غرفته أحد، لا في هذا اليوم، ولا فيما تلاه من أيام، لم يطرق باب غرفته سوى الممرضات والممرضين والأطباء.

انتابه شعور كأنه في مقعد المتفرجين يشاهد مسرحية تلعب بطولتها مجموعة من الممثلين المُدربين، وكل واحد يلعب دوره

---

(1) سلسلة روايات رعب وتشويق ألمانية واسعة الانتشار، صدرت للمرة الأولى سنة 1973 (المترجم).

المكتوب ببراعة. موعد رفع الستار ثابت لا يتغيّر، أما الحوار المسرحي، فيتغيّر قليلًا. كانوا يدخلون إلى الحجرة لمعاونته على تناول الطعام والشراب وتغيير الملابس وقضاء الحاجة، وكانوا يؤدون عملهم بوتيرة آلية، وإن لم تخلُ من بعض الخشونة أحيانًا. لم يأتِ أحدٌ لرؤيته، وإنما لإنجاز مهمة بعينها، لم يكن أحد بحاجة إلى رؤية كارل. عندما يهبط المساء يتناهى إلى سمعه نباح قادم من أقصى المدينة، فكان يُحدِّث نفسه أن صديقه الكلب يفتقده، ألم يتساءل أحد زبائنه: لِمَ توقّف عن قرع جرس باب المنزل؟ أكان غيابه وحضورُه سواء في نظرهم؟ مع أنهم أكثر من رآهم وتكلّم معهم في السنوات الأخيرة.

لم يأتِ أحد لزيارته حتى غادر المستشفى، ومع علمه بأنه يتعلّق بأهداب المستحيل تمنَّى كارل من أعماق قلبه لو أنه وجد الجميع في انتظاره أمام بوابة المستشفى، لكن ذلك لم يمنعه من رَسْمِ تفاصيل المشهد في ذهنه وتلوينه بالأقلام التي تستعملها شاشا، فانغمَسَ في رسم مشهد الصورة الجماعية رسمًا دقيقًا تُطلّ فيه الابتسامة والبهجة من وجوه الجميع، إلا أنه لمّا رأى نفسه واقفًا بمفرده مستندًا إلى عُكازين أمام المستشفى ألفَى نفسه غريبًا في عالم غريب، لم يكن هذا هو العالَم الذي عهده طوال حياته. كان مُفلسًا لا يستطيع دفع رسوم سيارة الأجرة، لم يتعرّف إلى شيء، وأبَت كرامته أن يطلب مِن أحد موظفي المستشفى أن يُقرِضَه ثمن سيارة الأجرة. سأل أحد

المارة عن مكان الكاتدرائية وشقَّ طريقه نحوها.

مشى كارل مسافة تزيد على ثلاثة كيلومترات سيرًا على الأقدام مستعينًا بعكازيه، وبين حين وآخر كان يأخذ قسطًا من الراحة، فكانت تنتابه آلام مبرحة في ساقيه، وأسفل إبطيه، ووصل إلى بيته بعد أن تعثّر ثلاث مرات، وأصيب على إثرها ببعض الخدوش البسيطة، وما أن أغلق باب الشقّة وراءه، حتى ارتمى بجسده على الأرض، وغرق في النوم.

* *

امتدَّ حبل الغسيل بمحاذاة حوائط الشقة مثل حبل الأمان الذي يقبض عليه مُتسلق الجبال. كان كارل قد ثبَّت الحبل فوق الرفوف وخزائن الكتب، وعَقَدَه بإحكامٍ فوق مقابض النوافذ وأجهزة التدفئة. بعدها حوَّل انتباهه إلى رفوف خزائن الكتب التي لم يُطق تحمُّل فراغها، فاستعَمَل قلم ألوان لِرِسمٍ كعوب الكتب مكان الكتب التي خلا مكانها. كان يعرف بالضبط موضع كل كتاب من كتبه الأثيرة، فإذا غاب عن ذاكرته اسم الكتاب، دوَّن أسماء أمهات الكتب التي كان تنبغي عليه قراءتها منذ أمد طويل، لم تظهر أعمال الماركيز دو ساد وجياكومو كازانوفا سوى في غرفة نومه، ولم يفعل هذا إلا لكي يضع أساتذة الأدب الإيروتيكي وجهًا لوجه، أما واقع حياته البائسة، ولم تُزِده إعادة تذكّر كل هذه الكتب الرائعة إلا وعيًا مريرًا بما فرطّ فيه من كنوز. كان صدى الصوت في شقته الخالية من الكتب

مُقبِضًا بائسًا، وبدا صدى صوته كأنما يتحدّث من داخل مقبرة، فتوقف كارل عن الحديث بصوت مرتفع.

لم تطأ قدماه باب الشقة، احتفظ بقليل من الطعام: كـ: الخيار، وفواكه اليوسفي، والكمثرى المقطّعة إلى شرائح في شراب سكرّي مُخفف، ومخلل الملفوف. لم يكن يأكل إلا ما يقيم أودَه، ونادرًا ما قرصَه الجوع. وفي كل يوم يأكل أقلَّ من اليوم السابق.

اهتدى كارل إلى ضرورة التعجيل بالتلاشي والاختفاء، وأن يواصل تقليل الطعام حتى يقول جسده في نهاية المطاف: إنّه لم يعد جديرًا بالاستيقاظ صباح اليوم التَّالي. لم يكن يخشى الموت، بل لم يراوده شعور الخوف من الموت قط. سبحت ذكرياته في بحر الماضي البعيد، فتذكَّر أنه وُلِد خارج هذه المدينة، وتحديدًا في قرية اشتُهِرَت بتزويد المقابر بزهور البنفسج، ومن ثم كان الموت رفيق دربه الصدوق منذ سنوات الشباب الأولى، حتى لو كانت ألوان الموت ممزوجةً بألوان زاهية.

مضى عليه يومان على هذا النحو، وفي اليوم الثالث أسدل ستائر معتمة على نوافذ الشقة؛ لأنه لم يعد قادرًا على رؤية منظر المدينة التي ظنَّها في الماضي مدينته الأثيرة. أما اليوم، فصارت غريبة عنه، مدينة يسكن الخطر كل ركنٍ من أركانها، لم تعد المدينة التي اعتاد السير في دروبها طوال

عقود طويلة آمنًا مطمئنًا، ولم تعد المدينة التي بلى فيها نعل حذائه، إذ يقطع طُرقها المعبّدة بالحصباء، أتراها هي تلك المدينة التي لم يرَ من أهلها إلا حُسن المعاملة ودماثة الخلق؟ لقد تغيرت أحوالها الآن، وصارت هي المدينة التي يلقى من أهلها الضرب والطَّرح أرضًا والنسيان والهجران، بل إنَّ السرور كان ينتابه في الأوقات التي يشعر فيها بألم الرأس والذراعين والساقيْن؛ لأنَّ في الألَم إلهاءً عن اجترار وجع القلب والحسرة.

بعدها توقّف كارل عن عدِّ الأيام والليالي، وصار يثقب حزام سرواله ثقوبًا جديدة بعد نقصان وزنه، حتى اضطر في يومٍ من الأيام إلى استعمال مِثقاب من حديد، لم يعد يُفرِّق بين الليل والنهار، فكان يرتمي على السرير، شاخصًا ببصره إلى سقف الغرفة، أو ربما يغفو قليلًا قبل أن يغرق ذهنه في التفكير من جديد. قال لنفسه: إنَّ بائع الكتب الجوّال من دون كتب غير جدير بهذا اللقب، بل لا وجود له من الأساس، ومن هنا لا عجب أن لم يسأل أحد عنه حتى الآن؛ لأنه لم يعد له وجود حقيقي.

كثيرًا ما رأى نفسه يموت حاملًا كتابًا شائقًا في يده، بحيث تمرّ عملية الانتقال من الحياة إلى الموت مرورًا سهلًا يسيرًا لا يلاحظه أحد. كان الناجي الوحيد من مذبحة بيع الكتب هو دليل الهاتف العتيق الذي يحتفظ به. صحيح أنه لم

يقرأ صفحة منه، لكنه كان يجد راحة في الشعور بانزلاق أطراف أنامله فوق الأوراق، وتقليب الصفحات بهدوء.

❋ ❋ ❋

بعد مشاجرته الدامية مع كارل في زقاق فيلهلم تيل جاسّه، ألقى والدُ شاشا جميع كتب ابنته البالغة من العمر تسع سنوات من النافذة إلى الفناء الخرساني للمبنى السكني. اشتدَّ صراخ شاشا، وكادت تقبّل قدمَي أبيها لمنعه من رميها، لكنها رأت الكتب تطير من النافذة واحدًا وراء الآخر. فُتحَت صفحات الكتاب إذ تسقط من النافذة، وجعلت ترفرف في الهواء مثل الحمام الأبيض قبل أن تهوي بقوّة وترقد على سطح الأرض جثّة هامدة، فيتناثر بعض الريش في أرجاء المكان.

في هذا اليوم بكت شاشا، واشتدَّ بكاؤها حتى ابيضت عيناها من الحزن، ولمّا غادر الأب غرفتها بعد إلقاء الكتب من النافذة، واصلت بكاءها. راقبته حتى رأته جالسًا يشاهد موجز الأخبار في التلفاز، في تلك اللحظة غادرت شاشا الشقة، وتسللت من السُّلم الخلفي لتلملمَ بقايا كنوزها المبعثرة على أرض فناء البناية السكنية، وحاولت إصلاح ما يمكن إصلاحه من أمر الأوراق الممزقة. ولما عادت إلى غرفتها خبأت الكتب في صناديق أسفل السرير، وصنعت سورًا من الدُّمى المحشّوة بالقطن لحمايتها.

منذ ذلك اليوم فصاعدًا فرض عليها الأب أن تلزم غرفتها ولا تغادرها أبدًا، فجعلت تنظر مساء كل ليلة إلى ساحة ميدان مونستربلاتس والنافذة مفتوحة على مصراعيها؛ حتى تتمكن على الأقل من التلويح لساعي بريد الكتب، إلا أن كارل لم يظهر، ولم يكن ذلك من طبعه قط.

حلُمَتْ شاشا حُلمًا عجيبًا، كان بودِّها أن تنساه؛ لأنه كان يملأ قلبها خوفًا على كارل. هاتفَت المكتبة، فأخبروها أنه استقال من عمله ولم تعد تربطه صِلة بالمكتبة، وقالت لها المرأة التي أجابت الهاتف: إن ثمة أشياء أهم بكثيرٍ من كارل، وحين سألتْ شاشا عن عنوان بيته، أنكرت المكتبة معرفة العنوان بدعوى أنها ليس مكتب استعلامات.

صحيح أن شاشا أحسَّت بمقدار ضيق سابينه جروبر من المكالمة الهاتفية، لكنها لم تعلم أن سبب ضيقها الحقيقي هو العدد الهائل من الأشخاص الذي أتوا للاستفسار عن كارل، ويبدو أن العدد كان في ازدياد، حتى مَن لم يشتروا في حياتهم كتابًا واحدًا؛ لأنهم وجدوا في الرجل ذي الملابس الخضراء والقبعة المصنوعة من اللباد الذي يبدأ جولاته في السابعة كل يوم جزءًا لا يتجزأ من تقاليد المدينة، بقدر ما كانت الكاتدرائية جزءًا لا يتجزأ من تاريخها.

لم تستسلم شاشا، وقررت العثور على كارل، فأكبَّت على قراءة الروايات المتخصصة ذات الصلة، ولاسيما الروايات

البوليسية .وبعد قراءة مُعمقة لسلسلة (المحققين الثلاثة)[1] وسلسلة (المشاهير الخمسة)[2]، اهتدت إلى نتيجة واحدة، التسلل إلى المكان الذي تحوم حوله الشبهات، فقد تعلّمت الصَّغيرة من قراءة الكتاب أنّ المداخل الخلفية غير الخاضعة للحراسة هي المكان المثالي للتسلل. علَّقَتْ شاشا هويّة المحقق السري على صدرها، وارتدت ساعة رجال الشرطة، ووضعت المنظار المُكبِّر، وحشرت في جنب السروال المسدس الآلي سريع الطلقات، ووضعت قلم الحبر السري في حقيبتها المدرسية، وقالت في نفسها: إن الأوان قد آن أخيرًا لتستعمل تلك الأدوات التي اشترتها منذ زمن.

وبعد انتهاء اليوم الدراسي في عصر اليوم التَّالي ركضت شاشا إلى مكتبة بوابة المدينة التي لم يكن لها مدخل خلفي لسوء الحظ، ناهيك عن عدم وجود موظفين يُمكن رشوتهم أو تهديدهم بمسدسها الشُرَطي. واقع الأمر أن شاشا لم تكن في حوزتها رشوة مغرية لتقديمها للعاملين أو أحد الموظفين المدُخنين لاستنطاقهم والحصول على معلومات منهم، ومع ذلك

---

(1) المحققون الثلاثة سلسلة كتب بوليسية أمريكية نُشرت لأول مرة سنة 1964 تحت عنوان: «ألفريد هيتشكوك والمحققون الثلاثة» (المترجم).

(2) سلسلة قصص مغامرات للأطفال كتبتها المؤلفة الإنكليزية إنيد بليتون، نُشرت أول مرة في سنة 1942، وتدور أحداث الرواية حول مغامرات مجموعة من الأطفال الصغار (المترجم).

لم ترَ شاشا أنَّ تقديم قرطاس آيس كريم كبير من متجر «بينو للمثلجات» رشوة فقيرة.

تسللت شاشا إلى المكتبة عبر المدخل الأمامي بعد أن أسدلت قبعتها المُزوّدة بنظارة الطيّار فوق عينها، ورفعت ياقة معطفها الشتوي الأصفر لإخفاء هويّتها، ثم بحثت عن الركن الأكثر هدوءًا في المكتبة، وسحبَتْ كتابًا من أحد الرفوف إنعامًا في التخفي.

ـ ماذا تفعلين في قسم الروايات الإباحية؟

ضحك المتدرب الشاب ليون وهو يسألها:

صُعقَت شاشا وصاحت:

ـ ماذا؟

إذ ذاك سقط من يدها كتاب (استهلاك الشغف الحسّي)، ومسحت معطفها بيدها بطريقة عفوية، وجفِلَت مبتعدةً بضع خطوات عن رفّ الكتب، فهي صبية ذات حياء، تحمرُّ خجلًا من مشاهد القُبلات على شاشة التلفاز.

ـ هل تبحثين عن شيء محدد؟

ربما كان من الأولى أن يسألها المتدرّب ليون هذا السؤال، لكنه لم تكن لديه أدنى فكرة عن مكان العثور على أي كتاب في المكتبة. لم يكن ليون يعرف شيئًا عن أي شيء.

- هل تعرف كارل؟ ساعي بـريد الكتب؟

- لم يعد يعمل هنا، لقد طـرَدَته صاحبة المكتبة.

- ماذا؟ ولِمَ طُرِد؟

- قبل أيام جاء رجل وأخـذ يصرخ بصوتٍ مرتفع، شاكيًا من أن كارل يصطحبُ طفلته الصَّغيرة في جولات لتسليم الكتب، وهو ما لم يكن يعرفه الأب، وقال: إنه يخشى عليها وأشياء من هذا القبيل، ومع ذلك لا أظنُّ أن أحدًا سيكون أحنَّ على الأطفال من كارل..، لكنه بخير على كل حال.

طفلة صغيرة! بالطبع لم تكن لدى الفتى ليون فكرة عن المسألة. قالت شاشا:

- أودُّ أن أجلب له مفتاحًا نسيه في مكانٍ ما، لكنني لا أعرف عنوانه.

- أستطيع أن أعطيكِ عنوان بيته، فهو مُدوِّن عندنا..، تعالَي معي.

قادها ليون إلى المكتب الخلفي الكبير الخالي من النوافذ، حيث دُوِّنَتْ أسماء الموظفين، وعناوينهم، وأرقام هواتفهم على قطعة من الورق فوق الحائط. كتبت شاشا جميع التفاصيل على بطن كفّها بوساطة قلم ألوان. فرحت الفتاة؛ لأن أول مهمة تحريات في حياتها تُكلل بالنجاح.

على حين غرة ظهرت سابينه جروبر ووقفت خلفها، وقد رسمت ابتسامة خفيفة على شفتيها وهي تقول:

- ليون! ما تفعل هنا مع هذه الطفلة؟ أليست تصغركِ بكثير لتتخذها صاحبة لكَ؟

ردَّت عليها شاشا باستياء:

- أنا في التاسعة من عُمري، وسأتمُّ العاشرة عما قريب، عادةً ما تكبر الفتيات الأولاد بعامين على الأقل، وبعضهنَّ يكبرن الأولاد بثلاثة أعوام.

أوحت نبرة صوت شاشا الغاضبة أنّها من الفئة الأخيرة الذي يتجاوز عقلها سنّها الحقيقي. ولم يرغب ليون بالطبع في أن يفقد الوظيفة المؤقتة التي وعدته بها سابينه جروبر بعد مرور فترة التدريب، فقال بنبرة مُستكينة:

- أعرفها من المدرسة، وقد تصادف مرورها بالمكتبة.

- وماذا تفعل زميلتكَ هنا؟ هذه الغرفة ليست مخصصة للزبائن، وأنت تعرف ذلك جيدًا، ماذا سيقول النَّاس عنا عندما يرَون هذه الفوضى؟

شرح ليون قائلًا:

- إنها ترغب في أداء تدريبها العملي في المكتبة، ولذلك أريها المكتبة، وأشرح لها طبيعة العمل، كما أنها لا ترى ضيرًا في هذه الفوضى العارمة التي تعمّ المكان.

بادرت شاشا بالقول:

ـ مُطْلَقًا، فغرفتي أكثر فوضوية. حسنًا، في بعض الأحيان، أقصد نادرًا..، أقصد من حين إلى آخر.

ـ ليس في كلامكِ إشارة حسَنة تُطمئنني على المرشحين للتدريب عندي، والآن اخرجا من هنا.

التفتت سابينه جروبر إلى شاشا، وقالت لها:

ـ أنتِ ما زلتِ صغيرة للحصول على تدريب..، هل تجيدين القراءة؟

ـ كلا.

قالتها شاشا بنبرة تحدٍّ؛ لأنها لم تكن تريد الحديث مع هذه المرأة عن الكتب والقراءة، فالحديث عنهما لا يجدر إلا مع من تحبّهم ويحبونك، أمّا هذه المرأة، فقد طردت كارل من المكتبة شر طردة.

ـ بكل أسف لا يُمكننا تدريبكِ هنا، ولكن ما هذا المكتوب على كفّ يدكِ؟ كولهوف؟ أريني إياه!

يا للحظ العاثر! لماذا لَم تستعمل شاشا قلم الحبر السري؟ آه تذكَّرَتْ أنّ الكلام المكتوب بالحبر السري لا يظهر إلا بعد التعرّض لحرارة شديدة، وخشيت شاشا أن تحرق الحرارةُ المرتفعة يدها. حاولت سابينه جروبر الإمساك بمعصم شاشا، إلا أن الأخيرة لاذت بالفرار.، فبالنسبة إلى صبية أحبُّ شيء

إلى قلبها القفز على الصناديق المرنة، والركض حول كارل باستمرار، كان الدوران حول الطاولات والمناضد في محل بيع الكتب لعبة أطفال تافهة، أما بالنسبة إلى سابينه جروبر، فكان الأمر غاية في الصعوبة.

أسلمت شاشا ساقيها للرياح، ولم تتوقّف طوال الطَّريق، بل ركضت مسافة قصيرة حتى وصلت إلى العنوان، وجعلت تتلفتْ يمنة ويسرة، لكن لم يكن أحد يتبعها، ولم تهدر وقتًا في تأمل المبنى السكني الذي يقطن فيه كارل، وقرعت الجرس على الفور. إلى جانب الجرس كُتب (إي تي إيه كولهوف)، وما دامت لا توجد علامتان تُدلّان على وجود شخصيْن يحملان اسم كولهوف، فمن المؤكد أن الشقة تخص كارل.

لم يصدر أي صوت عن جهاز الاتصال الداخلي، ولم تسمع شاشا صوت جرس الباب، فأخذت تقرع جميع الأجراس بسرعة واحدًا تلو الآخر، ولمّا جاءها صوت أحدهم عبر الميكروفون عن الطارق، أجابت ببساطة: مكتب البريد، وقد أخذت هذه الفكرة مما كان يحدث في العمارة التي تعيش فيها.

دوّى صوت الجرس، ودفعتْ شاشا الباب، ثم صعدت درجات السُّلم ركضًا، وهي تفتش عن الاسم على لافتة كل شقة، وعندما وجدت اسمه قرعت الجرس ثلاث مرات متتالية، إلا أن كارل لم يفتح الباب. لم تكن عنده رغبة في استلام أي

بريد، وكل ما كان يصله عبارة عن إنذارات من جهات حكومية وكتُيبات دعائية سخيفة. في الوقت التي طرقَت فيه شاشا باب الشقة كان كارل في دورة المياه وقد فتح المذياع ورفع الصوت، فلم يسمعها إذ تنادي عليه، بل حتى لم يسمعها عندما انخرطت في البكاء بصوتٍ مرتفع.

ولمّا عادت إلى منزلها رأت سترة أبيها مُعلقة فوق مشجب المعاطف، ولم تكن عادته الوجود في المنزل في مثل هذا التوقيت من اليوم. تناهى إليها صوت التلفاز من غرفة المعيشة، فنادتْ على استحياء:

ـ بابا؟

تمنَّت شاشا من كل قلبها ألا تسمع ردًّا. حبست أنفاسها، وراحت تردد أغنية شعبية طفولية لتهدئة نفسها:

واحدِ ... اثنانِ ... ثلاثة

تلكَ عجوزٌ ...

تطبخ ماذا؟

أربعُ .. .. خمسٌ .....ستهْ

تلكُ عجوزٌ ...

تطبخُ لِفَتَا

سبعُ .. ثماني .. تَسْعة

تلك عجوزٌ .....تَسْعى

راحت تُشعل فَحْمَا

كيما تطبخُ لحمَا

هل غادرتَ .... مَشَيْتْ؟

أم عَاوَدْتَ البيْتْ؟[1]

ومع ذلك لم تسمع ردًّا. وأخيرًا جاءها صوت أبيها:

ـ مرحبًا حبيبتي الصَّغيرة..، تعالَي إلى هنا.

دبَّت شاشا بغضب على الأرض، ثم دلفت إليَّ وأعصابها مشدودة.

كانت جميع الكتب مرصوصة فوق الطاولة، بعد أن وجدها والدها تحت السرير، ونقلها إلى غرفة المعيشة. انهار خط الدفاع المكوّن من الدمى أمام نبش والدها.

ـ اجلسي يا شارلوته، يجب أن نتكلم.

ـ لم أفعل شيئًا، كان عليَّ جمع الكتب من الفناء، وإلا اشتكى الجيران، وخصوصًا السّيّدة كاتشينسكي في الطابق الثاني،

---

(1) أغنية شعبية طفولية تُفهم في سياقها الثقافي، لها نظيرها في الثقافة العربية، كما يُقال في العامية المصرية: «واحد اثنين سرجي مرجي..أنت حكيم ولا تمرجي.... إلخ»، أو يُقال في المملكة العربية السعودية: «هذي خنيصر، وهذي بنيصر، وهذي عيداء الطويلة، وهذي عوجاء طويلة... إلخ (المترجم).

لم أذهب في جولة جديدة مع ساعي بريد الكتب. إنها كلمة شرف.

ـ اجلسي من فضلك.

ـ الرحمة!!

ارتمت شاشا فوق الأريكة، ورفعت ركبتيها أمام صدرها لوقاية نفسها من أي حركة مباغتة من أبيها، ومضت تقول:

ـ حسنًا، أخبرني بالعقوبة الجديدة أولًا!

عقد والدُها حاجبيه قائلًا:

ـ عقوبة جديدة؟ لم تدر بذهني هذه الفكرة حتى الآن، ولكن لماذا تُعاقبين؟

ـ فلتفكِّر في الأمر الآن، أريد أن أعرف عقوبتي على الفور، فالانتظار مسألة سخيفة.

ـ وهل أنا ممن يؤخر العقوبة إذا كانت مُستحقةً؟ هل جعلتكِ تنتظرين العقوبة يومًا إذا كنتِ مستحقةً لها؟

قالها الأب بنبرة أقرب إلى الهدوء:

ـ لا أدري، نعم هذا من سلوككَ أحيانًا، فأنتَ رجل بالغ، وهذا من طبع الكِبار..، والآن يا أبي أبلغني بالعقوبة.

رصَّ الأبُ الكتبَ فوق بعضها البعض رصًّا دقيقًا، وقال:

ـ لا أعرف إذا ما كان صنيعي هذا عقوبةً حقيقية أو غير ذلك!

ـ وكيف لا تعرف؟ ليس من شك في أنها عقوبة حقيقية، فالعقوبة دائمًا سخيفة.

أزاح الأب كومة الكتب ناحية شاشا. وقبل أن يتكلّم تأمّل وجهها مليًّا:

ـ العقوبة أن أرخي لكِ العنان لتفعلي ما يحلو لكِ..، أن أتركَكِ جامحة دونما قيود.

اعتدلت شاشا في جلستها، وأمالت رأسها في دهشة، وسألته:

ـ بابا: لا أفهم ...، عمَّ تتحدث؟

ـ كما أنني أرغب في قضاء مزيدٍ من الوقت معكِ؛ لأنني لا أعرفكِ عن قرب مثلما يعرفكِ بائع الكتب الشيخ!

جلس الأب جوارها وأضاف:

ـ لقد ضربتُـــ.....

أخذ الأب نفسًا عميقًا وقال:

ـ استبدَّ بي الغضب منكِ ومنه، بل من نفسي أيضًا. لن تفهمي كلامي الآن، ربما أشرح لك المسألة عندما تكبرين قليلًا».

بالطبع فهمت شاشا كل كلمة من كلامه، وإن كانت معتادة على أن البالغين يظنون أنها لا تفهم شيئًا.

ـ لقد ذهبتُ إلى صديقكِ كارل، وتحدّثتُ إليه، وقرَّعته تقريعًا شديدًا، و...

أطرق الأب برأسه وقال:

ـ واقع الأمر أنني صرخت في: وجهه بعنف، ووخزته، ودفعته بقوة حتى تعثّر وسقط على الأرض...

هبَّت شاشا ووقفت فوق الأريكة، وصاحت:

ـ وهل ساعدَته لينهض؟

ـ لا...، بل تركتُه مطروحًا على الأرض.

ـ أنتَ شرير.. أنتَ رجل شرير.. لا أريدكَ أن تكون أبي بعد اليوم.

ركضَت شاشا إلى غرفتها، وأغلقت الباب وراءها على الفور. أما الأب، فلم يُرغم ابنته على فتح الباب، بل قعد قُبالة غرفتها، وجعل يُكلِّمها من وراء الباب، حيث آثر الحديث إليها بهذه الطَّريقة؛ لأنه لم يُرِد أن يرى نظرات الازدراء والكراهية على وجهها. كانت شاشا محور حياته كلها، ولم يمر عليه يوم إلا وشعر أنه لم يكن الأب المثالي لابنته، فلم يعطف عليها كما ينبغي له، ولم يشملها بعين العناية والاهتمام اللائقين بها، ولم يتمتّع بالفطنة اللازمة للتعامل معها. أشدّ ما آلمه حقًّا هو

أنه لم يخصص وقتًا كافيًا ليقضيه في صحبتها، وحتى عندما كان ينفق معها بعض الوقت لم يُحسن استثمار هذه الفرصة، وكأن الأمر مجرد تحصيل حاصل. أورثَه هذا المسلك شعورًا بأن الخيوط التي تربطه بابنته تتمزق يومًا وراء الآخر، وأنَّ دائرة المحبة والألفة بينهما تضيق يومًا وراء يوم، حتى تعذّر عليه التعرّف إليها أو معرفة أي تفاصيل عن حياتها. ربما كان هذا طبيعيًّا بعد أن جاوزت طور الطفولة، لكنه أراد أن يشعر بقلبها مجددًا وبما يعتمل فيه، ولهذا السبب أقبل الأب على القراءة.

ـ طالما طلَبتِ مني أن أقرأ الكتب، ولا ريب أن القراءة مسألة ممتعة، لكني كنت أعود من عملي في المساء محطّم القوى، وأشعر أنَّ قراءة كتاب ستأخذ مني وقتًا طويلًا، فلم أشرع في قراءة أي كتاب، وبينما كنت أتشاجر مع صديقكِ كارل دسَّ كتابًا في جيب معطفي، وأخبرني: إنها رواية رائعة ومثالية بالنسبة لي، كان الكتاب مُغلفًا بورق هدايا الأطفال، وعلى الغلاف رسوم ديناصورات وسحليات وطائرة، وما عسى أن يكون نوع هذا الكتاب ليلائم ذوقي وينفعني؟ لم أسارع برمي الكتاب بعيدًا لسبب بسيط، وهو أنني أردت اللوذ بالفرار؛ كيلا يعتقد أحدٌ من المارة أنني دفعتُ ذلك الشيخ الهَرِم وطرحتُه أرضًا.

صرخت شاشا من وراء الباب المغلق:

ـ لكنكَ طرحتَه أرضًا بالفعل.

ـ نعم، هذا ما حدث، ولم أرغب أن يرى أحدٌ ما حدث، وبعد رجوعي إلى المنزل نزعتُ الغلاف، ووضعتُ الكتاب في أحد الأدراج؛ لأنني أردتُ التخلّص من ذكراه، أردت أن يختفي الكتاب عن ناظَري إلى الأبد، ولا أضطرّ إلى رؤيته مرة ثانية.

ـ ولماذا لم تقرأ الكتاب؟ كارل خبير بالكُتب التي تساعد النَّاس.

ـ رأيته مجرد كتاب أطفال، ولم أقرأ كتاب أطفال حتى في سنوات طفولتي.

ثم وضع يده على الباب، وقال:

ـ ولكن بعد أن رأيتكِ تجمعين الكتب التي ألقيتها من النافذة، تأكّدت أنني كنت على صواب، لا تسيئي فهمَ موقفي، لكنك كذبتِ عليَّ يا شاشا على مدار أسابيع، قلت: إنك تحصّلين دروسك وتنجزين التكليفات المدرسية، بينما تتسكعين مع بائع الكتب الجوال، حتى بعد أن حظرت عليكِ رؤيته مجددًا، أيًّا ما كان الأمر، فليس هذا موضع نقاش الآن، لكني استشعرت مدى أهمية كتبكِ في نظرك، وخجلتُ من نفسي بشدة؛ لأني قذفتُ بها من النافذة.

ـ شعور طبيعي أن تخجل من نفسك.

أفلتت منه ابتسامة خفيفة.

ـ أردتُ أن أتزلّف إليك قليلًا، وأن أعتذر لك بطريقةٍ ما

أو بأخرى، فأقبلتُ على قراءة رواية كارل. تصفحت بعض ورقات منها، وكنت منهكَ القوى بعد عودتي من العمل في المساء، أردتُ الحديث إليكِ، لكنك كنت قد نظّفتِ أسنانكِ وآويتِ إلى فراشكِ، لكنني بعد ذلك كنت قد انغمستُ في أحداثها، عنوان الرواية (رونجا..ابنه اللص)، وتدور أحداثها عنكِ بشكل أو آخر، فضلًا عن كونها تدور كذلك عن أبٍ أحمق، لكنه ليس أنا بطبيعة الحال.

- ربما.

ولمّا أنهى والدُ شاشا قراءة الرواية فَطِن إلى غرض كارل من وراء إهدائها، فالرواية عن صبية تريد أن تسلك طريقها المستقلّ في الحياة، لكنها ما تزال في حاجة إلى أبيها اللصّ، كما دارت أحداثها كذلك عن صبي اسمه بيرك مُغرم بالصبية بطلة الرواية. ومن المؤكد أن الولد سيمون كان سيفطِن إلى مغزى الرواية لو طالعها، ولم يكن ليلقي بالًا إلى والد الصبية رونجا، واسمه ماتيس. قال والد شاشا:

- في مقدروك الآن الرجوع إلى صديقكِ بائع الكتب الجوال، بشرط واحد أن نتفق على نشاطٍ مشترك نمارسه أنا وأنتِ معًا، أيًّا ما كان، الأمر سيّان عندي، والكرة في ملعبكِ، فاختاري ما تشاءين.. ما رأيكِ؟

لزمت شاشا الصمت. دارت الأفكار في رأسها، أهذه هي اللحظة المناسبة لاطلاع والدها على ما فعلته اليوم؟ لكن باب

شقة كارل بقي مغلقًا، ولم تتمكن من لقائه، ومع ذلك في مقدورها اغتنام الفرصة لصالحها لتطلب زيادة مصروف الجيب، إلا أن كارل أهمُّ من المصروف، أهم بكثير جدًّا.

ـ أبي: لقد أخبرتني الآن بسلوك سيئ ارتكَبتَه في حق كارل، فتسامحتُ معك، وتفهّمتُ موقفكَ، ولم أضمر ضغينة..، أليس كذلك؟

ـ لِمَ تقولين هذا؟

ـ أجب عن سؤالي أولًا.

ـ بلى أخبرتك بذلك ...، ولكن ...

ـ حسنًا..، لا تنسَ ذلك.

بعدها نهضت شاشا، ووقفت وراء الباب مباشرةً، وتأهبّت لإلقاء قنبلة على مسامع أبيها.

ـ سأصارحكَ بالحقيقة، لم أرَ كارل في ساحة ميدان مونستربلاتس منذ أيام عدة، وفي الليلة الماضية راودني حُلم مزعج أفزَعَني، حَلُمت أن كارل يقرأ كُتبًا حروفها ممحوّة، حيث بدت أوراق الكتب بيضاء فارغة، وثمة كتاب محدد لم يرد قراءته؛ بسبب معرفته المسبقة بأن كلماته ستختفي إلى الأبد لو قرأ الكتاب، إلا أن شخصًا ما راح يرغمه على قراءة ذلك الكتاب، وإن كنتُ لا أستطيع تذكُّر مَن هو بالضبط، مع أنني بالأمس كنت أعرفه، سيّان، لا فرق، على أي حال سرعان ما

اختفت كلمات ذلك الكتاب، واختفى كارل معها أيضًا؛ لأن محور الكتاب هو كارل نفسه، ولما أفقتُ شعرتُ بضرورة الخروج للبحث عنه.

ـ هل هذا هو سبب عودتك من المدرسة متأخرةً اليوم؟

ـ لقد فقد كارل وظيفته بعد أن طردَته صاحبة المكتبة في أعقاب زيارتكَ ومشاجرتكَ معها، الذنب واقع عليك.

سادت فترة صمت طويلة.

ـ يؤسفني سماع ذلك يا شاشا.

وكان شعور الأب صادقًا لمّا قال ذلك. صحيح أن تمنى طرد الرجل من المكتبة، لكن تحقيق الرغبات يجرُّ اللعنة على رأس صاحبها أحيانًا.

ـ وعليك إصلاح ما أفسَدتَه يا أبي.

ـ وهل تعتقدين أن مديرة المكتبة ستعيد توظيفَه إذا ذهبتُ إليها وشرحتُ كل شيء؟

ـ يساورني قلق بالغ على حياة كارل، لقد حصلتُ على عنوان بيته من المكتبة وذهبت إليه، لكنه لم يفتح الباب.

ـ ربما لم يكن في المنزل وقتها؟ أو ربما يكون قد ذهب إلى التسوق؟

هزَّت شاشا رأسها:

ـ لا أظن، قلبي يحدثني أن مكروهًا وقع له، أنا قلقة للغاية..، هل ستساعدني؟

ـ بشرط واحد....

ـ أي شرط يكون؟ من فضلك لا تضع أمامي شروطًا مستحيلة!!

ـ بشرط الخروج غرفتك في الحال؛ لأننا سنذهب إليه الآن.

❋

طَرَقَ والدُ شاشا الباب طَرقًا شديدًا متواصلًا إلى درجةٍ لم يستطع كارل ولا جيرانه الفضوليون تحمّلها. كان جيرانه يُطلّون برؤوسهم من أبواب الشقق كل ساعة تقريبًا مثل ساعة الوقواق. خرج بعض الجيران، وارتفعت صيحات التذمّر والشكوى، وتعالَى السباب بسبب هذا الضجيج الذي طَرَق سَمْعَ كارل، وكان يتزايد دقيقة وراء الأخرى، ومع كل سُبَّة تنهال على رأسه كان شعوره بالضعف وقِلّة الحيلة يزداد. في هذه اللحظة لم يؤمل في شيءٍ أكثر من أن ينعم بالسكينة والهدوء، لكن القَدَر أبى عليه ذلك، فلم يجد أمامه سوى النهوض وفتح الباب واستقبال الطارق.

ـ حسنًا..، اصبر دقيقة..، أنا قادم!

قالها كارل ليمتنع الطارق عن مواصلة القرع العنيف على

الباب. كان كارل يرتدي ملابس أنيقة، وشعرُه مصفّف بعناية، صحيح أنه لم يحلق ذقنه ولا شعر رأسه، لكنه بدا مع ذلك مهندمًا وحسن المظهر، فلو كان الطارق مندوبًا يحمل إنذارات بسداد الفواتير المتأخرة، فقد ارتدى على الأقل ملابس أنيقة، ورسم على شفتيه ابتسامة مصطنعة، تلك الابتسامة التي كانت إيفي ترسمها على شفتيها، ولم تعد في حاجة إليها الآن.

قبض على أحد حبال الغسيل المنشورة وسط الشقة بيدٍ واحدة لحِفظ توازنه، وفتح الباب باليد الثانية، لم تتمالك شاشا أعصابها في تلك اللحظة، وهُرعت إلى الداخل، ولامست خدَّه ملامسة حانية رقيقة، وقالت:

ـ ما الأمر؟ هل أنت مريض؟

رأى كارل والدَ شاشا، فتراجع إلى الوراء خائفًا:

ـ ماذا تريد مني؟ دعني وشأني.

قالت شاشا:

ـ ما الذي أصاب ساقكَ؟ وهل كُسِرت ذراعك؟ لِمَ تبدو معوجّة هكذا؟

أرادت شاشا أن تلمس ذراع كارل، لكنه سحب ذراعه موضحًا أن لم يعد قادرًا على فردها بالكامل. قال كارل:

ـ اغربا عن وجهي! لا أريد رؤية مخلوق بعد الآن.

أخذت الحيرةُ والدَ شاشا، فمرَّر طرف لسانه على شفتيه وتملّكته الحيرة؛ لأنه لم يكن يجيد التصرّف في مثل هذه المواقف، وهو مما عدّه النَّاس عيبًا كبيرًا في شخصيته رافقه طَوال حياته.

ـ أعتذر..، أعتذر منك بشدة على دفعكِ في صدركِ، أودّ أن أعرب لك عن خالص الأسف والاعتذار على سلوكي..، هل أنا من تسبّبتُ في إصابتكَ بالـ....

صَفَق كارل الباب بقوّة في وجهيهما. لم يعد ثمة إنسان اسمه كارل، ومَن لا وجود له، لا لسان له يُخاطب به الآخرين. لبث أيامًا يتحرّق شوقًا إلى أي روح بشرية تنظر إلى كارل كولهوف بعين الرعاية والاهتمام، لكن انتظاره ذهب سُدى. والآن لم يعد كارل كولهوف يعير اهتمامًا لأي أحد.

لم يغمض لِشاشا جفن في تلك الليلة حتى اختمرت الخُطة في ذهنها، وتهيأت لدور مُحقق المباحث، لاسيما أنّ حال كارل كان ينذر بالخطر. بعد أن أغلق كارل الباب في وجه شاشا وأبيها، انطلق الأخيران يسعيان إلى زيارة زبائن كارل فردًا فردًا، إذ كان من الضروري أن يستأنف ساعي بريد الكتب عمله مجددًا، وهو ما يعني ضرورة تضافر جهود سُكان المدينة جميعهم. رسمت شاشا ملامح الخُطة على شكل قصة، وصاغت أحداثها على هيئة الخطوات التي ينبغي أن تُنفذ الخطة وفقها. سوَّدت جميع الصفحات الفارغة في ألبومها، ومحت بعض

الفقرات ونقَّحتْ الأخرى، ووضعت علامة نجمة على الخطوات التي عدَّلت فيها، واستغرق الأمر منها بضع ساعات تقريبًا. بدأت القصة بالبداية الآتية: «فتح كارل البابَ».

فتح كارل البابَ. عندما يتحدّث المرء عبر جهاز الاتصال الداخلي [إنتركوم] يبدو صوته كأنما يتحدث وسط عاصفة ثلجية في القطب الشمالي. هذا ما قالته شاشا في نفسها وهي تخفض صوتَها ليكتسي نبرة وقورة، ثم سَعَلت مرات عدة لإضفاء نوعٍ من المصداقية.

ـ معي طَرد كتب للسيد كولهوف من مكتبة بوابة المدينة.

ولمّا وصلت شاشا إلى باب الشقة كان صوتها خشنًا بعض الشيء من أثر السُّعال، هيّأت نفسها لكي يُفتح الباب، ثم تَنسلُّ هي بسرعة البرق من فُرجة الباب الصَّغيرة إلى الشقة. نجحت خطتها، فأطلقت على الفور ضحكة مُشرقة، ولم يكن كارل قد سمع الضحك منذ أمد بعيد، لاسيما سماع ضحكة بريئة كضحكة شاشا. قالت وعيناها تفتشان بفضول في إحدى الغرف:

ـ مرحبًا يا غريق الكتب... ما هذا؟ ألم يعد في حوزتك أي كتب؟

مرقت شاشا إلى الغرفة المجاورة للردهة حيث يقفان، فرأتها خاوية على عروشها إلا من هيكل سرير يعلوه الصدأ، ولا فراش فوقه.

ـ أين اختفت الكتب؟

دنا كارل منها، وإحدى يديه قابضة دائمًا على حبل الغسيل المشدود لحفظ اتزانه، مشيرًا إلى رأسه وقلبه:

ـ إنها هنا وهناك.

ـ ولكنك تفهم ما أعنيه.

ـ بِعت كلها، ولا أريد التحدث بشأن هذا الموضوع.

وفي اللحظة التي اقترب منها كارل، تفرّست شاشا ملامحه بوضوح، كان وجهه قد ازداد هزالًا، وانحنت قامته، وخبت جذوة الحماسة في عينيه، كان وجهه أشبه ما يكون بإحدى زهور ساعة السّيّد دارسي الشمسية، تلك الزهرة التي يظلُّ كأسها مغلقًا مُنكسًا إلى الأسفل حتى تسقط عليه أشعة الشمس الساطعة، فتدبُّ في كأس الزهرة الروحُ. كانت هذه مهمة شاشا، أن تكون قِبلة الحياة وشمس روحه اليوم.

ـ هل أنت جاهز؟

ـ لأي شيء؟

ـ لاستئناف عملكَ بالطبع.

ـ آهٍ .. شاشا، لم أعد أعمل في المكتبة، هذه صفحة طُويت من حياتي إلى الأبد، وفِّري على نفسك عناء المشقة.

ـ ليست في الأمر مشقة، سنهبط الآن درجات السُّلم معًا،

يمكنك الاعتماد عليَّ، لقد كبرت الأسبوع الماضي بما فيه الكفاية.

ـ هذا هراء، لا معنى لكل هذا..، اتركيني هنا.

ـ سأكمل معروفي الآن.

قالتها شاشا بعد أن ابتسمت، وقد نظرَ كارل إليها مليًّا وسألها:

مكتبة
t.me/soramnqraa

ـ هل خطّطتْ لكل هذا؟

ـ لم أدع لكَ فرصة للهروب.

ولمّا وصلا إلى الطابق السفلي اضطرّ كارل إلى الوقوف لحظات لالتقاط أنفاسه قبل أن يغادر بوابة العمارة.

همست شاشا إلى نفسها بصوت منخفض لم يبلغ سمع كارل:

ـ الجزء الثاني من الخطة، ها قد وصلنا إلى الجزء الثاني.

همس شاشا بهدوء شديد إلى درجة أنه لم يتمكن من سماعه، بينما وقف والدها أمام البوابة ممسكًا بعربة جرارة لحمل مجموعة من الكتب تضمُّ بعض الأطالس سميكة الحجم، كما زوّدها والدها بإطارات وملفات لـيٍّ زنبركية مرنة للحركة بسهولة وسط الحجارة القديمة لشوارع المدينة.

قالت شاشا:

ـ وقد اخترتُ اللون كذلك، حتى يستطيع الجميع رؤيتكَ في الأوقات كلها.

كان لون العربة أصفر فاقعًا، بل بلغ من شدّته أنْ بدا قادرًا على التوهّج في جنح الظلام.

قال الأب:

ـ جرِّبها، يمكنني تعديل حجم العربة بما يلائمكَ.

بعد بضع خطوات تأكّد كارل أن العربة مناسبة، فدفعها كارل أمامه مسافة أمتار قليلة على سبيل التجربة، وقال:

ـ ربما يكون هذا حلًّا عمليًّا بالفعل، لكني طُردت من عملي في المكتبة.

أجابت شاشا:

ـ نعلم كل ما جرى..، امشوا ورائي..، الجزء الثالث من الخطة..، أسرِعوا.

من فرط حماستها لم تُطق شاشا صبرًا حتى تمضي الحكاية إلى نهايتها المرسومة، من جهة ثانية أحسَّ كارل أن ساقيه محمولتان على بساط الريح، فواصل السير بشكل أسرع من أي وقت مضى.

قبل الوصول إلى ساحة ميدان مونستربلاتس انعطفت شاشا إلى شارع فراوين شتراسه، وتوقفت أمام مكتبة الكتب النادرة

والمستعملة لصاحبها السّيّد هانس، حيث كان الدكتور فاوستوس في انتظارها.

ـ أهلًا سيد كولهوف، ما أجمل أن أراك هنا!! ولكن هل يمكنك أن تخبرني ما الذي يجري هنا بالضبط؟ لا أحد يخبرني بشيء.

قالها الدكتور فاوستوس بعد أن نظر إلى شاشا التي أطرقَتْ برأسها، ثم استرسل في كلامه:

ـ حسنًا، باءت جهودي بالفشل كما توقَّعَتْ رفيقتكَ الصَّغيرة، ومع أنني استنفذت كل مخزوني من البلاغة والمحاورة والجدل، رفضت السّيّدة جروبر رفضًا قاطعًا إعادتكَ إلى العمل في المكتبة، فبحسب كلامها «لا يُمكن إعادة عقارب الساعة إلى الوراء"..، وقد هداني كلامها حول إعادة عقارب الساعة إلى الوراء والزمن الماضي إلى الحل المثالي، قبل أن أتعرف إليك وعلى ترشيحات الكتب التي تقدِّمها إليَّ، واظبت على شراء الكتب من هذه المكتبة العتيقة، لكن ترشيحات صاحبها لم تُصِب يومًا، ولم ترقَ إلى مستوى توقعاتي، بل كان يرشِّح لي أعمالًا متواضعة، ودون المستوى، بعبارة أخرى: ستكون هنا الرجل المناسب في المكان المناسب، وسيُطلعكَ المالك على كل التفاصيل.

لم يكن باب المكتبة مزودًا بجرس من الأعلى يرنُّ حين يفتح، وإنما كان يصدر صريرًا حادًّا. في اللحظة التي دخلوا فيها

كان السّيّد هانس فيتون واقفًا على السُّلم ينفض الغبار عن مذياع عتيق استقرَّ فوق أحد رفوف المكتبة. كان هانس قد وضع مذياعه ذات مرة في واجهة العرض على سبيل الزينة، ولجذب أنظار الزبائن، فظنّوا أنه يجمع التُّحف القديمة إلى جانب جَمع الكتب القديمة، فجلبوا إليه مقتنياتهم القديمة، ولم يطاوعه قلبه على الرفض. وما أن رأي صاحبُ المكتبة كارل حتى هبط من السُّلم، ومدَّ يده جهة الأخير قائلًا:

ـ آه يا كارل..، ها أنت ذا..، ما هذه الحكاية العجيبة التي سمعتها؟ طالما أردت الحديث إليك وجهًا لوجه بشأن مسألة بيع كتبك، لكنكَ اكتفيتَ بإرسال هذا الصبي إليَّ مع صناديق الكتب، ظننتُ أول الأمر أنكَ ستأتي بنفسك، وها أنت الآن أمامي بلحمك ودمك، وهذا أمر رائع، لقد شرح لي السّيّد الأستاذ الدكتور المسألة برمتها، ونبّهني بطريقته الدمثة إلى أخطائي في الأعمال التاريخية التي أوصيتُ بها.

عندها قال كارل:

ـ هانس، بكل صدق لا أفهم سبب وجودي هنا!!

ـ سبب وجودك هو حاجة مكتبتنا إليك بالطبع يا كارل..، وماذا عساه أن يكون سوى ذلك؟ أنت تعلم أني محتاج إلى شخصٍ يتمتع بقدراتك، وخصوصًا بعد وفاة زوجتي، فأنت ذو باع طويل في عالم الكتب وترشيح الأعمال المميزة للقُراء، أما أنا، فبراعتي مقصورة على الفرز وإزالة الغبار، ناهيك عن

براعتي في تدوين البيانات في الدفاتر، وإدارة الشؤون المالية، ولكن بعد وفاة ماريا ساءت أحوال المكتبة، وتناقص عدد الزبائن يومًا وراء الآخر.

ـ هذا من كرم أخلاقك، لكني لو عملتُ هنا، فلن أكون ساعي بريد الكتب كما كنت في السابق.

ـ يمكنك ممارسة هذه المهنة مساءً.

ـ ومن سيطلب توصيل الكتب النادرة والمستعملة إلى المنزل؟ من المؤكد أنه قارئ ينبش وراءها في كل مكان.

إذ ذاك سُمع صوت عَطس قوي، ليخرج السّيّد دارسي من أحد الممرات، ويقول معتذرًا:

ـ اللعنة على حساسية الأنف! لا أعرف كيف وجدَتْ حبوب اللقاح طريقها إلى أنفي وسط أكوام الكتب المرصوصة هنا، لكن يبدو أنها نجحت وأصابت هدفها، وبالرغم من توصية إيفي بعقار مضاد لحساسية الأنف، لكنه يبدو أنه لم يُجدِ نفعًا.

بعدها ذهب إلى شاشا التي كانت واقفة جوار الدكتور فاوستوس ووالدها، وقال:

ـ اقترَحَتْ عليَّ الآنسة الشابة فكرة سديدة، من بين أفكار عديدة رائعة، سأتولّى تمويلكَ يا كارل.

ذُهِل عقل كارل، ونظر إلى من حوله مستفسرًا:

ـ تمويل؟ تمويل ماذا؟

حدثت شاشا نفسها قائلة: «لقد آن أوان اللحظة الحاسمة»، ثم فكّرت في أن خُطتها لن تُكلل بالنجاح إلا إذا نطق كارل بكلمة «نعم» على الفور، ثلاثة أحرف، ويُحسم الأمر لصالحه، فشرَحَت له على وجه السرعة:

ـ ستكون مهمتك بدءًا من هذه اللحظة فصاعدًا توزيع الكتب على من لا يستطيعون تحمّل ثمنها، ما عليك إلا إبلاغ السّيّد المحترم، وسينهض هو بمهمة سداد ثمن الكتب.

أشارت شاش بإصبعها إلى كريستيان فون هوهينيش، ولمَّا تكن قد صارحته بعد بالاسم الذي أطلقه عليه كارل، ثم أضافت:

ـ وستتولى الراهبة تحرير بيان صحفي إلى الجرائد لدعم فكرة المشروع، قالت لي: إن خبرتها طويلة في هذا الشأن؛ بسبب تواصلها المتكرر مع الصحف في السنوات الأخيرة، أما السّيّدة لانجشترومف، فستنهض بمهمة التدقيق اللغوي والإملائي. كل شيء مُرتب حسب خطة مُحكمة، وما عليك إلا الموافقة.

في هذه اللحظة تملَّك كارل شعور بالعَجَز وقِلة الحيلة، وشعر أنه صار قِبلة أنظار الجميع وموضع آمالهم للنهوض بهذه المهمة الجديدة، فقال:

ـ لقد بذلتم جميعًا كثيرًا من الجهد والتفكير لإنجاح المسألة، وخصوصًا أنتِ يا شاشا ولكن.

تدخّل هانس فيتون في مسار الحديث، وكان يقف جوار كومة صغيرة من الكتب:

ـ هذه أول دفعة من الكتب التي ينبغي تسليمها اليوم، وهي مخصصة لزبائني القدامى من عشّاق الكتب الذين أعرفهم، وأعرف مدى ولعهم بالكتب النادرة، لكن ظروفهم المادية تحول بينهم وبين شرائها.

قالت شاشا بنبرة صارمة:

ـ والسّيّد فيتون لا يقدر على تحمّل التكلفة المادية لذلك، ولا يتوافر لديه الوقت الكافي لتوصيلها للزبائن.

ثم رمقت الواقفين بنظرة ذات مغزى بعد أن أعطت كل واحد منهم قصاصة ورق تحتوي أسبابًا وحُججًا منطقية لإقناع كارل بقبول المهمة. بدأ الدكتور فاوستوس، وقال:

ـ علاوة على ذلك، فمعرفة السّيّد فيتون بدروب المدينة وأزقّتها لا تزيد عن معرفته بكتبه!

وقال والد شاشا:

ـ وعربة الكتب المتنقّلة لا تلائمه كذلك، إذ لم يعد ممكنًا تعديل ارتفاعها.

ثم أضاف الدكتور فاوستوس:

ـ ناهيك عن كون السّيّد فيتون راغبًا عن التجوال في أرجاء مدينتنا في جُنح الظلام.

قال السّيّد دراسي:

ـ أعتقد أننا قلنا ما يكفي من الأسباب، والآن عليك التحرّك وتسليم الكتب، وإلا ذبلت أوراقها.

تصفَّح كارل وجوه الواقفين المترقّبة. ولئن كانت الحياة مجرد مسرح كبير على حد تعبير شكسبير، فلا جرم أن يطالب الجمهورُ كارل الآن باعتلاء خشبة المسرح من جديد ليؤدي دورَه، ولا ضير لو كان ممثلًا مُسِنًّا مادام يتمتع بدماثة الخلق وحُسن الأداء.

دفع كارل عربته بتؤدةٍ ناحية كومة الكتب، ولم يكن قد تعوَّد على الأمر تمامًا. ناولَه أحدهم ورق التغليف والمِقص والشريط اللاصق لتغليف الكتب تغليفًا أنيقًا، ثم شقَّ كارل طريقه بعدها بعد أن أبلغه هانس فيتون بأسماء الزبائن وعناوين بيوتهم. خرج الجميع وراءه، وفي الطَّريق انضمَّ إليهم كلٌّ من: إيفي، وهرقل، والقارئ، والسّيّدة لانجشترومف، وسرعان ما ظهر الكلب، وراح يطوِّق الجميع كأنه كلب حقولٍ راعٍ، ناداه القَدَر نداءً خفيًّا ليؤدي مهمته. وفي أثناء السير سأل كارل الدكتور فاوستوس الذي كان ماشيًا جواره:

ـ هل انتقل القط للعيش في بيتكَ بصفة دائمة؟

ـ واقع الأمر أن القط لا يطيق البقاء أكثر من بضعة أيام، ومن ثم يغادر فجأة ويعود فجأة، ربما بسبب اشتياقه إلى الغذاء اللذيذ.

قال كارل:

ـ إنما هو يتظاهر بذلك ليس إلا؛ لأنها مسألة مبدأ بالنسبة للقطط البرية، وإلا، فماذا يقول لقطط الشوارع؟ أيخبرهم أنه يعيش عاطلًا دون البحث عن لقمة عيشه بنفسه؟

لم يجد كارل متعة أروع من متعة المشي مجددًا، متعة أن يشعر بالمدينة ويشمّ رائحتها، ويحسّ بالأرض تحت قدميه. ومع ذلك، فقد افتقد حَمْل الكتب في حقيبة الظهر كما اعتاد طوال حياته، تلك الحقيبة التي كان وزنها يخفّ مع كل زيارة، ولكنه وجد محلّها متعة أخرى في رؤية الكتب أمامه مرصوصة في العربة المتنقّلة التي طوّق أركانها ببطانية لحماية حوافّ الكتب من الأذى. لاذ كارل بالصمت برهة من الوقت، ثم مال نحو شاشا، وقال:

ـ لقد أحسنتِ تنظيم كل شيء بدقة ومهارة، وما دام الأمر ليس متعلقًا بكؤوس الليمون كما حكيتِ ذات مرة، فأنتِ بارعة في التنظيم.

ضحكت شاشا وقالت:

- أنتَ عجيب! لقد أعطيتَ أبي رواية (رونجا: ابنة اللص)، إنها حيلة ذكية.

- قد كان واقع الأمر على كل حال أنني خطّطت لإعطاء الكتاب للصبي سيمون، ولكن علينا أن نجلب لسيمون نسخة أخرى.

صرخت شاشا:

- صار سيمون شخصًا آخر...، أول أمس أجهشتُ بالبكاء؛ لأني حصلت على درجة (ج) في التربية البدنية، فاقترب مني ودفعَني، لكن هذه المرة دفعة لطيفة ودودة للغاية.

- هل صَدَق كلامي الآن؟"

- في مقدوركَ أن تعطيه الكتاب..، بمفردكَ تمامًا..، دون أن يراني.

- لا بأس، سأمشي بمفردي، وتمشين أنتِ بمفردكِ عن يميني.

تعلَّم كارل ألا يجادل الصبية الصَّغيرة على الملأ، فعندما تقرر الفتيات الصَّغيرات الحصول على شيء، فسيبذلن قُصارى جهدهنَّ للحصول على ما يُرِدن، وكان كارل أوهن من أن يدخل معها في جدال أو لجج. قال كارل:

- فكَّرتُ في اسم بطلة روائية يناسبكِ.

ـ حقًّا؟ أخيرًا!

ـ لم يكن الأمر سهلًا كما تظنين.

ـ أعرف بكل تأكيد أن الأمر لم يكن سهلًا، فأنا غريبة الأطوار مثلكَ، لكني في التاسعة من عُمري، وأنا متأكدة أنني سأكون أكثر غرابة منك عندما أكبر.

ودَّ كارل أن يداعب رأسها بلطف، لكنه فكَّر أنه سيفقد توازنه لو فعل.

ـ فكّرت أول الأمر أن أطلِق عليكِ اسم (باستيان)، بطل رواية قصة بلا نهاية[1].

صرخت شاشا معترضة بشدة:

ـ لكني فتاة!

ـ هذا علاوة على أن الصبي باستيان كان يتمتع بخيال خلاق وبقوّة في التفكير، لكنه لا يعرف، ومن ثم، فاسمه غير مناسب لكِ؛ لأنكَ تعرفين نقاط القوة في شخصيتكِ.

اشرأب عنقها في زهو، وقالت:

ـ نقاط قوة كثيرة جدًّا.

---

(1) سبق الإشارة إلى مؤلّف الرواية، وهي رواية قصة بلا نهاية للكاتب الألماني ميشائيل إندِه، وتدور أحداثها حول الصبي (باستيان) الذي يجد كتابًا سحريًا في أحد متاجر بيع الكتب النادرة (المترجم).

ـ ثم فكَّرت أنني عثرت على الاسم الصحيح في رواية رونجا ابنة اللص، لكن رونجا طفلة غابة وأنتِ من سكان المدن، أنتِ في حاجة إلى آيس كريم البطريق، والكثير من الأصدقاء حولكِ، خلاصة القول: أنتَ منقطعة النظير، ولا توجد شخصية روائية مثلكِ.

ركلت شاشا حجرًا صغيرًا وقالت بضيق:

ـ لكنكَ قلتَ: إنك وجدت شخصية روائية لائقة بي.

ـ بل قلتُ: إنني فكرت في ذلك، على كل حال لقد وجدتُ لتوي حلًّا ممتازًا.

ـ ولِمَ كل هذه المقدمات؟

ـ على سبيل إثارة الفضول.

ـ أيها العجوز الشرير..، هل ستقول الآن أم أنفجر في البكاء؟

ـ أرجوكِ لا ...، من فضلك كفانا بكاءً..، سأقول لكِ: سأحذو حذو صديقنا القارئ، وأكتب رواية، وستكون بطلتها صبية مثلكِ، سأسميها شاشا، إذًا اسم الكتاب هو اسمك.

ـ هل ستكون رواية عن حياتنا؟"

ـ على كل رواية جيدة أن تتكلّم عن حياة بشر حقيقين من لحم ودم.

ـ أعني، هل سيظهر فيها السّيّد دارسي وإيفي والآخرون؟

توقفت وعضّت على شفتها العليا، وأضافت:

ـ وأبي..، أقصد أبي الطيّب، وليس الآخر الذي رحل.

أومأ كارل:

ـ سأكتب الرواية كأنها من نسج الخيال وحده، ولا علاقة لأحداثها بالواقع، وسيظهر السّيّد دارسي وإيفي والآخرون كما عاشوا طوال السنوات الماضية، مجرد شخوص روائية، وحتى لو أغلِق الكتاب، فسيستمرُّ أبطال الرواية في العيش، وبطبيعة الحال: شاشا.

ـ ستكون رواية جميلة.

ـ أظن ذلك أيضًا.

ولمّا اقتربوا من الزقاق المُظلم أبطأت خطوات كارل، حيث بدا له الزقاق أشد قتامة من أي وقت مضى، ثم أحسَّ بغتة بيدٍ تلامس كتفه، فأخذته رجفة قوية، استدار كارل لمعرفة هوية الشخص، فإذا به يرى والدَ شاشا، ثم تبعته أيادي الآخرين، فتنفس كارل الصعداء، وقال:

ـ إذا كان الأمر كذلك، فعليكم أن ترافقوني كل مساء...ما رأيكم؟

تعالى صوت ضحك الجميع، لكن الضحك كان يخفي بين

طياته بشارة خير تفرح كارل. كان من بين ما خطّطت له شاشا أن يرافق شخصٌ بالغٌ كارل كل ليلة في جولات تسليم الكتب؛ ليرعاه ويكون جواره، أخذ الجميع طريقهم في ظلمة الليل يدًا بيد.

صحيح أن الكتب تختار قُرّاءها، ومع ذلك، فقد تحتاج الكتب أحيانًا إلى مَن يرشدها إلى الطَّريق الصحيح.

مكتبة
t.me/soramnqraa

منشورات نادي الكتاب

telegram @soramnqraa

لكل إنسان منا كتاب مخصوص كُتِب لأجله وحده

كارل كولهوف شيخ في الثانية والسبعين يعيش وحيدًا، ويخرج في جولة يومية لزيارة بيوت عملاء وتسليمهم الكتب. يعرف كارل ذوق كل قارئ وميوله، فيختار له ما يلائمه ويرضي شغفه.

ذات ليلة يصادف كارل الصبية شاشا ذات التسعة أعوام، فتصرّ على مرافقته في جولات تسليم الكتب، لكنه يتعلَّم منها شيئًا عن عوالم الكتب رغم خبرته الطويلة.

ثم قاد القَدَر كارل إلى أن يترك عمله في المكتبة. فهل تنجح الفتاة ذات المعطف الأصفر في أن تبثّ الروح إلى حياة كارل بعد أن ذبلت إثر ترك العمل في المكتبة؟ وهل تنجح شاشا في إعادة الشغف بالقراءة إلى أهالي المدينة الصغيرة؟

ساعي بريد الكتب هي رواية عذبة وآسرة عن فضيلة الصداقة وسحر القراءة وقوة الكتب في المؤالفة بين قلوب البشر.

مكتبة سر من قرأ

BC_PUB
9 786039 222620
CLUB-BOOK.COM